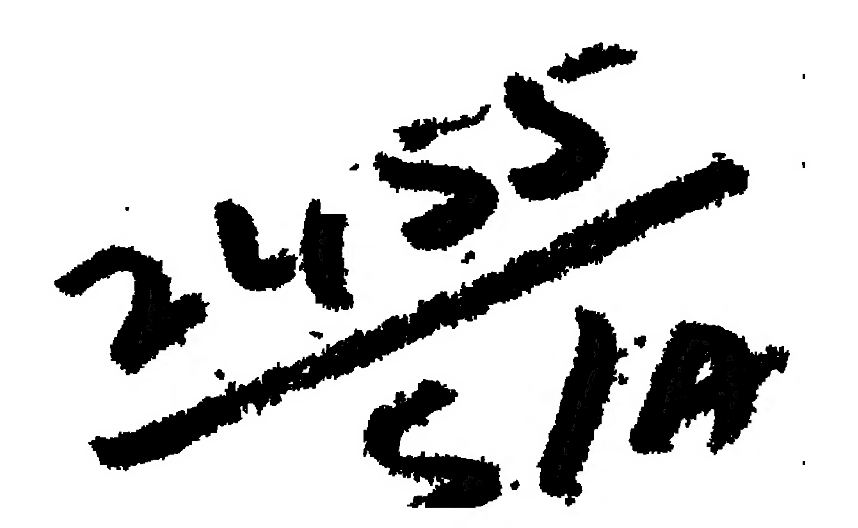

24555
51A

مصر الإسلامية

وتاريخ الخطط المصرية

تأليف

محمد عبد الله عنان
المحامى

[الطبعة الاولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م



وتاريخ الخطط المصرية



محمد عبد الله عنان

المحامي

[الطبعة الاولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مصر غنية بماضيها التالد ، غنية بتاريخها القومى إبان عصور الاستقلال والسلطان والحرية . ولمصر أيام الدول الاسلامية ، تاريخ حافل بمواقف العظمة والبهاء والمجد ، تفاخر به تواريخ أعظم الشعوب والدول . ولكن هذا التاريخ القومى الباهر ، لم يكتب فى عصرنا كما يجب أن يكتب ، ولم نعن باستخراجه من صحف الماضى وسجلاته فى صور محدثة محققة ؛ ولا زلنا نعول فى استقرائه على تراث الماضى البعيد . على أن هذا التراث الحافل ، ما زالت تحجبه عنا عصور طويلة من الركود والنسيان ؛ وقلما تتجه أذهاننا المحدثة الى تصفح هذه الآثار الخالدة ، الفياضة بمآثر تاريخنا القومى ومحاسنه فى عصور الرياسة والمجد . بل لم يشهد الضياء الى يومنا من هذه الآثار سوى قليل مما انتهى الينا منها ، ولا زال معظمها مخطوطا ، مبعثرا فى مختلف الأنحاء . ومن الأسف أن الرغبة فى دراسة التاريخ القومى لم تتقدم فى يومنا تقدما يذكر ، مع أن مصر الناهضة ، الطامحة الى استكمال استقلالها وحرياتها ، الجائشة بفورتها الوطنية ، أحوج ما تكون الى استظهار تاريخها القومى ، واستقرائه واستيحائه . فدراستها التاريخ القومى التالد ، غذاء للروح الوطنى ، ودعامة للعزة القومية ، يوم لاتجد فى ماضيها القريب ، أو حاضرها ، كل ما تنشد من الإشادة بعظمة الوطن ومجده .

وهـذه صحف فى تاريخ مصر الإسلامية ، أملى كتابتها هوى يضطرم لإحيـاء التـاريخ القومى ؛ استخرجتها من ذلك التراث الفيّاض الذى قلما ينفـذ الى حجبه شبابنا المتعلم، واستعرضت فيها ناحيتين مختلفتين من نواحى هذا التاريخ . فأما الأولى، فهى تصوير لفن من فنون التاريخ الإسلامى، ابتدعه وسما به المؤرخون المصريون، أعنى تاريخ الخطط والآثار . وهو فى رأينـا فن مستقل بذاته sui generis، من فنون التاريخ، كان لمؤرخى مصر فضل ابتكاره ، ثم فضل تقدّمه وازدهاره ، حتى غدت آثاره تكوّن وحدها ثبتا حافلا فى ميراثنا التاريخى. نعم ان الكتابة عن «الخطط والآثار» قد شملت جميـع الأمصار الإسلامية العظيمة، وتناولت الكوفة والبصرة ودمشق قواعد الإسلام الأولى، كما تناولت بغداد وأمصار المغرب والأندلس؛ ولكن تناول هذه الأمصار والقواعد العظيمة، التى أدّت أدوارا هامة فى تكوين الحضارة الإسلامية ، وكانت نمـاذج باهرة لعظمة هـذه الحضارة وقوتها ، لم يكن بنفس الاستيعاب والتخصص اللذين تناول بهما المؤرخون المصريون «الخطط والآثار» المصرية، وتاريخ عاصمة الإسلام فى مصر، وتطورات أحوالها ومجتمعاتها فى مختلف العصور . فليس بين الأمصار الإسلامية العظيمة من حظيت كمصر القاهرة بمجموعة حافلة من الآثار والسير، متصلة متعاقبة وقفت عليها ، وخصصت لتتبع نموها وتطور مجتمعاتها، والإشادة بآثارها وذكرياتها ومحاسنها، ورثاء محنها . واذا استثنينا بغداد التى خصص لها مؤرخها أبو بكر الخطيب مجلدا كبيرا فى تاريخه، تناول فيه خططها وصروحها وآثارها بإفاضة[1]، فان قواعد الإسلام الأخرى فى المشرق والمغرب والأندلس، لم تلق من العناية بتاريخها وخططها ، غير ما كتبه مؤرخون ، كالبلاذرى واليعقوبى والطبرى ؛ أو جغرافيون كابن حوقل والإصطخرى والمقدسى والإدريسى وياقوت الحمـوى ؛

---

(١) نشر هذا المجلد المستشرق سالمون ، وهو خاص بتاريخ مدينة بغداد وخططها وقصورها ومعاهدها . وهو قطعة من تاريخ بغداد المشار اليه .

أو رحل كابن جبير وابن بطوطة؛ أو أدباء كابن الخطيب والمقرى[1] . فهؤلاء وهؤلاء يتناولون فى آثارهم سير العواصم الإسلامية وأحوالها فى نبذ عرضية أو فصول خاصة؛ ولكنهم يكتفون فى الغالب بالتعميم، ولا يقفون طويلا فى تتبع الخطط والصروح والآثار والمجتمعات، كما يفعل المؤرخون المصريون فى استيعاب الخطط والآثار المصرية، بكثير من التخصص والإفاضة. كذلك يرجع الفضل فى ابتكار هذا النوع من الأدب التاريخى، الى المؤرخين المصريين؛ فهم أول من خصه بالكتابة والعناية؛ وكان عبد الرحمن بن عبد الحكم المصرى، الذى عاش فى أوائل القرن الثالث، أول مؤرخ للخطط والآثار؛ وقد تناولها فى تاريخه فى فصل خاص، كان أول مادة لهذا التراث، الذى نما وازدهر على يد خلفائه من كتاب الخطط، فى سلسلة متعاقبة متصلة بلغت ذروتها على يد المقريزى أعظم مؤرخى الخطط . وكان أول من كتب من غير المصريين، عن الأمصار الإسلامية ، البلاذرى واليعقوبى، وقد عاش كلاهما فى أواخر القرن الثالث، ثم الطبرى والإصطخرى والمقدسى، وقد عاشوا جميعا فى القرن الرابع؛ ثم كتب أبو بكر الخطيب عن بغداد بإفاضة فى أواسط القرن الخامس . وكتب من بعد هؤلاء من ذكرنا من الكتاب والرحل . ولكنهم جميعا، ماعدا أبا بكر الخطيب، ليسوا مؤرخين إخصائيين للخطط والآثار بالمعنى الذى يطلق على المؤرخين المصريين، ولا تجمع بين آثارهم وحدة التعاقب والاتصال التى تجمع بين آثار الخطط المصرية؛ ومن ثم كان تاريخ الخطط والآثار، كما قدمنا فنا فى الأدب التاريخى، مستقلا بذاته sui generis ؛ وكان فنا مصريا، ابتدعه المؤرخون المصريون، وانفردوا بالتخصص والبراعة فى عرضه واستيعابه .

---

(١) البلاذرى فى كتاب «فتوح البلدان»، واليعقوبى فى «كتاب البلدان»، والطبرى فى «تاريخه»، وابن حوقل فى «المسالك والممالك»، والإصطخرى فى «كتاب الأقاليم»، والمقدسى فى «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» والإدريسى فى «نزهة المشتاق»، وياقوت فى «معجم البلدان»، وابن جبير وابن بطوطة كل فى «رحلته»، وابن الخطيب فى «الإحاطة فى أخبار غرناطة»، والمقرى فى «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» .

وأما الناحية الثانية التي عالجتها من تاريخ مصر الإسلامية، فهى أنى تناولت منه بعض مواقف لم تلق حقها من التعريف، وعنيت بالأخص بأن أعرض منه بعض الصور والظواهر السياسية والاجتماعية والنفسية التى قلما يُعنى بعرضها، والتى تمتاز بطرافتها، وقوة أثرها فى حياة مصر العامة . وعرضتها فى نوع من الدراسة التحليلية المقارنة، مجردة من التفاصيل والتمهيدات العامة، لأنى أكتبها لخاصّة القراء والمتعلمين الذين يلمون بكليات التاريخ المصرى، وأكتبها بالأخص لشبابنا المثقّف الذى يتوق الى استعراض مواقف التاريخ القومى، فيما يلائم ثقافته المحدثة من الأساليب والصور، كما يستعرض تاريخ أرقى الأمم وأحدثها .

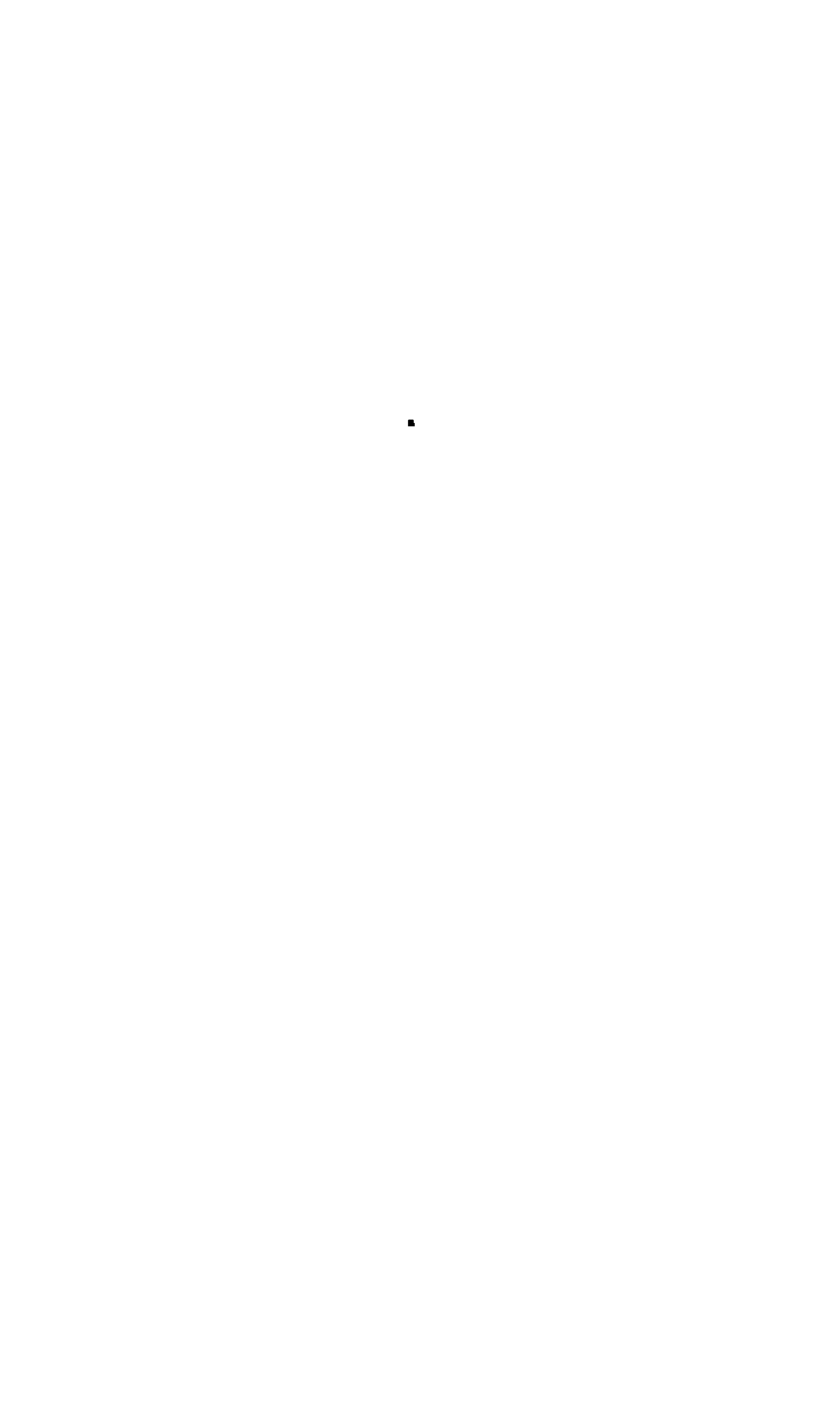
وقد رجعت فى استخراج هذه الصحف، الى مادة غزيرة من آثار ذلك التراث الفياض، الذى انتهى الينا فى تاريخ مصر الإسلامية؛ وهو تراث ما زال يُغمط حقه ونفاسته من شبابنا المتعلم . بيد أنى حرصت على استعراضه، والتنويه بكل ما وسعنى مراجعته واستشارته، ما شهد منه الضياء وما بقى مخطوطا لم يشهده، ولا سيما فى الكتاب الأول؛ تعريفا لشبابنا المتعلم بما هنالك من آثار وكنوز فى تاريخ مصر الإسلامية، هى أنفس ذخيرة لتاريخنا القومى، يوم يقدر لهذا التاريخ أن يكتب بما يجب من سعة وإفاضة، وعرض محدث، وتحقيق مستنير منزه عن كل مؤثر وهوى .

وقد ذيلت الكتاب ببعض ملاحق وفهارس، أرجو أن تفيد فى تسهيل القراءة والمراجعة، كما عنيت بذكر المراجع مجتمعة، بعد أن ذكرتها فى مواضع الرجوع اليها . ولست أنسى عند ذكر المراجع أن أوجه خالص الشكر لدار الكتب المصرية، لمديرها الغيور، ولأصدقائى العديدين من موظفيها، على ما ألاقيه دائما من المعاونة الصادقة لتسهيل مهام البحث والمراجعة، كما أوجه جزيل الشكر لمطبعة دار الكتب، فى شخص ملاحظها الفاضل، لما بذلت من عناية ودقة، فى اخراج الكتاب فى هذا الثوب الأنيق .

وأرجو فى الختام، أن أكون قد وفقت بعض التوفيق فى عرض هذه الصور من تاريخ مصر الإسلامية ، فى أثواب من التحقيق والتنسيق والجدة ، تبعث هوى فى دراسة التاريخ القومى وإحيائه؛ ذلك عندى أسمى الجزاء .

القاهرة فى نوفبر سنة ١٩٣١

محمد عبد الله عنان
المحامى



الكتاب الأول

الخطط في تاريخ مصر



الفصل الأول

عاصمة الاسلام فى مصر

١

نشأة الفُسطاط

تاريخ الخِطَط أو تاريخ الأمصار، إنشاؤها وتطوّرها، وتتبع معالمها ومعاهدها وآثارها ومجتمعاتها، خلال العصور المختلفة، من النواحى الهامة فى تاريخ الحضارات والدول، ولا سيما فى العصور القديمة والوسطى، حينما كانت حياة المدينة ترتبط أشد الارتباط بمصاير حضارة أو دولة معينة. فتاريخ أثينة والمجتمع الأثينى يعنى تاريخ اليونان دولةً وحضارةً؛ كما أن تاريخ رومة ومجتمعاتها فى عصور الجمهورية والامبراطورية، هو تاريخ الرومان والحضارة الرومانية؛ وتاريخ قُسْطنطينية فى العصور الوسطى، هو تاريخ الدولة البِيزَنْطية وحضارتها . كذلك نرى هذه الظاهرة قوية الأثر والتطبيق فى تاريخ الاسلام والدول الإسلامية؛ فقد كانت دمشق أيام الدولة الأموية قلب الاسلام الخفّاق، ومعقل عظمته ودعوته، ومنبع حضارته الاولى. ورعت بغداد بعدها هذا التراث الباهر حيناً فتفتح فيها وازدهر. فلما ذوت عظمة بغداد، حملت القاهرة هذا اللواء، ولبثت طَوال العصور الوسطى للاسلام معقلا منيعا، ومنارة ساطعة . وكانت قُرْطبة من جانبها تؤيد دولة الاسلام ودعوته، وتبث تفكيره وحضارته فى الغرب . وتاريخ هذه الأمصار العظيمة، وتاريخ أسَرها ومجتمعاتها، هو تاريخ الاسلام والمدنية الاسلامية.

وقد كان للخِطط شأن عظيم فى التاريخ الاسلامى، فقد تتبع المؤرخون المسلمون إنشاء الأمصار الاسلامية العظيمة ومعاهدها وآثارها ومجتمعاتها، بالتدوين

والوصف. وكان لمصر والقاهرة من هذه العناية الحظ الأوفر. وقد فقدنا الكثير من هذه السير والتواريخ التى تصف عظمة القاهرة وبهاءها فى العصور الوسطى، ولكن لا يزال لدينا اليوم منها تراث نفيس خالد. وتبدو أهمية هذا التراث بوجه خاص، متى ذكرنا أن القاهرة وحدها، من بين الأمصار الاسلامية العظيمة، لا زالت تحتفظ بمعظم مواقعها وآثارها القديمة. وبينما غاضت بغداد القديمة، وأضحت منذ بعيد بلدا شرقيا متواضعا لا أثر فيه لعظمة الاسلام السالفة؛ وبينما انحطت دمشق الى مدينة ثانوية؛ وأضحت قرطبة وغرناطة مدينتين نصرانيتين ولم تبق فيهما من آثار الاسلام سوى أطلال دارسة؛ إذا بالقاهرة وحدها تجمع الى عظمتها فى العصور الوسطى والى آثارها الاسلاميه الباهرة، كل مميزات الأمصار الغربية العظيمة، واذا الكثير من خططها ومعالمها القديمة لا يزال حيا قوى الأثر، تؤكده وتعينه آثارها الباقية.

نشأت قاعدة الاسلام فى مصر وقت الفتح الاسلامى ذاته، ولكنها نشأت متواضعة جدا، ولم تكن فى بدايتها أكثر من معسكر للجند الفاتح، ومركز للقيادة والادارة؛ وأقيمت، حسبما تقول الرواية، فى نفس المكان الذى أحرز العرب فيه النصر الحاسم على جيش الروم والقبط، وغنموا ملك مصر. واقترن إنشاؤها وتسميتها بنوع من الأسطورة، شأن كثير من الأمصار العظيمة. وتختلف الرواية الاسلامية فى الوقت والظروف التى أنشئت فيها الفسطاط. وأقدم رواية لدينا هى رواية ابن عبد الحكم[1] أقدم مؤرخى مصر الاسلامية، وهى:

«قال: حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب[2]، أن عمرو بن العاص، لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها، هم أن يسكنها وقال: مساكن قد كفيناها. فكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك، فسأل عمر الرسول: هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال: يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل،

---

(١) توفى سنة ٢٥٧ هـ.

(٢) توفى عثمان بن صالح سنة ٢١٩ هـ وابن لهيعة سنة ١٧٤ هـ ويزيد بن حبيب سنة ١٢٨ هـ.

فكتب عمر الى عمرو : لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني و بينهم فى شتاء ولا صيف . فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط» (١) .

وأما عن تسمية الفسطاط فيقول ابن عبد الحكم :

«قال : وإنما سميت الفسطاط كما حدثنا أبى عبدُ الله بن عبد الحكم وسعيد ابن عُفير، أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الاسكندرية لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فُسْطاطه، فإذا فيه يمام قد فرخ، فقال عمرو بن العاص : لقد تحرم منا بمتحرم، فأمر به فأقر كما هو، وأوصى به صاحب القصر (٢) .

فلما قفل المسلمون من الاسكندرية ، فقالوا أين ننزل، قالوا الفسطاط ، لفسطاط عمرو الذى كان خلفه وكان مضروبا (٣) » .

والمستخلص من هذه الرواية ، فوق كونها تشرح الظروف التى أنشئت فيها الفسطاط وسميت ، هو أن الفسطاط قد أنشئت بعد فتح الاسكندرية، لتكون مركزا للفاتحين، وقاعدة للقيادة والإدارة . وقد تناقل مؤرخو مصر الإسلامية هذه الرواية على كر العصور ، وارتضوها شرحا لقيام عاصمة الإسلام الأولى فى مصر . ولا ريب أنها كانت رواية الكِنْدى وابن زُولاق (٤)، وهما أول من عنى بعد ابن عبد الحكم بكتابة تاريخ الخطط ، فوضع كلاهما فيه مؤلفا خاصا لم يصلنا . ولكن ما انتهى الينا من مباحثهما فى الخطط، يدل على أنهما اتخذا مادة ابن عبد الحكم أساسا لمجهودهما. ونقل القُضَاعى (٥) مؤرخ الخطط من بعدهما، نفس هذه الرواية عن قيام الفسطاط وتسميتها ، وهى رواية لم تصلنا إلا بطريق النقل، لأن خطط القضاعى قد فقدت أيضا، ولا نعرف منها إلا ما نقله المتأخرون مثل ابن دُقْماق والقَلْقَشَندى والمَقريزى

(١) فتوح مصر وأخبارها — ص ٩١

(٢) قصر الشمع أو حصن بابليون الذى كان يمتنع به الروم . والمقصود بصاحبه هنا هو المقوقس .

(٣) فتوح مصر — ص ٩١

(٤) توفى الكندى سنة ٣٥٧ ﻫ وابن زولاق سنة ٣٨٧ وسنعود اليهما .

(٥) توفى القضاعى سنة ٤٥٤ ﻫ وسنعود اليه .

والسيوطى، وكلهم يردد نفس الرواية مع فرق فى الألفاظ والصيغ[١]. وينقل السيوطى الينا رواية القضاعى كاملة؛ وفيها يحدد القضاعى تاريخ فتح مصر بمستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٤٠ م) ثم يقول: «وقفل عمرو بن العاص من الاسكندرية، بعد افتتاحها والمقام بها فى ذى القعدة سنة عشرين. قال الليث: أقام عمرو بالاسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر، ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا[٢]».

ويبدأ قيام الفسطاط كقاعدة ومدينة إسلامية بتوزيع «الخِطَط» بين قبائل الغزاة. وهنا أيضا يقدم الينا ابن عبد الحكم أقدم رواية عن إنشاء هذه الخطط التى كانت مهد الفسطاط. فقد اختط عمرو بن العاص مسجده الشهير فى سنة ٢١ هـ (٦٤١م) واختط أمامه منزلا ليكون دارا للإمارة، واختط الزعماء والقبائل حول المسجد[٣]. ويقول القُضَاعى فى نشأة خطط الفسطاط: «ولما رجع عمرو من الاسكندرية ونزل موضع فسطاطه، انضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا فى المواضع، فولى عمرو على الخطط، معاوية بن حُديج التُجيبى، وشريك بن سمى الغطيفى، وعمرو ابن قُحزم الخولانى، وحَيْويل بن ناشرة المغافرى، وكانوا هم الذين أنزلوا الناس، وفصلوا بين القبائل وذلك فى سنة احدى وعشرين[٤]».

ويفيض ابن عبد الحكم فى وصف هذه الخطط الأولى لمصر الإسلامية، ويعين مواضع الدور والأمكنة التى اختطها الزعماء والقبائل. ولا ريب أن روايته فى ذلك أقرب الروايات الى الحقيقة، لأنه ولد فى الفسطاط وعاش بها، وأدرك معظم معالمها القديمة، وأدركت أسرته التى كانت خلال القرن الثانى للهجرة من سادة الفسطاط، ما اندثر من هذه المعالم، وما تعاقب بشأنها من الروايات؛ وتلقى ابن عبد الحكم هذا

---

(١) راجع كتاب الانتصار لابن دقماق (بولاق ج ١ ص ٢ – ٣) وكتاب صبح الأعشى للقلقشندى (دار الكتب ج ٣ ص ٣٣٠) وخطط المقريزى (طبع بولاق ج ١ ص ٢٩٦).

(٢) السيوطى — حسن المحاضرة — ج ١ ص ٧٢ (الطبعة العادية مصر سنة ١٣٢١ هـ).

(٣) فتوح مصر — ص ٩١ و ٩٦

(٤) المقريزى عن القضاعى — الخطط — ج ١ ص ٢٩٧

التراث عن أبيه و إخوته . و إذًا ففى وسعنا بالاعتماد على رواية ابن عبد الحكم عن الخطط أن نعين مواقع الفسطاط القديمة تعيينا لا يبعد عن الحقيقة[1] .

وفى الوقت الذى وضعت فيه خطط الفسطاط، وضعت فى الضفة المقابلة لها على النيل خطط الجيزة، فان بعض القبائل اختار النزول فى هذا المكان؛ وأنشأ الفاتحون فيه فى سنة ٢١ هـ حصنا لاتقاء المفاجأة[2]، وتم بذلك استقرار العرب على ضفتى النيل حيثما غنموا ملك مصر، وقامت العاصمة الأولى لمصر الإسلامية .

وتدل أوصاف الخطط وتقدير الأبعاد، طبقا لرواية ابن عبد الحكم، على أن موقع الفسطاط القديمة، كان يشغل مسطحا طوله نحو خمسة الآف متر، حده من الشمال جبل يَشْكُر الذى يقع عليه جامع ابن طولون الآن، ومن الجنوب دير الطين (أو دير ماريوحنا) وفى وسطه جامع عمرو، ممتدا على ضفة النيل مقابل الجزيرة التى تعرف الآن بجزيرة الروضة، وأن عرض هذا المسطح لم يكن يزيد على ألف متر لأن النيل حده الغربى، وكان مجرى النيل يومئذ على ما يظهر أقرب الى الفسطاط من موضعه الحالى[3] .

٢

من مصر الفسطاط الى مصر القاهرة

وقد أُنشئت خِطط الفسطاط حول المسجد الجامع (جامع عمرو)، على نفس القواعد البسيطة التى اتبعت فى صدر الإسلام، فى إنشاء الأمصار الإسلامية الأولى مثل الكوفة والبصرة، لتكون مجمعا لنزول القبائل الغازية، ومركزا للإمارة والإدارة، وقاعدة لإتمام إخضاع البلاد المفتوحة واستعمارها . وكان إنشاء الفسطاط أول محجر

(١) تراجع رواية ابن عبد الحكم عن الخطط فى فتوح مصر — ص ٩١ — ١٢٨

(٢) فتوح مصر — ص ١٢٩

(٣) المستشرق جست (Guest) — مجلة الجمعية الملكية الأسيوية (J. R. A. S.) سنة ١٩٠٧ ص ٤٥ ومابعدها . وفى هذا البحث شرح قيم لخطط الفسطاط الأولى ومعه خريطة تقريبية الفسطاط .

فى صرح المدينة العظيمة التى عُرفت فيما بعد بمصر ثم القاهرة، وغدت منار الإسلام ومعقله، وعروس أمصاره. غير أنه لم يتح للفسطاط فى عصورها الأولى، ما أتيح لغيرها من قواعد الإسلام من الضخامة والبهاء، لأنها لبثت خلال القرنين الأولين للهجرة، عاصمة لإقليم فقط من أقاليم الخلافة، ومنزلا للحكام المحليين، وقاعدة عسكرية لفتوح أخرى فى الغرب والجنوب. أما الاسكندرية وهى أعظم مدائن مصر يومئذ عمارة و بذخا ورونقا، فقد حافظت فى عصور الإسلام الأولى على صبغتها اليونانية الرومانية، ولم تغلب عليها الصبغة الاسلامية إلا خلال القرن الثانى حينما ذاع الإسلام بين معظم أهلها .

ولبثت الفسطاط قاعدة الإسلام الرسمية فى مصر، حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . غير أنه وقع فى خِطَطها أثناء ذلك انقلابان عظيمان ، هما قيام «العَسْكَر» ثم « القَطَائع »، وكلتاهما قاعدة أخرى أقيمت تبعا لتطور الأحوال السياسية . فأما «العسكر» فقد قامت فى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) على أثر سقوط الدولة الأموية ، حينما فر بنو أميه الى مصر ليمتنعوا بها وعلى رأسهم آخر خلفائهم مروان بن محمد، فتبعتهم جيوش بنى العباس الى مصر بقيادة صالح بن على وابى عون عبد الملك بن يزيد ، وظفرت بمروان وكثير من آله . وكان الجانب الشمالى من الفسطاط مما يلى جبل يَشْكُر قد خرب يومئذ وعفت معاهده وآثاره وغدا فضاء قفرا ، فنزل فيه جند بنى العباس وابتنوا قاعدة جديدة سميت «بالعسكر» وبنيت فيها دار جديدة للإمارة، ومسجد جامع عُرف بجامع العسكر . وفى ولاية السِّرِىّ بن الحكم (٢٠٠ — ٢٠٥هـ) (٨١٦ — ٨٢٠ م) أُذن الناس بالبناء حول « العَسْكَر » وكثرت فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط، «وصارت «العسكر» مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة»(١) . ولبثت منذ قيامها مركز الإمارة والإدارة والشرطة، حتى ولاية أحمد بن طولون . ونزل ابن طولون لأول ولايته فى دار إمارتها وابتنى فيها مارستانا (مستشفى) عظيما؛ وبذا عمرت «العَسْكَر» كقاعدة رسمية لمصر الإسلامية أكثر من قرن (١٣٣—٢٥٦هـ) .

---

(١) خطط المقريزى — ج ١ ص ٣٠٤ .

وفى عهد ابن طولون (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ) (٨٦٨ — ٨٨٤ م) شهدت خطط الفسطاط انقلابها الثانى . وكان انقلابا عظيما تحولت به قاعدة مصر الإسلامية ، من مركز حربى وإدارى بسيط ، الى مدينة ملوكية . وكان أحمد بن طولون رجلا وافر العزم والهمة ، فلم يمض على ولايته مصر عامان ، حتى رأى أن «العسكر» تضيق بحاشيته ومشاريعه ، واعتزم أن ينشىء له قاعدة تجمع بين المناعة والفخامة ، فاختار لذلك منطقة تقع فيما بين جبل يشكر حد الفسطاط الشمالى ، وبين سفح المقطم فى مكان كان يعرف وقتئذ بقبة الهواء ، وهو الذى بنيت فيه قلعة الجبل فيما بعد ؛ وفيما بين الرُّميلة تحت القلعة الى مشهد الرأس الذى عرف فيما بعد بمشهد زين العابدين . ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة فى شعبان سنة ٢٥٦ هـ (أغسطس سنة ٨٧٠ م) وبنى ابن طولون قصره تحت موقع القلعة ، ومسجده الشهير الذى لا يزال قائما الى الآن فوق جبل يشكر ، والى جانبه دار للامارة ، وفيما بين المسجد والقصر ميدان شاسع . واختط أصحابه وأتباعه من القادة والسادة والغلمان ، حول القاعدة الجديدة ، وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ، وأُقطعت كل طبقة وكل جماعة من الأتباع والسكان منطقة خاصة ، ومن ثم سميت العاصمة الجديدة «بالقَطَائِع» وسميت كل قطعة بمن سكنها . «وعُمِّرت القطائع عمارة حسنة ، وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران ، وسميت أسواقها ... ولكل من الباعة سوق حسن عامر ، فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام . وبنى ابن طولون قصره ووسعه وحسنه ، وجعل له ميدانا كبيرا يضرب فيه بالصوالجة فسمى القصر كله الميدان»[1] .

وجاء بعد ابن طولون ولده خُمَارَوَيْه ، فعنى بتوسيع القطائع وتجميلها عناية فائقة ، وزاد فى قصر أبيه زيادات كبيرة ، وغرس فى الميدان بستانا عظيما تتخلله مسارح الطير ، وأنشأ له قصرا خاصا بذل فيه من صنوف البهاء والبذخ آيات عجيبة ، وجعل فيه بركة كبيرة من الزئبق الخالص ، وإيوانا فخما عليه قبة عظيمة ، ودارا للسباع ، وغير ذلك

(١) المقريزى فى إنشاء القطائع وتاريخها — الخطط — ج ١ ص ٣١٣ وما بعدها .

مما أفاض فى وصفه مؤرخو الخطط[1] . وكانت القطائع تشغل مساحة قدرت بميل فى ميل[2] وذلك حسبما أشار اليه ابن سَعيد الاندلسى الذى زار مصر أيام الملك الصالح (٦٣٧—٦٤٧ هـ) (١٢٤٠—١٢٤٩ م) فى كتاب «المُغرِب» حيث قال : «وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميل فى ميل يسكنها جنده تعرف بالقطائع ، كما بنى بنو الأغلب خارج القَيْروان رَقّادَة . وقد خربتا فى وقتنا ، وأخلف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة[3]» .

كانت القطائع عاصمة ملوكية حقة ، تنم عن قوة الدولة الطولونية وبذخها . ولكن الدولة الطولونية لم تعمر طويلا بعد ذهاب مؤسسها القوى ، فلم يمض ربع قرن حتى اضمحلت ، وبعث الخليفة المكتفى بالله جنده الى مصر لاستعادة سلطة الخلافة فيها ؛ فدخلوها بقيادة محمد بن سليمان فى أوائل سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) واقتحموا القطائع ، وأضرموا فيها النار ، وخربوا قصورها ومعاهدها وحدائقها ؛ وقتل بنو طولون ومن اليهم من بقية هذه الدولة الزاهرة ، وأضحت القطائع أطلالا دارسة لم يبق منها غير المسجد الجامع . وكانت مأساة أليمة مروعة ، أفاض فى وصفها شعراء العصر ، فمن ذلك قول سعيد القاصّ من قصيدة مؤثرة يرثى بها بنى طولون :

تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا ... كما ارفضّ سِلْكٌ من جُمان ومن شَذْرِ
فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله ... لفقدهم فليبك حزنا على مصر
لِيَبْكِ بنى طولون إذ بان عصرُهم ... فبورك من دهر وبورك من عصر

وعادت مصر الفسطاط مركز الولاة ومقر الإمارة عصرا آخر ؛ وكان أغلب سكن الأمراء يومئذ «بالعسكر[4]» ؛ وبلغت من الضخامة والعمارة والسعة مبلغا عظيما يبالغ

(١) خطط المقريزى — ج ١ ص ٣١٦ — ٣١٨ .

(٢) الميل عند العرب مقدار مدى البصر ، ويقدره البعض بثلاثة آلاف ذراع والبعض الآخر بأربعة آلاف ذراع . والميل ثلث الفرسخ .

(٣) كتاب المغرب فى حلى المغرب . ولم تنشر منه الا أجزاء يسيرة ، ومعظمه مخطوط بدار الكتب (رقم ٢٧١٢ تاريخ) فى القسم المعنون منه «كتاب الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط» (ص ١٠) وهو مما نقله المقريزى أيضا (الخطط ج ١ ص ٣٤١) وسنعود الى ذكر كتاب المغرب فيما بعد .

(٤) خطط المقريزى — ج ٢ ص ٢٠١ .

فى وصفه وتقديره مؤرخو الخطط، ويورد بعضهم عنه روايات خرافية، مثال ذلك ما رواه الجوّانى النسّابة عن القُضاعى ونقله المقريزى: من أنه كان بمصر الفسطاط من المساجد ستة وثلاثون ألف، وثمانية آلاف شارع مسلوك، وألف ومائة وسبعون حماما. ونقل المقريزى عن القضاعى أيضا، وعن غيره من المؤرخين المتقدمين مثل ابن زُولاق والمُسَبِّحى[1] وغيرهما، ممن أدركوا خطط الفسطاط القديمة قبل اضمحلالها، روايات كثيرة عن مصر الفسطاط، وكثرة سكانها ووفرة غناها وعمارتها، اذا لم نستطع أن نصدقها بنصوصها، استطعنا، على الأقل، أن نستخلص منها فكرة عن ضخامة المدينة الإسلامية التى قامت على خطط الفسطاط الأولى[2] وغلب عليها اسم مصر منذ أواسط القرن الثالث، وأضحت فيما بعد قسما عظيما من القاهرة متمما لضخامتها وامتدادها، ولازالت الى اليوم تحمل اسم «مصر القديمة» مع خلاف يسير فى الحدود والمواقع.

وقد وصف ابن حَوْقَل الرحالة البغدادى مدينة الفسطاط كما شهدها فى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى (أواخر القرن العاشر الميلادى) بقوله: «والفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها، وهى كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ[3]، على غاية العمارة والطيبة واللذة، ذات رحاب فى محالها، وأسواق عظام فيها ضيق؛ ومتاجر فخام، ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة، ومنتزهات على ممر الأيام خضرة. وفى الفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب اليها كالبصرة والكوفة الا أنها أقل من ذلك. وهى سبخة الأرض غير نقية التربة، وتكون بها الدار سبع طبقات وستا وخمسا، وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس، ومعظم بنيانهم بالطوب، وأسفل دورهم غير مسكون[4]».

---

(١) توفى ابن زولاق كما قدمنا فى سنة ٣٨٧ هـ والمسبحى سنة ٤٢٠ والقضاعى سنة ٤٥٤.

(٢) يراجع الفصل الذى كتبه المقريزى متضمنا لما قيل فى ضخامة مصر الفسطاط وعمارتها من الروايات (ج ١ ص ٣٣٠ وما بعدها) وكانت خطط الفسطاط الأولى وكذلك العسكر والقطائع قد زالت تماما قبل عصر المقريزى بعهد بعيد وقامت مكانها مدينة مصر.

(٣) الفرسخ ثلاثة أميال عربية والميل كما تقدم نحو أربعة آلاف ذراع.

(٤) ابن حوقل — المسالك والممالك — ص ٩٦ (فى المكتبة الجغرافية التى اصدرها المستشرق دى جويه) ونقله المقريزى — الخطط ج ١ ص ٣٤١ — ويخصص ابن حوقل فصلا لمشاهداته فى مصر (ص ٨٧ وما بعدها).

ووصفها ابن سعيد الأندلسى كما شهدها حوالى سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٣م) فى قوله :
« وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها، ويحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد، ولها منتزهات، ولا ينزل فيها مطر الا فى النادر، وترابها تثيره الأرجل وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها، ويسوء بسببه هواؤها. ولها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة . ومذ بنيت القاهرة للخلفاء الاسماعيليين المتوثبين عليها من الغرب، ضعفت مدينة الفسطاط، وفرط فى الاغتباط بها شدة الافراط . وبينهما نحو ميلين . وأنشد فيها الشّريف العُقَيلى :

تبدّت عروسا والمقطمُ تاجُها * ومن نِيلها عِقْدٌ كما انتظم الدّرّ [(١)]

٣

القاهرة المعزية إلى العصر الحديث

وكان قيام القاهرة أعظم وآخر انقلاب فى خطط قاعدة مصر الاسلامية؛ وكان فاتحة عهد جديد فى تاريخ الاسلام والخلافة، ومبدأ هذه الدول الاسلامية الباهرة، التى استقلت بمصر وجعلت منها أمنع قاعده للذود عن الاسلام وأسطع منارة فى المشرق لبث حضارته وتفكيره . وهى قاهرة المُعِزّ أو القاهرة المُعِزِّية، نسبة الى مؤسسها الخليفة المُعِزّ لدين الله الفاطمى، منشىء الدولة الفاطمية بمصر . وكان إنشاؤها عقب فتح جيوش المعز لمصر بقيادة مولاه جَوْهَر الكاتب الصقلى، وانقضاء دولة بنى الإخْشِيد المتغلبين على مصر . وكان دخول جيوش المعز مدينة مصر

---

(١) المغرب — فى كتاب « الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط » ، وبميل ابن سعيد الى الذم ويشكو من ضيق مسالك الفسطاط وضيق أسواقها وكدر تربتها (ص ٣ وما بعدها فى المخطوط المشار اليه) وفى خطط المقريزى (ج ١ ص ٣٤١) . ونقل المقريزى عن كتاب ابن المتوج فى الخطط وصفا دقيقا لما كانت عليه مدينة مصر الفسطاط فى اوائل القرن الثامن الهجرى (ج ١ ص ٣٤٢) وهو ما سنعود اليه فيما بعد .

الفسطاط فى ١٧ شعبان سنه ٣٥٨ هـ (٧ يولية سنه ٩٦٩ م)[١] فشقها الجيش الظافر عند مغيب الشمس وعسكر فى الفضاء الواقع تجاهها نحو الشمال الغربى . وفى نفس الليلة وضع القائد جوهر، تنفيذا لأوامر المعز، أول خطة فى مواقع المدينة الجديدة التى اعتزم الفاطميون إنشاءها لتكون لهم فى مصر قاعدة ومعقلا، وحفر أساس قصر جديد فى نفس الفضاء الذى نزل فيه جيشه؛ فكان هذا مولد القاهرة. ويرى بعض المؤرخين أن خطط القاهرة، وضعت فى ٦ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ أعنى فى نفس اليوم الذى اختط فيه الجامع الأزهر. ولكنا نرى مع المقريزى أعظم مؤرخى الخطط أن وضع أساس القصر الفاطمى هو مبعث القاهرة. واختطت القبائل الشيعية حول القصر، كل قبيلة خطة عرفت بها كزويلة وبرقة وغيرهما؛ وسميت المدينة الجديدة بالقاهرة تفاؤلا وتيمنا بالنصر . وأقيم حول خططها سور جديد . وكان القصد من إنشائها أن تكون معقلا للفاطميين فى مصر لرد خطر القرامطة، الذين سادت دعوتهم بلاد العرب يومئذ، واجتاحوا الشام مرارا، وأصبحوا خطرا على مصر من جهة المشرق . وفى وسعنا الى اليوم أن نحدد القاهرة المعزية مما بقى الى اليوم من آثار سورها ومعالمها القديمة؛ فقد كانت تحد من الشمال بموقع باب النصر وما يليه؛ ومن الجنوب بموقع باب زويلة وما يليه، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المشرفين على الجبل، ومن الجهة الغربية بموقع باب السعادة وما يليه حتى شاطىء النيل[٢] .

---

(١) يتفق معظم المؤرخين المسلمين على أن دخول الفاطميين مصر كان فى يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ . وهذه هى روايه ابن الأثير (مصر ج ٨ ص ٩٤) والمقريزى (الخطط ج ١ ص ٣٦١) والسيوطى (حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣). وذكر العينى فى تاريخه عقد الجمان (مخطوط بدار الكتب فى المجلد الرابع عشر — ١ —) أن القائد جوهر وصل مصر يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٣٥٨ . ولكنه ينقل عن ابن كثير أنه وصل فى ١٧ شعبان ونزل موضع القاهرة . وقد تضع بعض الروايات هذا التاريخ فى ١٥ شعبان أو ١٨ منه . ولكن الرواية الأولى أرجح وأقوى .

(٢) ليست هذه المعالم مجهولة ممن يعرف أحياء القاهرة القديمة، فمواقع باب زويلة وباب النصر وهما حدا القاهرة المعزية من الجنوب والشمال لا تزال معروفة وكذلك مواقع بابى المحروق والبرقية (الدراسة الحديثة) تحدد معالم الحد الشرقى للقاهرة المعزية من جهة المقطم . وعلى ذلك يكون موضع القاهرة =

* * *

قامت القاهرة مدينــة متواضعة لتكون معقلا ومنزلا للدولة الفاطمية الفتية؛ ولبثت من بعد قيامها حينا مدينة ملوكية عسكرية، لا تضم غير قصور الخلفاء ودواوين الحكم، وخزائن المـال والسلاح، ومساكن الأمراء والبطانة، ومن اليهم من الأتباع النازحين فى ركاب الغزاة. ولكن لم يمض جيل واحد حتى اتسعت جنبات المدينة الجـديدة ونمت نموا عظيما، وبدأت القاهرة فى ظل الدولة القوية الجديدة، تتبوأ مكانتها من العظمة والرونق والبهاء؛ فاتصلت بمصر الفسطاط، وامتزجت المدينتان وتداخلتا، وصارتا تكوّنان معًا مدينة من أكبر وأعظم مدن الإسلام فى العصور الوسطى إن لم تقل أعظمها جميعا .

وقد كان الاصطلاح على تحديد القاهرة يختلف من عصر إلى آخر، بعـد أن استحالت من قلعة ملكية الى مدينة شاسعة . وكانت القاهرة المعزية كما قدّمنا هى مجموعة الخطط التى تقع داخل السور الذى أقامه جوهر القائد؛ ولكن هذا السور غير مرارا أثناء الدولة الفاطمية و بعدها ؛ وأنشئت فيما وراء الأسوار القديمة، خطط وأحياء جديدة فخمة، تمتد فيما بين الجامع الطولونى وقلعة الجبل الى الجهة المقابلة على ضفة النيل ؛ وكذلك فيما بين جبل المقطم ذاته مما وراء بابى النصر والفتوح والجهة المقابلة من ضفة النيل[(١)] . وكان اسم القاهرة يطلق اصطلاحا على المدينة الأولى فيما بين الأسوار، وهى تقع فى وسط المنطقة العظيمة التى حدّدناها؛ وأما هذه المنطقة الجـديدة خارج الأسوار فكانت تعرف بظاهر القاهرة؛ وهما معا يكوّنان المدينة العظمى . وأما مصر فكانت دائما تطلق على الفسطاط القديمة، وما استحدث فيها

= المعزية القديمة مما يشمل الآن الجامع الأزهر وما حوله من الأحياء والجمالية وقسما من الحسينية و باب الشعرية والموسكى الى الخليج والسكة الجديدة والغورية وما حولها وحارة الروم وما يليها ودرب سعادة وما يليه الى باب الخلق وامتداد ذلك غربا نحو النيل (المقريزى — الخطط — ج ١ ص ٣٥٩ — ٣٦٠) .

(١) المقريزى — الخطط — ١ ص ٣٦٠ ؛ وهذا التحديد يعنى أن الأحياء التى تعرف الآن ببولاق وشبرا ومنية السيرج وما يقع بينهما طولا وعرضا ، وكذلك المنطقة الكبيرة التى يتوسطها الآن ميدان باب اللوق كانت جميعا من خطط القاهرة القديمة التى أنشئت خارج أسوار القاهرة المعزية . والأسماء لم تتغير كثيرا منذ عصر المقريزى الى يومنا .

قبل قيام القاهرة على النحو الذى شرحناه من قبل؛ والمدينتان معا هما مصر القاهرة. وكانت كلتاهما وحدها مدينة عظيمة .

وقال المرحوم على باشا مبارك فى تحديد مواقع القاهرة القديمة ومعالمها ما يأتى :

«وشكل مدينة القاهرة فى زمن القائد جوهر كان مربعا تقريبا ضلعه الف ومائتا متر، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فدانا، منها نحو سبعين فدانا بنى فيها القصر الكبير، وخمسة وثلاثون فدانا للبستان الكافورى ومثلها للميادين، فيكون الباقى مائتى فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيدا عن الخليج بنحو ثلاثين مترا . وفى سنة ست وثمانين وأربعمائة فى زمن وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله، هدم هذا السور وبنيت الأبواب من حجر على ما هى عليه الآن، وجعل عرض السور الجديد عشرة أذرع، وبلغت مساحة البلد أربعمائة فدان . وفى سنة ست وستين وخمسمائة فى زمن صلاح الدين الأيوبى، شرع فى عمل سور واحد يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة وبناه من الحجارة، ومات قبل أن يكمل وجعل خلفه خندقا . وطول ما بناه تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة ذراع وذراعان بالذراع الهاشمى، وهو قريب من اثنين وعشرين ألف متر. وبقى الأمر على ذلك الى سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة هجرية عند استيلاء الفرنساوية على الديار المصرية، فقاسوا سور المدينة فوجدوه أربعة وعشرين ألف متر، وبه أحد وسبعون بابا، منها ما هو داخل البلد فى السور القديم، ومنها ما هو فى السور المحيط بها . ولم تتغير مساحة البلد عما كانت عليه فى القرن التاسع من الهجرة ... وتغير شكل المدينة ؛ ومع ذلك فان أطول شوارعها باق على أصله، وهو الموصل من بوابة الحسينية إلى بوابة السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر مترا . ومساحة المدينة القديمة بما فى ذلك من ميادين وحارات وشوارع ومبانه ألف وتسعمائة وثمانية وأربعون فدانا»[1] .

---

(١) الخطط التوفيقية ـ ج ١ ص ٨١ وهذه نبذة اجمالية . ولكن على باشا مبارك، يعمد الى تحقيق معالم القاهرة المعزية وأوضاعها وشوارعها ومبانيها القديمة، مع تطبيقها على المعالم والمواقع الجديدة، بتفصيل شاف (ج ١ ص ٧ ـ ٢٢) .

ولبثت القاهرة منذ قيام الدولة الفاطمية فى مصر عاصمة الملك والخلافة[1]، وبلغت أيام الفاطميين من الضخامة والرونق والبهاء مبلغا عظيما، شغفت بتسطيره ووصفه أقلام بارعة، كأقلام ابن زولاق والقضاعى وابن عبد الظاهر ثم المقريزى[2] .

ولا نستطيع فى هذا المقام الموجز، أن نلم بذكر هذه الصروح والمنشآت العظيمة التى أقامتها الدولة الفاطمية، من قصور باذخة ومجالس وأبهاء فخمة زينت بالذهب والجوهر، وخزائن عظيمة لأنواع التحف والذخائر والأسلحة، ودور للكتب كانت تضم مئات الألوف، وبساتين ومناظر وميادين وشوارع؛ كما لا نستطيع أن نلم هنا بذكر ما أنشأته دول السلاطين التى تعاقبت بعد الفاطميين على عرش القاهرة، من القصور الفخمة فى قلعة الجبل وجزيرة الروضة وغيرهما، ومن المساجد العظيمة والآثار والمدارس والمعاهد الجليلة، والمنتزهات والميادين والطرق السلطانية، فى مختلف العصور، فتاريخ هذه المنشآت العظيمة التى ما زالت القاهرة تزدان بكثير منها، إنما هو تاريخ نواح فياضة شاسعة من حضارة الإسلام فى مصر ليست من موضوعنا ولا ندعى أنا نحاولها هنا؛ وإنما نحيل القارئ على خطط المقريزى وبالأخص على تلك الفصول القوية الساحرة التى كتبها عن قيام القاهرة المعزية، وعظمة الدولة الفاطمية وبذخها وبهائها، ونقل فيها كثيرا مما كتبه المعاصرون لها مثل ابن زولاق والمسبحى والقضاعى؛ ففى تلك الصحف الباهرة دون غيرها نستطيع أن نقرأ صورا شافية من عظمة القاهرة فى العصور الوسطى[3] .

ولبثت القاهرة قاعدة الملك والخلافة بعد ذلك أيام الدولة الأيوبية ثم دول المماليك . وكانت مصر القاهرة فى هاتيك العصور الزاهرة، كالعروس بين مدن الإسلام جميعا، تبهر العالم الإسلامى بعظمتها وغناها، وقوة الدول التى تتبوأ ملك

(١) وضعت خطط القاهرة كما رأينا سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) ولكن الخلافة الفاطمية لم تتخذ القاهرة قاعدة لها إلا بعد انشائها بأربعة أعوام . وقدم المعز أول الخلفاء الفاطميين من المغرب الى مصر فى سنة ٣٦٢هـ ودخل القاهرة فى رمضان من تلك السنة بعد أن تمت عمارتها فصارت منزله ومنزل الخلفاء من بعده .

(٢) سنعود الى هؤلاء المؤرخين فيما بعد .

(٣) الخطط — ج ١ ص ٣٤٢ — ٣٨٨ وص ٤٠٤ وما بعدها .

مصر . وكان المجتمع القاهرى بما انتهى اليه من بذخ وترف ونماء، يجذب اليه أكابر الإسلام من كل صوب، فيثير فيهم الإعجاب والإجلال . وقد وصف مصر القاهرة وعظمتها من غير أبنائها فى مختلف العصور كثير من أعلام الإسلام الذين قصدوها من المشرق والمغرب، كعبد اللطيف البغدادى وياقوت الحَمَوى وابن جُبَير الأندلسى[1]، ثم الرحالة الأشهر ابن بَطُوطَة الذى شهد القاهرة فى أوائل القرن الثامن الهجرى ووصفها بتلك الكلمات الشعرية :

«ثم وصلت إلى مدينة مصر أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد . ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة . المتناهية فى كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة . مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر . وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل . وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه . وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف . تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها . شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد . قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم[2]» .

ويفرد ابن سَعيد الأندلسى فى كتابه « المُغْرِب » للقاهرة فصلا عنوانه «كتاب النجوم الزاهرة فى حُلِىّ حضرة القاهرة» ويصفها بقوله : «والقاهرة أكثر عمارة وحشمة من الفسطاط، لأنها أجلّ مدارس، وأضخم خانات، وأعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها، لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها، فأمور السلطنة كلها

---

(١) يراجع كتاب الافادة والاعتبار لعبد اللطيف (الفصل الخامس من المقالة الأولى) . أما ياقوت فقد قال فى معجمه عن القاهرة : «هى أطيب وأجل مدينة رأيتها» ، وكلاهما بغدادى وفد الى القاهرة، الأول فى خاتمة القرن السادس الهجرى والثانى فى فاتحة القرن السابع .

وأما ابن جبير الأندلسى فقد وفد على مصر من الأندلس سنة ٥٨٧ هـ . (١١٩١ م)، ووصف بعض آثارها ومشاهدها فى رحلته المسماة « تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الأسفار » (طبع ليدن سنة ١٩٠٧) ص ٣٥ — ٥٦

(٢) رحلة ابن بطوطة . وقد وفد الرحالة على مصر سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) فى عهد السلطان الناصر ابن قلاوون .

فيها أيسر وأكثر» .ولكن نزعة النقد تغلبه بعد ذلك فيقول : « هذه المدينة اسمها أعظم منها، وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته، لأنها مدينة بناها المُعزّ أعظم خلفاء العُبَيْديّين» . ويذم ضيق شوارعها، وشدّة ازدحامها ثم يقول: «ولم أر فى بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى ذلك، ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى وتدركنى وحشة عظيمة ، حتى أخرج إلى بين القصرين» . بيد أنه يعود فيصف منتزهاتها ورياضها وأزهارها ولياليها المرحة، بما ينم عن الرضا والإعجاب[1] .

ويصف المقريزى القاهرة فى النصف الأول من القرن الثامن فى قوله : « واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارا بلدا واحدا ، يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور، والرباع والقياسر والأسواق، والفنادق والخانات والحمامات، والشوارع والأزقة والدروب والخطط، والحارات والأحكار، والمساجد والجوامع والزوايا والربط ، والمشاهد والمدارس والترب، والحوانيت، والمطابخ والشون ، والبرك والخلجان والجزائر، والرياض والمنتزهات، متصلا جميع ذلك بعضه ببعض، من مسجد تبر الى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش، ومن شاطئ النيل بالجيزة إلى الجبل المقطم . وما زالت هذه الأماكن فى كثرة العمارة وزيادة العدد، تضيق بأهلها لكثرتهم، وتختال عجبا بهم ، لما بالغوا فى تحسينها، وتأنقوا فى جودتها وتنميقها ، الى أن حدث الفناء الكبير فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة فخلا كثير من هذه المواضع وبقى كثير أدركناه[2] » .

ثم يصف قاهرة عصره فى قوله : « وتحوى مصر والقاهرة، من الجوامع والمساجد، والربط والمدارس والزوايا، والدور العظيمة والمساكن الجليلة، والمناظر البهجة والقصور الشامخة، والبساتين النضرة والحمامات الفاخرة، والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع ، والأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس ، والخانات المشحونة

---

(١) كتاب المغرب (المخطوط المشار اليه) .

(٢) المقريزى — ج ١ ص ٣٦٥ .

بالواردين ، والفنادق الكاظة بالسكان، والترب التى تحكى القصــور، ممــا لا يمكن حصره ولا يعرف ماهو قدره [١] » .

على أن مصر القــاهرة لبثت خلال العصور الوسطى عرضة لسلسلة من الخطوب والمحن، فاجتاحتهــا الحرب والثــورة والوباء والجوع ، وقوضت صروح عظمتها وازدهارها مرة بعد أخرى . وكثيرا ما كانت مصائب الطبيعة أشدّ بها فتكا من الحرب والثورة . ففى منتصف القرن الخامس الهجرى فى عصر الخليفة المستنصر بالله، وقع بمصر وباء هائل امتــد عصفه زهاء ثمــانية أعوام (٤٤٦ — ٤٥٤ هـ) (١٠٥٤ — ١٠٦٢ م) واقترن بالشرق والغلاء والقحط، وأعقبته حروب وقلاقل داخلية طويلة الأمد، فأصاب المجتمع القاهرى فى ذلك العهد، صنوف مروعة من الشدائد والمحن ، وذوت عظمة مصر القاهرة، وعفت صروحها، ودرست معاهدها وخربت طرقها وميادينها، وأقفرت من السكان . وتعرف هذه النكبة « بالشدّة العظمى [٢] » .

وفى أواخر أيام الدولة الفاطمية، ثارت الحرب الأهليــة فى مصر بين شَاوِر بن مُجِير السّعدى وزير الخليفة العاضد لدين الله، وبين منافسه ضِرْغام الحاجب، فهُزم شاور بادئ بدء، ولكنه استنصر بنور الدين زَنْكِي صاحب الشــام، فأمدّه . وجرت بين الفريقين حروب طويلة انتهت باحراق عدّة أحياء خارج القاهرة فى غربها مما يلى باب سعادة، ثم [٣] بهزيمة ضرغام ومقتله، واستيلاء شاور على القاهرة (٥٥٩هـ — ١١٦٣م) .

ثم وقع الخلاف بين شاور وبين نور الدين ، وحارب جنــد الشام وأحرقت أحياء أخرى من مصر، واستنصر شاور بالفــرنج أصحاب بيت المقدس، وملكهم يومئذ آموُرى Amaury (أو مُرِى كما يســميه العرب) فلبوا دعوته ، وجاءوا الى مصر، ووقعت بين الفريقين حروب شديدة . واستبد شاور بالأمر أخيرا، ولكن الفرنج بقوا فى القاهرة ونواح أخرى من مصر . ثم قصد آمورى أن يستولى على مصر بجمع

---

(١) المقريزى — ج ١ ص ٣٦١ .
(٢) المقريزى — ج ١ ص ٣٣٥ .
(٣) المقريزى — ج ١ ص ٣٣٨ .

قوات عظيمة وزحف على القاهرة، فأراد شاور أن يرد هجوم العدو بحرق مدينة مصر، فبث النفط والنار في جميع أحيائها ووقع بها حريق هائل في صفر سنة ٥٦٤ هـ (نوفمبر سنة ١١٦٩ م)، واستمر أربعة وخمسين يوما، دُمرت فيها المدينة بأسرها، وأضحت أطلالا دارسة وخرابا قفرا[1]. ولكن ذلك لم يغن شيئا، ولم ينقذ مصر من الفرنج غير تدخل جيوش الشام بقيادة أسد الدين شيركوه، فأصلح الأمور ورد النظام، وعاد الناس فعمروا مصر شيئا فشيئا، حتى استردّت قليلا من حياتها ورونقها.

وفى سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) فى عهد الملك الناصر، وقعت بمصر القاهرة عدّة حرائق، دبرها القبط انتقاما لما أصاب كنائسهم من التخريب والنهب. وكانت حركة غامضة مريبة نفذت على يد جموع العامة، فوثبوا بالكنائس فى العاصمة والأقاليم فهدموها ونهبوا ذخائرها؛ فلم يمض شهر على ذلك حتى وقعت بمصر القاهرة عدّة حرائق هائلة، دمرت منها أحياء برمتها، وشغل الأمراء والناس باطفائها عدة أسابيع، وكلما أخمدت فى ناحية شبت فى ناحية أخرى. وثبت من التحقيق انها حركة جنائية دبرها القبط انتقاما. وفقدت مصر القاهرة فى تلك الحركة كثيرا من أحيائها الفخمة، ودورها ومعاهدها وآثارها الجليلة[2].

وتوالى على مصر القاهرة الى جانب الحروب الأهلية، سلسلة من الأوبئة الفتاكة: فى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١م) وهو الوباء الذى شهده عبد اللطيف البغدادى وترك لنا عن عصفه وهوله صورا مروعة[3]. ثم عاد الوباء فعاث فى مصر سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م). وفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨)، فى عهد الملك الناصر حسن، وقع «الفناء الكبير»، وعم دماره الشرق والغرب، فكان من أروع المحن التى عرفتها الانسانية. وفى سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م)، هبط النيل هبوطا شديدا، واستمر فى الهبوط حتى

---

(١) ابن الأثير (طبعة مصر العادية) ج ١١ ص ١٢٦ — الروضتين فى تاريخ الدولتين (مصر ١٢٨٧ هـ) ج ١ ص ١٥٤ — المقريزى ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) المقريزى — ج ٢ ص ٥١٤ — ٥١٧ .

(٣) راجع كتاب الافادة والاعتبار لعبد اللطيف (الفصل الثانى من المقالة الثانية) وسنعود الى ذلك فى فصل آخر .

شرقت البلاد واشتد بها الجوع والغلاء والفقر، وعانت صنوفا أليمة من الحرمان والفاقة، ودب الخراب الى كثير من أحياء مصر القاهرة، وعفت ميادينها ومتنزهاتها وذوى بهاؤها [(١)] . ولم يمض جيل آخر حتى عاد الوباء فعاث بمصر سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) ثم تجدد فى سنة ٨٥٣ هـ ثم فى سنة ٨٦٤ . وكان الشَّرق والغلاء والقحط ظواهر تقترن دائما بهذه المحن فتزيد فى عصفها وفتكها، وتكون غالبا مبعثها . وكانت مصر القاهرة كلما اجتاحتها احدى هذه المحن، سرت عوامل الفناء الى مجتمعها الزاهر، وتقوضت دعائم صروحها ومنشآتها، وذوت محاسنها ونضرتها . ولكنها كانت تعود دائما، فتخرج من غمار المحن قوية باسمة، وسرعان ما تسترد عظمتها وبهاءها .

ثم كان فتح الترك لمصر فى سنة ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) فنكبت مصر على يدهم بأشنع الخطوب والمحن، وأنزلوا بمصر القاهرة عند دخولها أروع صنوف الدمار، وبالمجتمع القاهرى أروع صنوف السفك والاثم [(٢)] ، وفقدت عاصمة الاسلام فى مصر منذ الفتح العثمانى عظمتها وبهاءها كما فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية ؛ ولبثت أحقابا طويلة ترزح فى غمار من السبات، لا تكاد تفيق مما يصيبها من آلام الحكم الجديد ومن بطشه وعيثه، ولا تكاد تقوى على إنشاء المعاهد والآثار العظيمة، بعد أن استنفد الترك مواردها، وقوضوا دعائم ثروتها، وبث حكمهم فى المجتمع المصرى عوامل الانحلال والدمار .

وكان الفتح الفرنسى فى نهاية القرن الثامن عشر (يونيه ١٧٩٨ — المحرم سنة ١٢١٣ هـ) فاحتل الفرنسيون مصر نحو ثلاثة أعوام (حتى أكتوبر سنة ١٨٠١) وقع خلالها كثير من الحروب والفتن، وأصيبت مصر القاهرة فى كثير من أحيائها بأنواع الخراب والتشويه، وشغلت هذه الخطوب والقلاقل التى امتدت بعد جلاء الفرنسيين أعواما طويلة، مصر عن القيام بأعمال الإنشاء والتجديد . فلما استقرت الأحوال وسادت السكينة، واختتم النزاع على حكم مصر بانتزاع محمد على لولايتها ؛

(١) يشير المقريزى الى الحوادث والمحن التى وقعت بمصر سنة ٨٠٦ هـ فى مواضع كثيرة من الخطط — راجع مثلا ج ١ ص ٥ وج ٢ ص ٩١ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١١١ وغيرها .

(٢) يفرد ابن إياس فى تاريخ مصر فصولا عدة لفظائع الترك وما ارتكبوه من صنوف السفك والاثم والنهب (الجزء الثالث فى حوادث سنة ٩٢٢ هـ — ص ١٤٠ وما بعدها) .

عادت يد الإنشاء والتعمير تعمل من جديد فى العاصمة القديمة، وبرزت القاهرة من غمار الخطوب والمحن التى توالت عليها أربعة قرون، لتستقبل حياة جديدة من المجد والعظمة والبهاء . وفى نفس الوقت التى احتفظت فيه القاهرة بأحيائها ومنشآتها التاريخيــة وآثارها الفنية العظيمة، قامت فى جنباتها وأطرافها أحياء فخمة محدثة ، وضواح بديعــة تكاد تكوّن بذاتها مدنا كبيرة؛ وعادت قاهرة العصور الوسطى ، تعيــد فى العصر الحديث سيرتها فى زعامة مدن الاســلام ؛ وأضحت فى عصرنا تضم من الأحياء الزاخرة، والشوارع الفسيحة، والميادين العظيمة، والأسواق العامرة، والمعاهد والمنشآت الجليلة ، والمدارس والمساجد والكنائس والمكاتب والمتاحف، والقصور والمنتزهات والحــدائق، والفنادق والمسارح والمقاهى والملاهى ، ووسائل التجميل والنقل المحدثة ، ما تضارع به معظم العواصم الأوربية، وما تمتــاز به على كثير منها؛ وأضحى المجتمع القاهرى فى بعض نواحيه يضارع بتربيته وبذخه وأناقته ورفاهيته، أرقى المجتمعات المتمدينة .

ولســنا نحاول أن نؤرخ للقاهرة وخططها المحــدثة، فتلك مهمة يقصر جهدنا الضعيف عن الاضطلاع بها، ولايحيط بها إلا مثابرة مقريزى وبراعته، ولايستطيع تصويرها غير بيان مقريزى وقلمه . على أنه إذا كانت قاهرة العصور الوسطى ، قد خلبت ألباب جمهرة من أكابر الكتاب والشعراء، فأفاضوا فى وصف عظمتهــا وبهائها بروائع النثر والنظم ممــا لا يتسع له المقام، فانها قد نفثت هذا السحر أيضا الى جمهرة من أكابر المؤرخين، شغفوا بها على كر العصور حبا ، وهاموا باستقصاء خططها ومعاهدها وآثارها، وتتبعوا أطوار عظمتها وازدهارها، كما تتبعوا أيام محنها، بصادق التدوين والوصف. فتاريخ القاهرة : خططها ومعاهدها وآثارها ومجتمعاتها، يملأ فراغا كبيرا فى تاريخ مصر الاسلامية. وسنأتى على طرف من مجهود أولئك الرواة والمؤرخين الأوفياء، الذين شغفوا حبا بربوع الوطن فأشادوا بمحاسنه ومآثره وأيام عزه، ورثوا محنه ومصائبه، وخلفوا لنا من مصر القاهرة فى مختلف عصورها وأطوارها أصدق الصور وأبدعها .

الفصل الثانى

مؤرخو الخطط

١

من ابن عبد الحكم الى المقريزى

قدمنا أن عبد الرحمن بن عَبْدِ الحَكَم هو أقدم مؤرخ مصرى[1] لمصر الاسلامية . وهو أيضا أقدم مؤرخ لِخطط مصر. وقد كانت روايته عن الخطط مع إيجازها ، أول مادة لهذا التراث الذى ازدهر على يد المتأخرين من كتاب الخطط ، وشغل مكانة هامة فى تاريخ مصر الاسلامية ، وارتبط أشد الارتباط بنواحيه الاجتماعية والعمرانية . وكان قيام الفسطاط ، كما رأينا ، هو الحجر الأول فى صرح المدينة الاسلامية العظيمة ، التى استحالت الى مصر القاهرة على النحو الذى شرحناه . ولما كانت الفسطاط قد بدأت معسكرا للجند الفاتح ، ومنزلا للقبائل التى اشتركت فى الفتح ، فان رواية ابن عبد الحكم عن الخطط ، تدور بالأخص حول المواقع التى اتخذها الزعماء والقبائل لهم مناطق ومنازل ؛ فيبين مواقع منازل الزعماء والقبائل من المسجد الجامع (جامع عمرو) ، ودار الإمارة[2] ؛ و يصف الدور والقصور المتواضعة الأولى ، التى أقامها الزعماء ثم توارثوها ، كدار عمرو بن العاص وابنه عبد الله[3] ، ودور حكام مصر الأوائل ،

---

(١) كتب الواقدى تاريخ فتوح مصر ، قبل أن يكتبه ابن عبد الحكم . ولكن الواقدى بغدادى ، وهو فى روايته أميل الى القصص منه الى التحقيق التاريخى .

(٢) فتوح مصر — ص ٩٨

(٣) فتوح مصر — ص ٩٦ و ١٧

وكذلك ميادين الفسطاط ومعاهدها ومساجدها وأسواقها الأولى[١]؛ ويتتبع بالأخص بناء المسجد الجامع[٢] . كذلك يصف خطط الجيزة، التى قامت مع الفسطاط فى وقت واحد، لتكون منزلا لمن ضاقت بهم الفسطاط من القبائل ؛ وحصنا لوقاية العاصمة الجديدة من الطوارئ؛ ثم يصف القطائع، وكيف كانت توزع الدور والأماكن على الزعماء والسادة فى مختلف الحكومات ، وما توالى على هذه الدور والأماكن من إصلاح وتغيير[٣] . ويتناول ابن عبد الحكم ذلك كله، فى نوع من الإفاضة، خصوصا إذا ذكرنا ما كانت عليه خطط الفسطاط الأولى من البساطة . وتحمل روايته فوق ذلك طابع التحقيق والدقة؛ ولا غرو فهو كما قدمنا مصرى، نشأ وترعرع بين ربوع الفسطاط الأولى، وطوت فيها أسرته أجيالا قبله، فورث عنها كثيرا من مواد الرواية الوثيقة التى نقلها الينا .

وقد كانت رواية ابن عبد الحكم على كر العصور مستقى خصبا لمؤرخى الخطط . وكان أول من انتفع بها، أبو عُمَر محمد بن يوسف الكِنْدِى، وهو أيضا مؤرخ مصرى ينتسب الى تُجِيب أحد بطون قبيلة « كِنْدَة» الشهيرة . ولد بالفسطاط فى سنة ٢٨٣هـ (٨٩٧م)، أعنى بعد وفاة ابن عبد الحكم بنحو جيل؛ وتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١م)؛ وحفظ الحديث وعنى بتحقيق الرواية، ودرس على ابن قُدَيد[٤]، أحد مشاهير المحدثين والرواة فى عصره؛ وخص بدرسه وتحقيقه نواحى هامة فى تاريخ مصر . وكان حجة ثقة فى معرفة أحوال مصر وأهلها وأعمالها وثغورها[٥] . وإذا علمنا أن ابن قديد هذا، هو أول من نقل الينا رواية ابن عبد الحكم عن «فتوح مصر وأخبارها» ، ونقلها عنه مباشرة[٦]،

---

(١) فتوح مصر — ص ١٠٠ وما بعدها ، وكذا ١٣٦ وما بعدها .

(٢) فتوح مصر — ص ١٣١ و ١٣٢

(٣) راجع رواية ابن عبد الحكم عن الخطط وتطوراتها — فتوح مصر — ص ٩١ — ١٣٩

(٤) هو أبو القاسم على بن الحسن بن خلف بن قديد الأزدى توفى سنة ٣١٢ هـ .

(٥) المقريزى عن الفرغانى فى ترجمته للكندى ، فى «المقفى» . ونقلها المستشرق « كينج» (Koenig) فى مقدمته للقسم الذى نشره من كتاب «تسمية ولاة مصر» للكندى (ص ١ و ٢) .

(٦) راجع سياق الإسناد فى كتاب «فتوح مصر» (ص ١) .

قدرنا الى أى حد استطاع الكندى ، أن ينتفع بهذه الرواية التى نقلها عن أستاذه .
وقد وصلتنا بعض آثار الكندى ، وأهمها وأشهرها كتاب «تَسْمِيَة وُلاةِ مِصْرَ»
أو «أمراء مصر» وكتاب «تَسْمِيَة قُضاةِ مصر» . والأول هو تاريخ الولاة الذين تعاقبوا
على حكم مصر منذ الفتح الاسلامى، حتى وفاة محمد الإخشيد (سنة ٣٣٤ هـ) .
والثانى هو تاريخ القضاة الذين ولوا قضاء مصر منذ الفتح أيضا الى منتصف
القرن الثالث من الهجرة ؛ وهو موضوع تناوله ابن عبد الحكم من قبل ، ووقف
الكندى فى روايته حيثما وقف ابن عبد الحكم ، أعنى عند ولاية القاضى بكّار
ابن قُتَيْبة لقضاء مصر فى سنة ٢٤٦ هـ . وهذان الأثران هما الوحيدان اللذان وصلا
الينا كاملين من تراث الكندى[1] . وفى الكتابين نبذ يسيرة عن بعض خطط الفسطاط
ومنشآتها الأولى ترد فى سياق الكلام[2] . وللكندى عدّة كتب أو رسائل أخرى ،
تناول فيها كثيرا من خطط الفسطاط ، منها كتاب «أخبار مَسْجِد أَهْلِ الرَّايَة الأعظم»
وكتاب «الجُنْد العَرَبى» وكتاب «الخَنْدَق والتَّرَاوِيح» وكتاب «المَوالى» . وفى هذه
الكتب أو الرسائل كثير مما يتعلق بتاريخ خطط الفسطاط ومعاهدها وقصورها
وأسواقها ، هذا عدا ما ورد فيها متعلقا بالفتح الاسلامى وأخبار الولاة والجند
والقطائع . وكتاب «مسجد أهل الراية» هو تاريخ المسجد الجامع ، أو جامع عمرو ،
وقد سمى بذلك الاسم لأنه أنشىء فى وسط خطط أهل الراية ، وهم بطون من بعض
القبائل التى اشتركت فى الفتح ، ولم يكف عدد جندها لتكوين جماعات خاصة منها ،
فاجتمعت معا وسميت أهل الراية ، واختطت حول المسجد الجامع[3] . ولم تصلنا رسائل
الكندى هذه ، ولكن المقريزى أعظم كتاب الخطط ، ينتفع بها انتفاعا كبيرا ،

---

(١) وقد وصلا الينا فى مخطوط وحيد ظفر به المتحف البريطانى ونشر المستشرق كينج قسما منه من «تسمية الولاة» . ثم نشرت لجنة ذكرى جب الأثرين معا فى مجلد ضخم تولى إصداره وتحقيقه المستشرق رفن جست (R.Guest) .

(٢) راجع كتاب الولاة ، وكتاب القضاة (طبعة المستشرق جست) — ص ٣٦ و ٣٨ و ٤٥ و ٤٩ و ١١٥ و ١٣٤ و ٢١٥ و ٢١٩ و ٢٤٣ و ٣٠٥ و ٤٠٦ — ٤٠٧ ، ففيها جميعا إشارات للخطط والأماكن .

(٣) راجع أسماء هذه القبائل وظروف التسمية فى المقريزى — الخطط — ج ١ ص ٢٩٧

ويذكرها فى مواضع عدة من خططه ، وينقل عنها شذورا كثيرة هى كل ما وصل الينا منها[(١)] . على أن هنالك ما يدل على أن الكندى قد ألف كتابا خاصا فى «الخطط» ، أعنى خطط مصر الأولى من عهد إنشاء الفسطاط ، وأحيائها ومعاهدها وآثارها . وهو مؤلف ينوه به المقريزى فى مقدمة خططه ، ويذكره ضمن مصادره فيقول : «أول من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها فى ديوان جمعه ، أبو عمر محمد ابن يوسف الكندى»[(٢)] ، ثم يعود فيذكره فى ترجمة الكندى فى المُقفّى[(٣)] . وكذلك تشير اليه ترجمة للكندى وردت فى مخطوط كتاب الولاة والقضاة[(٤)] . بيد أن المقريزى لا يقتبس فى سياق كتابه شيئا من « خطط » الكندى وان كان يقتبس كما قدمنا كثيرا من كتبه الأخرى . وقلما يشير اليها الكتاب المتأخرون ، سوى القَلْقَشَنْدى فانه يذكرها وينقل عنها نبذا يسيرة[(٥)] . والمقريزى يخطئ فى القول بان الكندى هو أول كُتّاب الخطط ، فصاحب الفضل الأول فى تدوين الخطط هو ابن عبد الحكم كما رأينا ؛ وعنه نقل الكندى . وربما لم تكن خطط الكندى أكثر من مؤلف متواضع الحجم ، تناول فيه مادة ابن عبد الحكم ، فى قليل من البسط والإفاضة ، كما فعل فى كتاب « تسمية قضاة مصر» .

وكتب بعد الكندى مؤرخان مصريان كبيران ، هما الفقيه أبو محمد الحسن ابن ابراهيم بن زُولاق اللّيْثى المصرى ، والأمير المُخْتار عِزّ المُلْكِ المُسَبِّحى . وقد ولد

(١) راجع خطط المقريزى — ج ١ ص ٨٨ و(٢) ص ٢٦١ و ٤٤٦ و ٤٥٥ حيث يقتبس من كتاب الأمراء . وج ٢ ص ١٣٧ و ٢٥٠ حيث يقتبس من كتاب الموالى . و(٢) ص ٢٤٦ حيث يقتبس من كتاب مسجد أهل الراية و(٢) ص ١٤٣ حيث يقتبس من كتاب الجند العربى . و(٢) ص ٦٣ حيث يقتبس من كتاب الخندق .

راجع أيضا صبح الأعشى للقلقشندى (دار الكتب) — ج ٣ ص ٣٠٢ و ٣١٠ و٣٢٧ و٣٣٨ و ٣٣٩ حيث يقتبس من الكندى .

(٢) المقريزى — ج ١ ص ٤ وهذا ما ذكره أيضا صاحب كشف الظنون (طبع أوربا) ج ٣ ص ١٦٠

(٣) مقدمة المستشرق كينج لكتاب تسمية الولاة — ص ١ و ٢

(٤) مقدمة المستشرق كينج لكتاب تسمية الولاة — ص ١٩

(٥) راجع صبح الأعشى (دار الكتب) ج ٣ ص ٣٣٨ حيث يشير صراحة الى خطط الكندى وص ٣٢٧ و ٣٣٩ حيث يقتبس منها .

أولها بفسطاط مصر سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م)، فهو بذلك معاصر للكندى . غير أنه عاش بعده جيلا آخر، وأدرك قيام الدولة الفاطمية بمصر، وإنشاء القاهرة المعزية، وتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) . ولم يذكر المقريزى، ابن زولاق فيمن ذكر من كتّاب الخطط فى مقدمة كتابه ، وليس فى سياق حديثه ما يشير صراحة الى أن ابن زولاق قد ترك كتابا فى الخطط؛ غير أن ابن خَلِّكان يقول فى ترجمته لابن زولاق : «وله كتاب فى خطط مصر استقصى فيه»[1] . فاذا صحت هذه الرواية — ونرجح صحتها — فان ابن زولاق يكون قد تناول موضوع الخطط بنوع من الإفاضة والتوسع؛ ولعله استقصى فيه الى جانب خطط الفسطاط ، خطط «العَسْكَر» ثم خطط القطائع، وهى مدينة بنى طولون الذين عاش ابن زولاق قريبا من عصرهم، وأدرك آثار قصورهم ومعاهدهم الزاهرة؛ بل لعله تناول أيضا إنشاء القاهرة المعزية التى شهد قيامها قبل وفاته بنحو ثلاثين عاما ، فكان بذلك أول مؤرخ لخططها . بيد أننا لم نتلق عن أثر ابن زولاق فى «الخطط» أى شرح أو اقتباس شاف . وكل ماهنالك أن بعض الكتّاب المتأخرين مثل ابن خَلِّكان ، والنُّوَيْرِى، وابن حَجَر، والسُّيوطى[2] يشيرون الى مؤلف آخر لابن زولاق يسمى أحيانا «فضائل مصر» وأحيانا «تاريخ مصر»؛ وأن ياقوتا الحَمَوِى ينقل فى معجمه الجغرافى عن ابن زولاق فى كلامه عن بعض المدن المصرية ولكن دون الاشارة الى اسم الكتاب الذى ينقل عنه[3] . ولابن زولاق آثار أخرى تلقى كثيرا من الضياء على تاريخ مصر وأحوالها فى القرن الرابع الهجرى، منها «سيرة المُعِزّ لدين الله»، «وسيرة الإخشيد» و«تتمة أمراء مصر»، وهو ذيل لكتاب الكندى عن ولاة مصر[4] . وسيرة المعز فيما يظهر أهم هذه

(١) وفيات الأعيان (طبع بولاق) ج ١ ص ١٦٧ ؛ وقد توفى صاحب الوفيات سنة ٦٨١ هـ .

(٢) راجع ابن خلكان — ج ١ ص ١٦٧ — ونهاية الأرب للنويرى (دار الكتب) — ج ١ ص ٢٥٥ و ٣٣٨ و ٣٤١ و ٣٤٤ — وديباجة رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٥ تاريخ) وحسن المحاضرة للسيوطى — الديباجة وج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) معجم البلدان (طبع مصر) — ج ١ ص ١٥٦ و ٢٤٣ و ٢٤٨ و ٢٥١ وغيرها .

(٤) وقد وجد هذا الذيل فى مخطوط كتاب الولاة والقضاة المحفوظ بالمتحف البريطانى ونشر فى طبعة لجنة ذكرى جب .

الآثار وأنفسها جميعا . ولكن ما انتهى الينا منه لا يجاوز عدة شذور قوية شائقة ينقلها المقريزى فى خططه عن منشآت الدولة الفاطمية ومعاهدها وقصورها ورسومها وبذخها[1]، وعدة شذور أخرى ينقلها المقريزى عن المعز فى كتاب «اتعاظ الحُنَفاء بأخبار الأئمة الخُلَفاء» . وهى شذور تنم رغم قلتها عن أهمية هذا الأثر وروائق أسلوبه . أما سيرة الإخشيد فقد وصل الينا معظمها على يد ابن سَعيد الأندلسى فى كتاب «المُغْرِب» وفيها نبذ تتعلق بأحوال الفسطاط ومعاهدها فى هذا العصر[2] .

وأما المُسَبِّحى — وهو الأمير المختار عزُّ المُلْك محمد بن عبد الله بن أحمد الحَرّانى — فقد ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧م) وتوفى سنة ٤٢٠ (١٠٢٩ م) وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية ؛ تولى الوزارة للحا كم بأمر الله ونال حظوة لديه ؛ وشغل عدة مناصب هامة أخرى ؛ وكان آية فى العرفان والدرس ؛ أخذ بقسط وافر فى مختلف علوم عصره ، وشغف بتدوين التاريخ ، وألف فيه عدة كتب ، منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » ، وهو تاريخ مصر ومن حَلّها من الولاة والامراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، وذكر نيلها وخواصها ونظمها ومجتمعاتها[3] ، حتى فاتحة القرن الخامس الهجرى . وقد كان مجهود المسبِّحى التاريخى عظيما بلا ريب ؛ فقد ذكر ابن خلكان عن رؤية ومعاينة ، أن تاريخه «بلغ ثلاثة عشر ألف ورقة[4] » . ولم يصلنا هذا الأثر الضخم[5] الذى يلقى بلا ريب أعظم الضياء على

---

(١) راجع هذه الشذور فى الخطط — ج ١ ص ٣٨٥ و ٣٨٩ و ٤٣٠ و ٤٥١ و ٤٧٠ و ٤٩٣ — راجع أيضا شذورا أخرى فى ج ٢ ص ٢٥ و ١٣٧ و ١٨١

(٢) نشر المستشرق تالكسفت (Tallqvist) منذ سنة ١٨٩٩ (ليدن) قسما كبيرا من كتاب «المغرب فى أخبار المغرب » وهو المجلد الرابع منه ، وفيه اقتباس كبير من سيرة الإخشيد لابن زولاق فى الكتاب المعنون باسم «العيون الدعج فى سيرة بنى طغج» .

(٣) الوفيات لابن خلكان — ج ١ ص ٦٥٣

(٤) الوفيات — ج ١ ص ٦٥٣ — ويقول ابن خلكان أيضا : إن مصنفات المسبحى فى التاريخ وغيره بلغت ثلاثين ، ويذكر منها عدة .

(٥) يشير معظم الكتاب والمؤرخين المتأخرين الى وجود هذا الأثر حتى القرن العاشر الهجرى . فالمقريزى يقتبس منه شذورا عدة . وقد أشار السيوطى اليه (حسن المحاضرة ٢ ص ٢٦٥) وكذلك السخاوى (الاعلان =

تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول، ولا سيما على سيرة الحاكم بأمر الله وشخصيته الغريبة الفذة؛ ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين عن أحوال الدولة الفاطمية وقصورها وخزائنها وصروحها، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته، وتدل أيضا على أن مؤلفه قد تناول خطط مصر وآثارها ومعاهدها فى كثير من الافاضة[(١)].

ثم كتب القُضَاعى عن خطط مصر واستوعبها فى مؤلف خاص . وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن سَلامة بن جَعْفَر القُضَاعى الفقيه الشافعى . ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع وتوفى بها سنة ٤٥٤هـ[(٢)] (١٠٦٢ م). كان إماما فى الفقه والحديث، وتولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٨٧هـ). وأوفده المستنصر سفيرا الى تيودورا إمبراطورة قسطنطينية سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م)[(٣)]

= بالتوبيخ فيمن ذم أهل التاريخ — نسخة دار الكتب المخطوطة ص ١٥٧) . ولم يذكره صاحب كشف الظنون . ولكن ذكر المستشرق كازيرى (Casiri) فى معجمه عن مخطوطات الإسكوريال الذى أصدره باللاتينية فى سنة ١٧٧٠ أنه يوجد فى الاسكوريال «أربعة مجلدات عن تاريخ مصر وأرضها وعجائبها مرتب حسب السنين لغاية سنة ٤١٤هـ . تصنيف محمد بن عبد الله بن عبد العزيز المسبحى — كذا — (Almisihi)» (معجم كازيرى نمرة ٥٣١ فقرة ٢) . وليس من شك فى أن المقصود هو تاريخ مصر للسبحى، وذلك رغم تحريف الاسم . على أننا عند مراجعة فهرس الإسكوريال الحديث الذى وضعه المستشرق ديرنبورج وتولى إصداره المستشرق ليفى بروفنسال (سنة ١٩٢٨) لم نجد فى كتب التاريخ ذكرا لكتاب المسبحى . والظاهر أن ما كان موجودا منه فى الإسكوريال قد ضاع شأن كثير من الآثار الذى أثبت معجم كازيرى وجودها.

(١) راجع هذه الشذور فى الخطط — ج ١ ص ١٧١ و ١٨١ و ٢٠٧ و ٢٦٥ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٤٠٨ و ٤٥١ و ٤٥٧ و ٤٥٨ و ٤٦٥ و ٤٦٧ و ٤٩٤ وج (٢) ص ٤ و ٥ و ١٤ و ٢٠ و ٢٨ و ١٤٣ و ١٤٥ و ١٩٥ و ٢٨٠ و ٢٨٢
راجع أيضا صبح الأعشى — ج ١ ص ٣٦٧ .

(٢) هذه هى الرواية الراجحة، وهى رواية ابن ميسر معاصر القضاعى (أخبار مصر فى حوادث سنة ٤٥٤)، ورواية ابن خلكان (الوفيات ج ١ ص ٥٨٥) وكذا رواية السيوطى (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨) . ولكن المقريزى يذكر فى مقدمة الخطط أن القضاعى توفى سنة ٤٥٧ هـ (ج ١ ص ٥) مع أنه يذكر فى ترجمته فى المقفى أنه توفى سنة ٤٥٤ متفقا مع الرواية العامة (راجع هذه الترجمة فى مقدمة كينج «لتسمية الولاة» ص ٢٢) .

(٣) راجع تفاصيل هذه السفارة فى أخبار مصر لابن ميسر (فى حوادث سنة ٤٤٧) — وكذا فى خطط المقريزى — ج ١ ص ٣٣٥، وسنعود إليها فى فصل قادم .

ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر. واشتغل بالتاريخ أيضا فألف كتابا فى خطط مصر نقل الينا المقريزى اسمه كاملا وهو «المختار فى ذكر الخطط والآثار»[(١)]؛ ولم يصلنا منه غير شذور نقلها بعض الكتاب والمؤرخين المتأخرين، ولاسيما القلقشندى[(٢)] والمقريزى[(٣)]؛ فان كليهما يقتبس منه فى عدة مواطن. وقد كان لمؤلف القضاعى فى الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية وصلتنا عن خطط مصر القاهرة قبل أن تغير معالمها فترة الشدة والوباء والخراب التى نزلت بمصر فى خلافة المستنصر بين سنتى ٤٤٦ و ٤٦٤ هـ؛ وقبل أن تبعث من بعد ذلك خلقا جديدا فى معظم خططها ومعالمها وصروحها. وهى حقيقة ينوه بها المقريزى فى مقدمة الخطط إذ يذكر كتاب القضاعى ضمن مصادره ويقول: «ومات (أى القضاعى) فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنى الشدة فدثر أكثر ما ذكر ولم يبق إلا يلمع وموضع بلقع»[(٤)]. والظاهر مما نقل الينا من كتاب القضاعى أنه تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح فى نوع من الافاضة، وانتفع فى ذلك بجهود ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق، وأضاف اليه ماانتهت اليه أحوال القاهرة المعزية فى عصره. كذلك انتهى الينا من جهود القضاعى التاريخى أثر آخر هو «عيون المعارف» وهو على ما يصفه مؤلفه فى مقدمته، «موجز فى ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء الى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة»[(٥)]. ولعله مختصر لمؤلف أكبر لم يصل الينا.

وقد انتفع بجهود القضاعى جمهرة من المؤرخين المتأخرين حتى أوائل القرن العاشر الهجرى. ويذكر السيوطى فيما كتبه عن فتح مصر أنه نقل رواية الفتح عن

---

(١) الخطط — ج ١ ص ٥

(٢) راجع صبح الأعشى — ج ٣ ص ٢٩٤ و ٢٩٩ و ٣٠٢ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣٢١ — ٣٢٤ و ٣٢٦ و ٣٣٨ و ٣٤٠ و ٣٧٩ و ٣٨٠ و ٣٩٣ و ٤٠٣

(٣) الخطط — ج ١ ص ١٢٢ و ١٢٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢٤٧ و ٢٨٧ و ٢٩٨ و ٣٣٠ و ٣٣١ و ٣٤٣ و ٣٤٦ و (٢) ص ١٣٧ و ١٤٢ و ١٤٦ و ١٦١ و ١٧٨ و ٢٤٨ و ٢٥١ و ٢٥٣ و ٢٥٥ و ٢٣٦ و ٣٧٠ و ٤٤٥ و ٤٥٥

(٤) الخطط — ج ١ ص ٥

(٥) توجد فى دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من هذا الكتاب ضمن مجموعة محفوظة برقم ١٧٧٩ تاريخ.

« كتاب الخطط للقضاعى » مكتوبا بخطه[١]، وعلى هذا يكون مؤلف القضاعى قد فقد فى عصر متأخر بعد أن انتفع به انتفاعا كبيرا .

ونشأت مصر والقاهرة نشأة جديدة منذ أواخر القرن الخامس على يد أمير الجيوش بَدْر الجمالى وولده الأفضل شاهنشاه . ولا نعرف شيئا عن تاريخ الخطط فى هذا العصر إلا ما ذكر المقريزى فى مقدّمته ، حيث يقول : إن الذى تناول موضوع الخطط بعد القضاعى ، هو تلميذه أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، فى كتاب نبه فيه على مواضع كانت أحباسا (أوقافا) واغتصبت[٢] . ولم نعثر على أى اقتباس للمقريزى من هذا المؤلف ؛ ولكن الظاهر أنه انتفع به فيما كتبه عن الأحباس[٣] .

وهنا تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الخطط المصرية . غير أنا لا نعرف كثيرا عما كتبه مؤرخو الخطط فى هذا العصر . ومرجعنا هنا هو المقريزى أيضا وما اقتبسه فى خططه ؛ فهو يقول : إن الذى كتب بعد ذلك عن الخطط هو الشريف النسّابة محمد بن أسعد الجوّانى (٥٢٥ — ٥٨٨ هـ) (١١٣١ — ٩٢ م) فوضع كتابا اسمه : «النُّقَط بِعَجْم ما أُشْكِل من الخطط » ، وهو مؤلف يقتبس منه المقريزى فى عدّة مواضع ، ويقول إنه : «نبه على معالم قد جهلت وآثار قد دثرت»[٤] . غير أنه يصعب علينا أن نستدل بهذا الاقتباس على حقيقية ما خصه الجوّانى بالبحث والدرس[٥] ، نظرا لتباين فقراته وتشعب مناحيها .

وفى نفس الوقت الذى كتب فيه الجوانى مؤلفه عن الخطط ، أعنى أواخر القرن السادس الهجرى ، وضع كاتب نصرانى أرمنى من نزلاء مصر هو أبو صالح

(١) حسن المحاضرة — ج ١ ص ٧٠

(٢) الخطط — ج ١ ص ٥

(٣) الخطط — ج ٢ ص ٢٩٤ وما بعدها .

(٤) الخطط — ج ١ ص ٥

(٥) راجع هذه الشذور فى الخطط — ج ١ ص ٢٨٨ و ٢٩٦ و ٣٣٠ و ٣٣٢ و (٢) ص ٨١ و ١٦٤ و ٢٠٢ و ٢١٨ و ٤٠٩ و ٤٤٠ و ٤٤٤ و ٤٤٨ و ٤٤٩ و ٤٥٠ و ٤٥٢ و ٤٥٨ — ومن هذه أيضا شذور من كتب أخرى للجوّانى .

الأرمنى مؤلفا ألم فيه بتاريخ الكنائس والأديار المصرية وأحياء الأقباط والنصارى، وتاريخ القديسين والبطاركة، وبعض أعمال الدولة وإقطاعها وخراجها. وقد انتهى الينا جزء من هذا الأثر الذى يعالج ناحية هامة من خطط مصر النصرانيـة فى عصور الاســلام[1].

ويجب أن نلاحظ أهميـة ما كتب فى ذلك العصر عن خطط مصر القاهرة، فقد قدمنا أن المدينـة الكبرى أصيبت بالخراب والدمار فى كثير من أحيائها أيام حروب شاور وضرغام فى أواخر الدولة الفاطمية؛ ثم أحرقت بعد ذلك اتقاء لزحف الفرنج (٥٦٤ هـ — ١١٦٩ م). وما كادت تفيـق من غمار هـذه الخطوب حتى عاد الوباء فعاث فيها فى خاتمة القرن السادس وفاتحـة القرن السابع؛ وهكذا درست معالم المدينة الزاهرة مرة أخرى.

ثم عادت مصر القاهرة تستقبل عصرا جديد من العظمة والبهاء. ففى عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦هـ) (١٢٦٠ — ٧٧م)، جددت معالم القاهرة وزيدت معاهدها ومساجدها وبساتينها وأسواقها زيادة عظيمة. وتناول خطط القاهرة وآثارها فى ذلك العصر، كاتب ومؤرخ بارع، هو القـاضى محيى الدين عبد الله بن عبْـدِ الظّاهِر. ولد بالقاهرة سـنة ٦٢٠ هـ وتوفى بها سنة ٦٩٢ (١٢٢٣ — ١٢٩٢ م)، وولى القضاء واتصل بالبلاط اتصالا قويا، وتولى ديوان الرسائل للملك الظاهر، واشتغل الى جانب الشعر والأدب بكتابة التاريخ، فكتب عن خطط القاهرة وآثارها ومعاهدها ومجتمعاتها، كتابه الأشهر «الروضة البهية الزاهرة فى خِطط المُعزية القاهرة». ومن الأسف أننا لم نتلق هذا الأثر النفيس وإن كان قد ذكره صاحب كشف الظنون[2]. وانما يدل المقريزى على أهميته ونفاسته بمـا يقتبسه منه فى مواضع كثيرة، من النبذ

---

(١) طبع هـذا الأثر فى أكسفورد سنة ١٨٩٥ وقرن نصه العربى بترجمة انجليزية. وقد ثار أخيرا بعض الجدل حول نسبته الى أبى صالح الأرمنى، وقيل إنه من تأليف كاتب قبطى آخر، وإنه وجد مخطوط آخر متمم له. ولكن الأمر ما زال قيد التحقيق.

(٢) ج ٢ ص ٤٩٩

الشائقة. ويبدو من مراجعة هذه النبذ، أن مباحث ابن عبد الظاهر تدور بالأخص حول خطط القاهرة المعزية الأولى، وتطوراتها الى عصره. فلا يكاد المقريزى يتناول شيئا مما يتعلق بالقاهرة المعزية، أسوارها وشوارعها ودروبها وأحكارها ومساجدها وقصورها، الا اقتبس من ابن عبد الظاهر، وكذا شأنه فيما يكتب عن القصور الفاطمية وعجائبها وبذخها وبهائها ودواوينها، وعن المجتمع القاهرى فى عهد الفاطميين، ففى ذلك كله تقرأ شذورا شائقة لابن عبد الظاهر (١). وأغلب هذه الشذور مقتبس من كتاب «الروضة البهية الزاهرة»، ولكن منها ما هو منسوب الى «جامع السيرة الظاهرية»، والمرجح أنه هو ابن عبد الظاهر، لأنه عنى بجمع تاريخ الملك الظاهر (٢)، وله فى سيرته منظومة شهيرة. وينوه المقريزى فى مقدمته بجهود ابن عبد الظاهر، ويقول «إنه فتح بابا كانت الحاجة تدعو اليه» (٣). وقد ألفى المقريزى فى هذا المجهود مصدرا من أجل مصادره وأنفسها، كما اتخذه بعض كتاب الموسوعات مثل القلقشندى مستقى خصبا للاقتباس فيما يتعلق بالخطط والآثار (٤).

ووصل مجهودَ ابن عبد الظاهر وأتمه الى ما قبل عصر المقريزى بقليل، القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المُتَوَّج (٦٣٩ — ٧٣٠ هـ) (١٢٤١ — ١٣٣٠ م) فى كتاب «إيقاظ المتغفل واتّعاظ المتأمل فى الخطط». ولسنا أيضا نعرف عن هذا المؤلف غير ما ذكره المقريزى عنه فى مقدمته، إذ يقول: إنه «يبين جملا من أحوال مصر وخططها الى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة، قد دثرت بعده معظم

---

(١) راجع هذه الشذور فى الخطط — ج ١ ص ٣٨١ و ٣٨٤ و ٣٨٨ و ٤٠٤ و ٤٠٨ و ٤٣٨ و ٤٥٨ و ٤٦٠ و ٤٦٢ و ٤٦٨ و ٤٧٠ و ٤٨٠ و ٤٨١ و ٤٨٧ و (٢) ص ٤ و ١٢ و ١٦ و ٢٠ و ٢٥ و ٨٧ و ٩٢ و ١٠٢ و ١١٤ و ١٤٤ و ٢٣١ و ٣٦٨ و ٤٦٣

(٢) يشير السيوطى فى ترجمة ابن عبد الظاهر الى هذا التاريخ، ويسميه «سيرة الملك الظاهر» — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٣، وهو ما يؤيد أنه هو نفس المؤلف الذى يقتبس منه المقريزى ويسميه «السيرة الظاهرية» ويسميه حاجى خليفة «سيرة الملك الظاهر» (كشف الظنون ج ٣ ص ٦٤١).

(٣) ج ١ ص ٥

(٤) راجع صبح الأعشى — ج ٣ ص ٣٠٣ و ٣٤٤ و ٣٤٨ و ٣٥٢ و ٣٥٤ و ٣٥٧ و ٣٦٠ و ٣٦٢ و ٣٦٤ و ٣٦٩ و ٣٧١ و ٣٧٦ و ٣٨٥، ففيها جميعا يقتبس القلقشندى من ابن عبد الظاهر.

ذلك فى وباء سنة تسع وأربعين وسبعمائة ثم فى وباء احدى وستين ، ثم فى غلاء سنة ست وسبعين وسبعمائة»[١] ؛ ثم يقول عن الكتاب وعن مؤلفه فى موضع آخر: «وآخر ما رأيت من الكتب التى صنفت فى خطط مصر ، كتاب إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل، تأليف القاضى الرئيس تاج الدين محمد بن عبد الوهاب ابن المُتَوَّج الزُّبيرى رحمه الله ، وقطع على سنة خمس وعشرين وسبعمائة»[٢] . ويقتبس المقريزى كثيرا من ابن المتوج فيما يكتب عن خطط مصر وآثارها ومساجدها ومعالمها، ولكنه لا يقتبس منه شيئا فيما يكتب عن القاهرة ، مما يدل على أن مباحث ابن المتوج كانت تدور بالأخص حول خطط مصر لا القاهرة[٣] .

وكتب فى هذا الوقت بعض مؤرخين وكتاب آخرين فى تاريخ مصر وأحوالها، وتناولوا خلال مباحثهم شيئا من خطط مصر وآثارها . ومن هؤلاء المؤرخ ابن وَصِيف شاه، المتوفى فى أواخر القرن السابع؛ فقد تناول فى تاريخه[٤] بعض خطط مصر القديمة ونيلها وخلجانها وآثارها، وما يتعلق بذلك من الأساطير . ومنه يقتبس المقريزى فى عدة مواطن[٥] . وكذا النُّوَيْرى المتوفى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) فى كتاب «نهاية الأرب»، وابن فضل الله العُمَرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فى كتاب «مسالك الأبصار»، ثم القَلْقَشَندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨م) فى كتاب «صبح

---

(١) الخطط — ج ١ ص ٥

(٢) الخطط — ج ١ ص ٣٤٢ ، ويعكس المقريزى هذه التسمية فى مقدمته فيسمى الكتاب «ايقاظ المتأمل واتعاظ المتغفل» ، ولكن السيوطى يورد التسمية الأولى، واتفاقهما يجعلها أصح .

(٣) راجع ما نقله المقريزى عن ابن المتوج — ج ١ ص ٢٨٦ و ٢٨٨ و ٢٩٨ و ٣٣١ و ٣٤٢ و ٣٤٥ و (٢) ص ٨٦ و ١١٤ و ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٨ و ١٨٤ و ١٩٧ و ٢٥٣ و ٢٨٢ و ٣٠٣ و ٤٢٩

(٤) فى دار الكتب نسخة فتوغرافية لكتاب ينسب الى ابن وصيف شاه، اسمه : «جواهر البحور ووقائع الأمور، وعجائب الدهر» فيه ذكر فضائل مصر وما ورد فى تاريخها القديم وآثارها من الأساطير ثم تاريخ ولاتها المسلمين منذ الفتح . ولكن الظاهر أن المقريزى يقتبس من مؤلف أكبر واوسع لابن وصيف شاه .

(٥) راجع الخطط — ج ١ ص ١٢٤ و ١٢٩ و ١٣٥ و ١٤١ و ١٧٥ و ١٨٢ و ٢١٠ و ٢١٣ و ٢٣٢ و ٢٣٧ و ٢٤١ و ٢٦٨ و (٢) ص ١٤٠ و ١٧٧ و ٤٨٠

الأعشى» . غير أن هؤلاء فى الواقع أدباء أو كتّاب موسوعات لا تخصص فيها، نقلوا فى كتبهم ما تعلق بخطط مصر عن كتّاب الخطط المتقدّمين مثل ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق والقضاعى وغيرهم .

ووضع ابن الجيعان المتوفى فى أواخر القرن الثامن كتّاب «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» ، وهو عبارة عن ثبت للاقاليم والبلاد المصرية ، وذكر زماماتها ، وأنواع أراضيها من رزق وأحباس وغيرها ، مرتبة على حروف المعجم ، وذلك حتى سنة ٧٧٧ هـ فى أواخر عهد الملك الأشرف[1] .

وفى أواخر القرن الثامن كتب عن خطط مصر وآثارها وصروحها ، مؤرّخ مصرى كبير هو صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى المعروف بابن دُقْماق . ولد بالقاهرة سنة ٧٥٠هـ ، وتوفى بها سنة ٨٠٩ ، (١٣٤٩ — ١٤٠٦م) . وخص الخطط بأعظم قسط من مجهوده التاريخى ، فكتب عنها مؤلفه الكبير « الانتصار لواسطة عِقْد الأمصار » فى عدّة مجلدات كبيرة لم يصلنا سوى بعضها . غير أن هذا القسم الذى انتهى الينا ، يتضمن استعراضا شافيا لخطط مصر الفسطاط منذ نشأتها ، وذكر أحيائها وأسواقها ورحابها ، ومساجدها ومعاهدها وأبنيتها ، وأديارها وكنائسها ومناظرها ، وتطوراتها فى مختلف العصور ، كما يتضمن الكلام على كثير من كور مصر وأعمالها الأخرى ، فى الوجهين القبلى والبحرى ؛ غير أنه لا يتضمن كثيرا عن خطط القاهرة[2] . ويعتمد ابن دقماق على سلفائه من كتّاب الخطط ، ولا سيما ابن عبد الحكم والكندى والقضاعى وابن المتوج . والطريف فى مباحثه هو ما تعلق بخطط مصر فى عصره ، أعنى فى أواخر القرن الثامن . وقد انتهى الينا من مجهود ابن دُقْماق أيضا كتّاب «الجوهر الثمين فى سِيَر الملوك والسلاطين» ، وقسم من مؤلف آخر هو « نزهة الأنام فى تاريخ الاسلام» ، وكلاهما مرتب حسب السنين[3] .

---

(١) عنيت دار الكتب المصرية بنشر هذا الكتّاب منذ سنة ١٨٩٨

(٢) فى دار الكتب نسخة خطية من هذا القسم فى مجلدين . وقد طبعا فى بولاق منذ سنة ١٣٠٩ هـ . راجع فيه وصف ابن دقاق لدور الفسطاط (ج ١ ص ٥ — ١٣) ، ووصفه لأزقتها ودروبها (ص ١٤ — ٥٩) .

(٣) فى دار الكتب نسخة خطية من الأول ونسخة فتوغرافية من الثانى نقلت عن مخطوط مكتبة باريس .

وفى خاتمة القرن الثامن أيضا أو فاتحة القرن التاسع وضع شهاب الدين الأَوْحَدى (٧٦١ — ٨١١هـ) (١٣٦٠—١٤٠٨م) كتابا عن خطط مصر والقاهرة، لا نعرف عنه سوى الاسم[1] .

٢

خِطَطُ المَقْرِيزى

وهنا تبدأ المرحلة الثالثة فى تاريخ الخطط ، وهى أهم وأعظم المراحل جميعا . فقد توالت الخطوب والمحن على مصر القاهرة فى أواخر القرن الثامن، فذوى بهاؤها ودرست آثارها، وغلبت عليها مناظر الخراب الموحشة، زهاء نصف قرن . ثم استعادت العاصمة الكبيرة نضرتها ورواءها، وارتدت فى النصف الأول من القرن التاسع، حلة قشيبة من الضخامة والعمران والجِدّة . ووهبت فى نفس الوقت أعظم مؤرخيها، وأشدهم هياما بها، وشغفا باستقصاء خططها، وأعظمهم توفيقا فى تخليد معالمها وآثارها، أعنى تَقِىّ الدين المَقْرِيزى .

كان المقريزى زعيم هذه المدرسة التاريخية الباهرة، التى أزهرت بمصر خلال القرن التاسع، وخصت تاريخ مصر بأعظم جهودها، وتخرج فيها العِينى وأبو المحاسن ابن تَغْرى بِرْدِى، والسَّخاوى، وابن إياس، ومازالت آثارها بين أيدينا أعظم تراث تلقيناه فى تاريخ مصر الاسلامية. وهو تقى الدين أحمد بن على بن عبدالقادر بن محمد، ويعرف بالمقريزى[2]، ولد بالقاهرة المعزية سنة ٧٦٦ هـ[3] وتوفى بها سنة ٨٤٥ (١٣٦٤ —

(١) حسن المحاضرة — ج ٢ ص ٢٦٦ ، وكذلك «الضوء اللامع» (نسخة دار الكتب الفتوغرافية) القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٤٦٩ .

(٢) ذكر السخاوى فى ترجمته للقريزى أن هذه التسمية نسبة لحارة فى بعلبك تعرف بحارة المقارزة . وكان أصله (أى المقريزى) من بعلبك ، وجده من كبار المحدثين ، فتحول والده (أى والد المقريزى) الى القاهرة (التبر المسبوك ص ٢١) .

(٣) يقول المقريزى فى ديباجة الخطط (ص ٤) إنه ولد بعد سنة ستين وسبعمائة من الهجرة ولا يعين تاريخ ميلاده . ولكن السخاوى يذكر أن شيخه ابن حجر، رأى بخط المقريزى ما يدل على أن مولده كان فى سنة ست وستين . ويضع السيوطى تاريخ مولده فى سنة ٧٦٩ (حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٦) .

١٤٤١ م) . ولا يتسع المقام هنا للاحاطة بترجمة المقريزى ومجهوده التاريخى، ولكنا نكتفى فى ترجمته بلمحة قصيرة، ولا نتناول من مجهوده التاريخى إلا ما تعلق بتاريخ الخطط . فقد نشأ فى تلك العاصمة الكبيرة ، التى طوت قبله أجيالا من السلاطين والدول ، والتى كانت تشوق دائما بماضيها الحافل، وآثارها الباهرة، طُلَعَة كل مفكر وراوِيَة، وأنفق مدى حياته بين هاتيك الربوع والصروح الخالدة، التى أوحت اليه أن يكون فيما بعد مؤرخها ومحيي ذكرياتها . ودرس فى الأزهر موئل التفكير يومئذ على أساتذة هذا العصر وشيوخه ؛ وتخصص نوعا فى دراسة الفقه وعلوم الدين؛ وتقلب فى وظائف الوعظ والخطابة والتدريس فى المدارس الجامعة. ثم ولى الحِسْبَةَ[1] فى القاهرة ، وهى من مناصب القضاء الهامة يومئذ ، وتقلب من بعدها فى عدّة وظائف قضائية فى القاهرة ودمشق . وكانت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق، ثم عند ولده الملك الناصر فرج من بعده . ثم زهد فى الوظائف العامة واستقر فى القاهرة ، وتفرغ الى البحث والكتابة. وكان منذ فتوته يشغف بمطالعة التواريخ والسير وجمع أشتاتها . وخص مصر وأخبارها وآثارها بأعظم قسط من جهوده ومباحثه ، وكتب فى ذلك عدّة مؤلفات جليلة . وكتب أيضا فى نواح أخرى من تاريخ الاسلام كما كتب فى غير التاريخ . ولكن براعة المقريزى كمؤرخ تبدو بنوع خاص، فيما كتبه عن مصر الاسلامية، ودولها، ونظمها، ومجتمعاتها ، وشعبها ؛ وله فى ذلك طائفة من أنفس الآثار، نذكر منها ما يأتى :

(١) « المَوَاعِظ والاعْتِبار، بذكر الخِطَط والآثار » وهو المقصود فى هذا البحث وسنعود اليه .

(٢) « السُّلُوكُ ، فى دولِ المُلُوكِ » وهو تاريخ دول المماليك فى مصر حتى قبيل وفاته .

---

(١) كانت مهام الحسبة يومئذ تشبه فى عصرنا مهام النيابة العمومية من بعض الوجوه .

(٣) « المُقَفّى » أو التـاريخ الكبير » وهو تاريخ الأمراء والكبراء الذين حكموا مصر وعاشوا فيها، مرتب على حروف المعجم .

(٤) « دُرَرُ العقودِ المُفيدة، فى تراجم الأَعْيان المُفيدة » .

(٥) « اتِّعَاظُ الحُنَفَاءِ ، بأخبار الأئمة الفاطِميِّين الخُلَفاء » وهو تاريخ الدولة الفاطمية منـذ نشأتها فى المغرب الى عصر المعز لدين الله . ولكن المحقق أن الذى وصلنا هو قسم منه فقط .

(٦) « البَيَان والإِعْرَابُ، عما بمصر من الأَعْراب » .

(٧) « عِقْدُ جَواهِرِ الأَسْفَاطِ، فى ملوك مِصْرَ والفُسْطَاطِ » .

هذا أهم ما كتبه المقريزى فى تاريخ مصر.[1] وقد شاء القدر السعيد أن نتلق معظم هذا التراث الحافل ، وأن نتلق بالأخص أنفس ما فيه ، وإن لم ير الضياء منه الى يومنا سوى القليل. ولعل كتاب « الخِطَط » هو أعظم وأجل هذه الآثار جميعا ، بل هو فى الواقـع أنفس خلاصـة لذلك المجهـود التاريخى الشاق ، الذى اضطلع به المقريزى زهاء نصف قرن ، وهو فوق ما يطبعه من براعة وابتكار و بيان ممتع ، ينم عن ذلك الحب العميق الذى كان يملأ جوانح المؤرخ نحو وطنه ومسقط رأسـه ، وعما كان يحدوه من شغف الوفاء بتخليد آثار هذا الوطن، وتدوين محاسنه وسعاداته ، ورثاء مصائبـه ومحنه . وهى عواطف يفصح المقريزى عنها فى قوله فى مقـدمة «الخطط» : «وكانت مصر مسـقط رأسى، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى

---

(١) للقريزى ثبت حافل آخر من الآثار فى التاريخ وغيره ، منها : الخبر ، عن البشر . الالمام ، فى من تأخر بأرض الحبشة من ملوك الاسلام . الطرف الغريبة ، فى أخبار حضرموت العجيبة . الإخبار ، عن الأعذار . ذكر من حج من الملوك والخلفاء . التخاصم ، بين بنى أميـة و بنى هاشم . الدرر المضيئة . امتاع الأسماع ، بما للنبى من الحفدة والأتباع . المقاصـد السنية ، فى معرفة الأجسام المعدنية . تجريد التوحيد . مجمع الفرائد ، ومنبع الفوائد . الأوزان والأكيال الشرعية . تاريخ النقود العربية ، الخ. وقد ذكرها السخاوى جميعا . ووصـل الينا الكثير منها . ومنها عدة بدار الكتب المصرية مخطوطة أو مصورة . وبعضها لا يزال مبعثرا فى المكاتب الأوربية . وليس هذا مقام الالمام بموضوعاتها وأماكنها . ولكنا سنتناول ذلك كله مفصلا فى بحث خاص فى كتابنا الذى نعنى بوضعه عن « مؤرخى مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى » .

عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجؤجؤى الذى رُبى جناحى فى وكره، وعش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره ؛ لا زلت مذ شدوت العلم، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معـرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ...» .

كانت « الخطط » إذًا ثمرة هـذه العاطفة المضطرمة ، وما أوحت من مثابرة وعناية وجلد . والظاهر أن المقـريزى قضى أعواما طويلة فى البحث والدرس ، وجمع المذكرات والأخبار، قبل أن تستقر فى ذهنه فكرة تدوين «الخطط» ؛ فهو يقول فى مقدمتـه : « فقيـدت بخطى فى الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب ؛ إلا أنها ليست بمرتّبة على مثال، ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال؛ فأردت أن ألخص منها أنبـاء ما بديار مصر من الآثار الباقية، عن الأمم والقرون الخالية؛ وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد، غير ما كاد يفنيه البلى والقدم، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم؛ وأذكر ما بمدينة القاهرة، من آثار القصور الزاهرة ؛ وما اشتملت عليه من الخطط والاصقاع، وحوته من المبانى البديعة والأوضاع ؛ مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل ، والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضـل » . وهكذا استُخرجت «الخطط» من مادة غزيرة متباينة، جمعت شواردها خلال أعوام طويلة، وصيغت محتوياتها على هـذا النحو الذى يصفه المؤرخ . ومن الصعب أن نعين تاريخ كتابة «الخطط» بالضبط . ولكن هنالك ما يدل على أن البدء فى كتابتها وتنظيمها كان بين سنتى ٨٢٠ و ٨٢٥ هـ . ويشير المقريزى إلى ذلك عرضا فى موضعين :

الأول — فى كلامه عن «موضع الفسطاط قبل الاسلام الى أن اختطه المسلمون مدينة» حيث يقول :

« قال ابن المتوّج : وعمود المقياس موجود فى زقاق مسجد ابن النعمان . قلت : وهو باق إلى يومنا هذا أعنى سنة عشرين وثمانمائة[1] » .

(١) الخطط — ج ٢ ص ٤٦٣

الثـانى — فى كلامه عن «مدينة مَدْيَن» حيث يقول :

« ... وكان بأرض مدين عدّة مدائن كثيرة قد باد أهلها وخربت وبقى منها الى يومنا هذا وهو سنة خمس وعشرين وثمانمائة نحو الأربعين مدينة قائمة[1] ...» .

كذلك هنالك ما يدل على أن المقـريزى لبث فى تدوين الخطط والزيادة فيها تباعا الى سنة ٨٤٣ هـ أعنى قبل وفاته بنحو عامين واليك بعض الشواهد على ذلك :

(١) فى تاريخ « الجامع المؤيدى » حيث يسـوق المؤلف أخباره حتى وفاة السلطان المؤيد سنة ٨٢٤ هـ[2] .

(٢) فى تاريخ «المـارستان المؤيدى» حيث يسوق تاريخه الى سنة ٨٢٥هـ[3].

(٣) فيما كتبـه عن سلاطين عصره حيث يسوق الكلام الى ولاية السلطان الأشرف برسباى فى ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ[4] .

(٤) فى تاريخ « الجامع الأشرفى » حيث يسوق تاريخه الى سنة ٨٢٧ هـ[5] .

(٥) فى تاريخ بعض المساجد الصغيرة حيث يسوق تاريخها الى سنة ٨٣٠ هـ؛ وسنة ٨٣١ وسنة ٨٣٢[6] .

(٦) فى كلامه عن قبر الليث بن سعد حيث يسوق الكلام عنه الى ذى القعدة سنة ٨٤٠ هـ[7] .

---

(١) ج ١ ص ١٨٨ — وقد ذكر المستشرق جست فى مقال له فى مجلة الجمعيـة الأسيوية الملكية (J. R. A. S.) (سنة ١٩٠٢ ص ١٠٣) عن المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى وضع خططه ، أن الخطط كتبت بين سنتى ٨٢٠ و ٨٤٠ هـ معتمدا فيما يتعلق بالبـدء على الاشارة الأولى وفيما يتعلق بالانتهاء على أن المقريزى يسوق ما كتبه عن قبر الليث بن سعد، الى ذى القعدة سنة ٨٤٠ هـ (ج ٢ ص ٤٦٣) ولـكن سنرى أن المقريزى يسوق الكتابة الى ما بعد ذلك التاريخ .

(٢) ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٣) ج ٢ ص ٤٠٨

(٤) ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٥) ج ٢ ص ٣٣١ .

(٦) ج ٢ ص ٣٢١ .

(٧) ج ٢ ص ٤٦٣ .

أما الدليل على أن المقريزى استمر فى كتابة الخطط حتى آخر سنة ٨٤٣ هـ ، وليس الى سنة ٨٤٠ فقط كما يقول المستشرق جِسْت ، فهو قول المقريزى فى أخبار بعض مساجد القاهرة التى أنشئت أو جددت فى عصره :

« وتجدّد فى آخر سويقة أمير الجيوش بالقاهرة جامع أنشأه الفقير المعتقد محمد الغمرى وأُقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة رابع ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل أن يكمل[(١)] » .

كذلك هنالك ما يدل على أن أجزاء كثيرة من « الخطط » قد كتبت قبل سنة ٨٢٠ ، بعد فترة المحن والغلاء التى وقعت سنة ٨٠٦ حسبما تشير الى ذلك مقدمة « الخطط » وكثير من فقراتها[(٢)] . والظاهر أيضا أن معظم المباحث التى تتعلق بتاريخ مصر القديمة ، والفتح الاسلامى ، وأخبار الفسطاط وملوكها ، وغير ذلك مما لا يرتبط بمجرى الحوادث فى عصر المؤلف ، قد كتب فى تاريخ سابق . أما ما تعلق بعصر المؤلف كما هو الشأن فى القسم الذى يشتمل على أحوال القاهرة فى عصره ، فلا ريب أن كتابته أو الزيادة فيه قد لبثت الى ما قبيل وفاة المؤلف فى سنة ٨٤٥ ، على نحو ما قدمنا . بل هنالك ما يدل على أن « الخطط » كما وصلتنا تنقص عما رسمه لها المؤلف فى المبدأ ؛ وذلك أن المؤلف يقرر فى مقدمته ، أنه رتب مؤلفه على سبعة أجزاء : « أولها يشتمل على جمل من أخبار مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها . وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها . وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها . ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار . وخامسها يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال . وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها . وسابعها يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر » . ولنلاحظ أولا أن الجزء السادس يتوسط الجزء الخامس فى الكتابة ، وأن المؤلف يستطرد فى تناول ما بمصر والقاهرة من المساجد والمنشآت

---

(١) ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) ج ١ ص ٥ .

بعد تناول الجزء السادس تكميلا للجزء الخامس ، ثم يختتم بفصول عن تاريخ اليهود والقبط والأديار والكنائس . أما الجزء السابع ، الذى يقول المقريزى : إنه يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر ، فليس له وجود فى نسخ الخطط التى وصلت إلينا ، مع أن المؤلف يشير الى المحن التى نشأ عنها خراب مصر فى مواطن كثيرة(١) ، ويتناولها من آن لآخر فى شذور موجزة . وقد يرجع ذلك إلى أن المقريزى قد عدل عن كتابة هذا القسم أو لعل الموت فاجأه قبل إنجازه(٢) .

على أن محتويات « خطط » المقريزى ، أعظم وأغزر بكثير مما يدلى به هذا التقسيم . فهذا الأثر فوق كونه عرضًا مستفيضا لجغرافية مصر والقاهرة والنيل القديمة ، وسيرها منذ الفتح الاسلامى ، هو مجمع فريد من صور مصر العمرانية والاجتماعية والفنية فى العصور الوسطى ، ومعرض بديع لتاريخ مصر الاجتماعى ، وأحوال المجتمع المصرى ، وظواهره النفسية والأخلاقية ، وحياته العامة ؛ وهو بذلك أثر وافر الابتكار والطرافة بما يفيض فيه من نواح فى التاريخ المصرى لم تلق حقها قبل من الإفاضة . وإذا لم يكن المقريزى أول مبتدع لتاريخ الخطط ، فهو بلا ريب أعظم مؤرخيها جميعا ، وأغزرهم مادة ، وأقواهم عرضا ، وأوفرهم جلدا ومثابرة فى الاستقصاء . فهذه المدينة الإسلامية العظيمة «مصر القاهرة» ، وخططها القديمة ، وتطوراتها الجغرافية والعمرانية ، وأحياؤها وآثارها ، ومساجدها ومدارسها ، وقصورها ورياضها ، وكل ما احتوت من بذخ وبهاء وفن ، تشغل فراغا عظيما فى « الخطط » ؛ وما حىّ فيها وما شارع أو سوق ، وما صرح أثرى أو معهد أو قصر ، إلا وفاه المقريزى حقه من الوصف والتاريخ . وهذا التراث العمرانى والفنى الخالد ، تراث المدنية الإسلامية فى مصر ، يعرضه لنا المقريزى

---

(١) راجع المقدمة ج ١ ص ٥ وج ٢ ص ٩١ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١١١ وغيرها حيث يشير المقريزى إلى خراب كثير من أحياء مصر والقاهرة على أثر « الحوادث والمحن » التى وقعت فى سنة ٨٠٦ هـ .

(٢) يفترض المستشرق جست فى مقاله المشار اليه أن المقريزى عدل عن عزمه فى معالجة هذا القسم بعد الإشارة اليه فى المقدمة .

فى صـور قوية باهرة ممتعة . وهو يتتبع فيما يكتب شجون الحـديث ؛ فاذا ملك أو أمير أو كبير يقترن اسمه بذكر هـذه الصروح والآثار الخالدة ، واذا حادث أو واقعة أو نادرة ترتبط بسيرتها ، فانه يستقصى كل ما تعلق به أو بها من الأخبار، فينتقل بقارئه من المسجد والقصر، الى الأمير، ومن الأمير الى الحرب ،ومن الحرب الى المآدب والرياض . وهو خلال ذلك كله يُعنى بعرض صور هامة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى ؛ ويقدّم الينا المجتمع القاهرى فى أثوابه المختلفة ، زاهيـة وقاتمة ؛ ويعنى بشرح النظم السياسية والإدارية والاقتصادية التى توالت على مصر ، ورسوم البـلاط القاهرى فى عصوره المختلفة ، وأحوال الخلفاء والسلاطين فى الحياة العامة والخاصـة ، ومواكبهم ومآدبهم وأخلاقهم وأطوارهم ، وأحوال المنشآت العامة كالشكات والسجون والمعاهد والمدارس والمساجد والزوايا والتكايا وغيرها ، وحياة الشعب الخاصـة ، وعادات الأفراد وتقاليدهم وأحوالهم فى المعاملات والملبس والمآكل والأفراح والأتراح والجد والهزل ؛ كل ذلك فى بيان قوى واضح ، وأسلوب شائق ممتع يخلب الألباب .

هذا وصف موجز لمـا تعرضه «خطط» المقريزى . وقد لبث هذا الأثر الخالد على كر العصور موضع التقدير والإعجاب من كل مؤرخ ومفكر ، وما يزال الى يومنا من أنفس المصادر فى تاريخ مصر الاسلامية . ولكن مجهود المقريزى عُرِّض للانتقاص من أحد أعلام عصره ، بل أُنكر عليه فضل وضعه وابتكاره ، ونُسب الى النقل والتزييف . والقائل بهـذه التهمة الغريبة هو شمس الدين السَّخَاوى[1] ؛ نسبها الى المقريزى فى مؤلفاته أكثر من مرة ، وحمل عليه بشـدة ، ورماه بالادعاء والضعف والسقط . والسَّخاوى من أقطاب التفكير والنقد فى القرن التاسع . ولكن سنرى أن هذه الحملة القاسية التى وجهها الى المقريزى ، أبعد ما تكون عن النزاهة والحق ، وأنهـا بالعكس يطبعها التحامل والتناقض ، ويدحضها المنطق والحقائق المـادية .

(١) ولد السخاوى سنة ٨٣١ هـ . وتوفى سنة ٩٠٢ هـ . (١٤٢٧ — ١٤٩٧ م) .

قال السخاوى فى ترجمته للقريزى[1] ما يأتى :

« واشتغل كثيرا ، وطاف على الشيوخ ، ولقى الكبار ، وجالس الأئمة فأخذ عنهم ... ، ونظر فى عدّة فنون ، وشارك فى الفضائل ، وخط بخطه الكثير ، وانتهى ، وانتقى ، وقال الشعر والنثر وأفاد » .

وقال بعد أن عدّد مؤلفاته : « بلغت مجلداته نحو المائة ، وقد قرأت بخطه ، أن تصانيفه زادت على مائتى مجلد كبار ، وأن شيوخه بلغت ستمائة نفس . وكان حسن المذاكرة بالتاريخ ، لكنه قليل المعرفة بالمتقدمين ، ولذلك كثر له فيهم وقوع التحريف والسقط ... وكانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو ، واطلاع على أقوال السلف ، وإلمام بمذاهب أهل الكتاب ، حتى كان يتردد اليه أفاضلهم للاستفادة منه ، مع حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ... كل ذلك مع تبجيل الأكابر له ، إما مداراة له خوفا من قلمه ، أو لحسن مذاكرته .

« وكان كثير الاستحضار للوقائع القديمة فى الجاهلية وغيرها . وأما الوقائع الاسلامية ، ومعرفة الرجال وأسماؤهم ، والجرح والتعديل ، والمراتب والسير ، وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه ، فغير ماهر فيه ... »[2] .

هكذا يتردد السخاوى فى ترجمته للقريزى بين المديح والذم ، وبين التقدير والانتقاص ؛ على أنه لا يقف عند هذا التعميم بل يذهب الى صوغ التهم المعينة فيقول فى سياق حديثه :

« وأقام ببلده (أى المقريزى) عاكفا على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر ذكره ، وبعد فيه صيته ، وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بِمُسَوَّدة الأَوْحَدِى ، فأخذها وزادها زوائد غير طائلة » .

---

(١) أورد السخاوى هذه الترجمة فى كتابيه : « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » (نسخة دار الكتب الفتوغرافية ، المجلد الأول — القسم الثالث ص ٥٣٣) و « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » (طبع بولاق ص ٢١) .

(٢) وردت هذه الفقرة الأخيرة فى « الضوء اللامع » فقط ولم ترد فى « التبر المسبوك » .

ثم يكرر السخاوى هـذه التهمة فى كتاب وضعه فى أواخر حياته سنة ٨٩٧ هـ . بمكة هو: « الإعلان بالتّوبيخ لمن ذَمّ أهل التواريخ» فيقول : «وكذا جمع خططها (أى مصر القاهرة) المقريزى،وهو مفيد .قال لنا شيخنا : إنه ظفر به مسودة لجاره الشّهاب أحمد بن عبدالله بن الحسن الأَوْحَدى؛ بل كان بيّض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه[1] » .

فمن هو الأوحدى هذا الذى نُسب المقريزى الى اختلاس أثره ؟

لقد ذكرنا أنه من كتّاب القرن الثامن (٧٦١ — ٨١١ هـ) ، وأنه ألف كتابا فى «الخطط» لا نعرف عنه سوى الاسم . ونزيد هنا ما ذكره السخاوى فى ترجمته حيث يقول: « وبرع (أى الاوحدى) فى القرآن والأدب،وجمع مجاميع ، واعتنى بالتـاريخ وكان لهجا به ؛ وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيهـا وأجاد، وبيض بعضها ؛ فبيضها التقى المقريرى ونسبها لنفسه مع زيادات ... ... وفى ترجمته فى عقود المقريزى[2] فوائد ، واعترف بانتفاعه بمسوداته فى الخطط، وأنه ناوله ديوان شعره[3]» .

وذكره السيوطى ضمن مؤرخى مصر،وقال :إنه « كان لهجا بالتاريخ ، ألف كتابا كبيرا فى خطط مصر والقاهرة، وكان مقرئا أديبا ، ومات فى جمـادى الأولى سنة ٨١١[4] » .

وهكذا ينسب السخاوى تهمة الاختلاس الى المقريزى أينما سنحت له فرصة الكتابة، وأينمـا جاء ذكر الخطط .

ويجب أولا لتمحيص هذه التهمة، أن نستعرض المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى كتابة « خططه » ، لأنه لم ينس أن يشير الى هذه المصادر فى مقدمتـه

---

(١) الاعلان بالتوبيخ — نسخة دار الكتب المخطوطة ص ١٥٧ .

(٢) أى كتاب المقريزى المسمى « درر العقود المفيدة » الذى سبقت الاشارة اليه .

(٣) الضوء اللامع — القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٤٦٩ .

(٤) حسن المحاضرة — ج ٢ ص ٢٦٦ — وظاهر أن السيوطى يلخص من أقوال السخاوى .

حيث يقول : «وأما أى أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب ، فانى سلكت فيه ثلاثة أنحاء : وهى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم . والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس . والمشاهدة لما عاينته ورأيته . فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم فانى أعزو كل نقل الى الكتاب الذى نقلته منه ، لأخلص من عهدته ، وأبرأ من جريرته ؛ فكثيرا ممن ضمنى وإياه العصر ، واشتمل علينا المصر ، صار لقلة إشرافه على العلوم ، وقصور باعه فى معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس ، يهجم بالانكار على مالا يعرفه ؛ ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه ، ولا يحتاج فى الشريعة اليه ؛ وحسب العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ ، فانى فى الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثنى ، إلا أن لا يحتاج الى تعيينه ، أو أكون نسيته ، وقل ما يتفق مثل ذلك . وأما ما شاهدته فإنى أرجو أن أكون ، ولله الحمد ، غير متهم ولا ظنين» (1) .

ثم يتبع المقريزى ذلك بكلمة عن كتاب «الخطط» ، يشير فيها الى جهود الكندى والقضاعى وابن بركات النحوى والجوانى وابن عبد الظاهر وابن المتوج ، ويذكر أن ابن المتوج كان آخر من كتب قبله عن الخطط ، وأنه يصل فى كتابه الى ذكر أحوال مصر وخططها ، الى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة . على أن المقريزى لا يقف عند هذا التعميم فى ذكر مصادره ، بل يعود فى سياق كتابه ، فيذكرها بأدق تخصيص وأوضحه ، فلا يكاد ينقل رواية أو واقعة أو وصفا ، الا أسنده الى مصدره ومؤلفه . فأما أخبار فتوح مصر وتاريخها قبل الإسلام فيرجع فى معظمها إلى ابن عبد الحكم ، وابن يونس ، والمسعودى ، وابن وصيف شاه . ويرجع فى أخبار الفسطاط الأولى ، الى الكندى ، وابن زولاق . وفى وصف النيل وغيره من الموضوعات الجغرافية الى المسعودى . وفى عصر الدولة الفاطمية ، وهو من أبدع أقسام الخطط ، يرجع المقريزى بالأخص الى ابن زولاق والمسبحى وابن المأمون

---

(1) ج ١ ص ٦ .

والجوّانى ، وقد عاشوا جميعا فى عصر الفاطميّين ، وكتبوا عن مشاهدة ومعرفة وثيقة . وفيما يلى ذلك من أخبار مصر والقاهرة ، يرجع المقريزى إلى القاضى الفاضل ، وابن عبد الظّاهر ثم ابن المتوّج . وهكذا يستقى المقريزى مادته تباعا من سلسلة متصلة من المصادر ، تبدأ بابن عبد الحكم المتوفى فى سنة ٢٥٧ هـ ، وتنتهى بابن المُتَوّج المتوفى فى سنة ٧٣٠ هـ ؛ مسندا كل اقتباس إلى مؤلفه بمنتهى الصراحة والدقة (١) .

على أنه إذا كان من الصعب أن نجد فى هذه الأقسام المسندة إلى مصادرها الوثيقة أثرا أو لمحة مما يؤيد اتهام السّخاوى لمؤلّف الخطط ، فانه يصعب أيضا أن نجد ما يؤيد هذا الاتهام فى بقية الخطط ، أعنى ما تعلق بأخبار مصر القاهرة خلال القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، أو بعبارة أخرى ، فى العصر الذى أدرك المقريزى شيوخه ، ثم عاش فيه . والمقريزى صريح فى أنه اعتمد على من أدرك « من شيخة العلم وجلة الناس » . وأما العصر الذى عاش فيه المقريزى فهو يمتد من أواخر القرن الثامن إلى أواسط القرن التاسع ، ويشغل فى الخطط حيزا كبيرا . وقد عاصر المقريزى من ملوك مصر عشرة متعاقبين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين فى تطوّر مصر القاهرة والمجتمع المصرى ؛ الأولى : فى أواخر القرن الثامن حيث كانت مصر القاهرة بعد ما أصابها من وباء وعفاء ، ترتدى ثوبا جديدا من الحياة ؛ والثانية : بعد المحن التى توالت عليها بين سنتى ٨٠٦ و ٨١٢ هـ من وباء وغلاء وشَرَق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبهاءها . وقد أفاض المقريزى فى أخبار هذين العصرين وأحوالها وآثارهما . وكان المقريزى بحكم الوظائف التى تولاها ، وحظوته لدى بعض الملوك الذين عاصرهم ، متمكنا من سبل البحث والتحرّى والاستطلاع والمعاينة . ونفس الوقائع المادّية هنا تهدم تهمة السخاوى من أساسها . ذلك أن الأوحدى الذى نسب المقريزى إلى اختلاس أثره ، قد توفى كما رأينا فى أوائل سنة ٨١١

---

(١) راجع مقال المستشرق جست المشار اليه فهو يستعرض مراجع المقريزى ومصادره باسهاب ويقرنها بتعليقات مفيدة (J. R. A. S.) سنة ١٩٠٢ — ص ١٠٣

وقد بدأ المقريزى كما رأينا بكتابة «خططه» بين سنتى ٨٢٠ و ٨٢٥ واستمر فى كتابتها حتى سنة ٨٤٣ هـ ، أعنى قبل وفاته بنحو عامين ، فليس من الممكن عقلا أن يكون المقريزى قد نقل عن الأوحدى شيئا يتعلق بأحوال هذه المرحلة ، والأوحدى قد توفى قبلها ولم يدرك شيئا منها .

وما كتبه المقريزى عن خطط مصر والقاهرة منذ أوائل القرن الثامن إلى قبيل وفاته يشغل من مؤلفه أكثر من النصف ، فاذا أضفنا إلى ذلك أن المقريزى يقتبس من أسلافه كتّاب الخطط وغيرهم ، بطريق الاسناد ، شذورا تعدّ بالمئات ، كان ما تبقى مما يمكن أن يكون موضع الاتهام جزءا يسيرا جدّا ، يصعب علينا أن نعتقد أن المقريزى ، وهو إمام عصره فى التاريخ والرواية ، كان بحاجة إلى اختلاسه ، خصوصا وقد استعرض تاريخ مصر من قبل فى عدّة مؤلفات جليلة تشهد بفائق مقدرته و براعته .

وقد رأينا أن السخاوى يرجع الرواية فى اتهام المقريزى إلى شيخه فى كتاب « الاعلان بالتوبيخ » ، وإن كان يوردها من عنده فى « الضوء اللامع » ، فيقول فى إسناد التهمة : «قال لنا شيخنا إنه (أى المقريزى) ظفر به (أى الخطط) مسودة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، بل كان بيض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه» . وشيخ السخاوى المراد هنا هو القاضى ابن حَجَر العَسْقلانى المحدّث والمؤرّخ الكبير[1] ، معاصر المقريزى وصديقه[2] ؛ وإذًا فمصدر الإتهام الحقيق طبقا لهذا القول هو ابن حجر شيخ السخاوى ، وعنه ينقل السخاوى التهمة ، ويردّدها فى مختلف المواطن . ولكن اليك ما يقوله ابن حجر عن المقريزى وجهوده التاريخى ، وهو مما أورده السخاوى فى ترجمته أيضا :

« وقد ذكره شيخنا فى القسم الأخير من معجمه الذى وقف صاحب الترجمة عليه بقوله : وله (أى المقريزى) النظم الفائق ، والنثر العابق ، والتصانيف الباهرة ،

(١) راجع مقدّمة السخاوى فى «الضوء اللامع» حيث يوضح أن المراد بشيخه دائما هو القاضى ابن حجر .
(٢) ولد ابن حجر سنة ٧٧٣ وتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

خصوصا فى تاريخ القاهرة فانه أحيا معالمها ، وأوضح مجاهلها، وجدد مآثرها ، وترجم أعيانها» .

ويذكر ابن حجر أيضا فى ديباجة كتابه «رفع الإصر عن قضاة مصر» المقريزى ضمن مصادره، ويصفه بقوله : «رفيقى الإمام الأوحد المطلع تقى الدين المقريزى ...» [1] .

والواقع أن مهاجمة السخاوى لأكابر عصره، وانتقاصه لأقدارهم، ونقده لجهودهم، لم تقف عند المقريزى ولم تقتصر عليه؛ فنراه فى «الضوء اللامع» يهاجم طائفة كبيرة من أعلام هذا العصر ومؤرخيه، بل لم ينج ابن خلدون نفسه من لومه وتعريضه [2] . وقد أثار السخاوى بحملاته هذه دوائر التفكير فى عصره، ونشبت بينه وبين غير واحد من أعلام العصر، معارك قلمية ملتهبة، ولا سيما جلال الدين السيُّوطى؛ فقد اضطرم الجدل بينهما حينا، وتبادلا من الحملات والتهم، ونسب كل منهما الآخر الى الاختلاس والنقل؛ ووصف السيوطى مُعجم السخاوى فى مقامة شديدة كتبها للرد عليه فى قوله : «ما ترون فى رجل ألّف تاريخا جمّع فيه أكابر وأعيانا، ونَصَبَ لأكل لحومهم خِوَانًا، ملأه بذكر المساوى وثلب الأعراض، وفَوَّق فيه سهاما على قَدْر أغراضه، والأَعْرَاضُ هى الأَغْراض» [3] .

وهكذا يبدو اتهام السخاوى للقريزى وانتقاصه لمجهوده التاريخى باطلا، يطبعه التحامل والتناقض، وتدحضه الحقائق والوقائع المادية؛ بل يبدو السخاوى أشد تحاملا وتناقضا اذا علمنا أنه، وهو ينتقص مجهود المقريزى ويزيفه، لا يرى بأسا من الاعتماد عليه والتنويه به فى مقدّمة «الضوء اللامع» .

---

(١) راجع ديباجة رفع الاصر (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٥ تاريخ) ص ١

(٢) تراجع فى الضوء اللامع تراجم ابن خلدون ، وأبى المحاسن بن تغرى بردى ، والبقاعى، ففيها أمثلة واضحة من تحامل السخاوى .

(٣) أسمى السيوطى هذه المقامة : «الكاوى على تاريخ السخاوى» وهى مخطوط بدار الكتب (رقم ١٥١٠ أدب) .

ولم يلق هذا الاتهام كبير اهتمام فى دوائر البحث الحديث، غير أن الأستاذ بروكلمان Brockelmann قد أشار اليه فى ترجمته للمقريزى فى دائرة المعارف الاسلامية[١]، حيث وصف «الخطط» بأنها أهم آثار المقريزى، ثم قال : «ولكن الظاهر أنه نقل معظم ما لم ينسب النقل فيه، عن كتاب للأوحدى، ظفر به على قول السخاوى، وهو قول حسن التأييد» . ويعتقد المستشرق جست من جهة أخرى، أن المقريزى قد نقل فى خططه شذورا من الأوحدى دون الاسناد اليه[٢] . على أن الأستاذ بروكلمان لم يقدم دليلا لتأييد هذا الرأى، وقلما يشاركه فيه أحد ممن كتبوا عن المقريزى ومجهوده . و بالعكس فان البحث الحديث يكبر مجهود المقريزى ويحله المقام الأول فى تراث التاريخ الاسلامى .

بقى فرض واحد يمكن الأخذ به ؛ وهو أن المقريزى ربما انتفع ضمن مصادره بمجهود الأوحدى؛ وهو ما يشير اليه السخاوى فى ترجمة الأوحدى حيث يقول : «وفى ترجمته فى عقود المقريزى فوائد . واعترف (أى المقريزى) بانتفاعه بمسوداته فى الخطط» . هذا إذا سلمنا بصحة نسبة هذا الاعتراف للقريزى لأنه لم يصل الينا من عقود المقريزى — أو درر العقود المفيدة — سوى قطعة ضئيلة . وقد نميل الى التسليم بهذا الفرض، بل هو فى رأينا يقوى الريبة فى اتهام السخاوى لأن هذا الاعتراف، إن صح، فانما يشهد لصاحبه بالأمانة والصراحة . وشتان ما بين الاختلاس والانتفاع .

ومن جهة أخرى فان ما لعل المقريزى قد انتفع به من «مسودات» الأوحدى لا يعدو اليسير التافه بالنسبة لمجموع الخطط . فقد رأينا فى استعراض مصادر المقريزى أن ما كتبه عن خطط عصره، وما اقتبسه بطريق الإسناد، يستغرق

---

(١) Ency. de L'Islam-Art. Makrizi

(٢) المستشرق جست فى مقدمته لكتاب تسمية الولاة والقضاة للكندى (ص٤٨)، بيد أنه فى مقاله المشار اليه فيما تقدم (J. R. A. S.) سنة ١٩٠٢ ص١٠٣ وما بعدها ؛ يبحث مصادر المقريزى فى الخطط ويحللها تحليلا وافيا، ويشيد بمجهوده، وينوه بأهميته ونفاسته .

معظم مجهوده فى الخطط، وأن الباقى المرسل مما لا نسبة فيه يشغل فيها قسما صغيرا جدا؛ ومع ذلك ففى وسعنا أن نتعرف فى هـذا القسم أيضا على كثير من المصادر التى نقل عنهـا المقريزى بطريق التلخيص والاقتباس، ومعظمها يرجع الى مجهود ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق .

والخلاصة أن هذا الاتهام الذى يلح السخاوى فى نسبته لمؤرخ الخطط ، لايثير فى نظرنا ذرة من الريب فى عظمة المجهود التاريخى الذى تقدمه الينـا «الخطط»، وفى روعته وطرافته .

ان السخاوى كاتب ومحدّث ومؤرخ بارع ، ونقادة لاذع، قوى البيان والحجة . ولكن التحامل ، وربما الافتراء، يشوب هنا نقده؛ والظواهر والأدلة تنهض كلها لتهدم زعمه .

٣

الخطط بعد المقريزى

كانت خطط المقريزى أبدع عنوان لهـذا السحر الذى نفثته مصر الى بنيها، وذروة هـذه الجهود التى بذلت منذ ابن عبـد الحكم للإحاطة بخططهـا وربوعها وآثارها . وكانت عظمة المدن والآثار، فى عصور المجد والاستقلال، توحى تدوين أخبارها والإشادة بعظمتها ومحاسنها ؛ فلمـا اضمحلت دولة السلاطيـن الباذخة وضعفت مواردها، تضاءلت تلك الهمم التى كانت تقيم روائع المنشآت والمعاهد ؛ ولا تفتر عن تجميل العاصمة الإسلامية الكبرى .ولم يلق تاريخ الخطط بعد المقريزى حتى العصر الحديث ، شيئا من ذلك التخصص والاستيعاب اللذين امتاز بهما قبل عصر المقريزى ، بل اقتصر على نواح معينـة من الخطط، أو على نبذ ومختصرات اشتقت من المتقدّمين .

وقد انتهى الينا عدّة من هذه الآثار التى عَرَضت الى نواح من الخطط؛ منهـا كتاب لشمس الدين السخاوى، المحدّث والمؤرخ والناقد البارع، فى التعريف عن

المشاهد والمزارات اسمه : «تحفة الأحباب، وبُغية الطلاب، فى الخطط والمزارات، والبقاع المباركات» . وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد الملقب شمس الدين أبو الخير. ولد بالقاهرة، حسبما ذكر فى ترجمة نفسه [1]، سنة ٨٣١ هـ وتوفى بها سنة ٩٠٢ . (١٤٢٨ — ١٤٩٧ م) ودرس على أعلام عصره، ولا سيما ابن حجر العسقلانى [2]، الذى لازمه وتتلمذ له . وتخصص فى الحديث والفقه، ولكنه عنى بالتاريخ أيضا، وكتب فيه عدّة مؤلفات أهمها وأشهرها كتاب « التِّبْر المَسْبُوك فى ذَيْل السُّلوك » ، الذى جعله ذيلا لكتاب «السلوك» للمقريزى، وألمّ فيه بتاريخ مصر من سنة ٨٤٥ الى سنة ٨٥٧ هـ . وكتاب «الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع» ، وهو أثر ضخم يمتاز ببراعة فائقة فى التصوير والنقد . وكتاب « الاعلان بالتوبيخ فى من ذم أهل التواريخ » ، وهو نوع من فلسفة التاريخ . وله فى التاريخ أيضا عدّة آثار أخرى، هذا عدا مؤلفاته فى الحديث والفقه والأدب، وهى تربى على مائة؛ وقد ذكرها جميعا فى ترجمته ووصلنا الكثير منها . وأما كتاب «تحفة الأحباب»، وهو المقصود بهذا البحث، فهو كما يدل اسمه، دليل لخطط المشاهد والمزارات والبقاع المقدّسة، وبالأخص فى مصر القاهرة؛ وفيه وصف لأحياء مصر القاهرة التى تقع فيها هذه المشاهد، كمشهد الحسين، ومشهد الإمام الشافعى، والمشهد النفيسى، وغيرها من المشاهد والمزارات التى وُسمت بميسَم التقديس والبركة؛ ووصف لكثير من شوارع القاهرة وآثارها من جوامع ومساجد ومدافن وزوايا وروابط وأسبلة ، فى عصر المؤلف، أعنى فى أواخر القرن التاسع . ولمؤلّف السخاوى عن المشاهد والمزارات أهمية خاصة، لأنه تناول طائفة كبيرة من المشاهد والمدافن والزوايا الصغيرة والخاصة، التى لم يعن بها المقريزى فى خِططه ، ولا يزال الكثير منها باقيا الى اليوم، بحيث نستطيع بالرجوع الى معالمه، أن نحدّد كثيرا من مواقع القاهرة القديمة وأحيائها

(١) تراجع ترجمة السخاوى لنفسه فى «الضوء اللامع» (ومنه نسخة فتوغرافية بدار الكتب رقم ٦٧٥ تاريخ، وأخرى رقم ٦٧٦ تاريخ) ، وقد نقلها على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ١٢ ص ١٥ وما بعدها) .

(٢) (٧٧٣ — ٨٥٢ هـ) .

وشوارعها . وقد استعان على باشا مبارك فى «خططه» بهذا الأثر، على ضبط كثير من معالم الخطط والأحياء القديمة . فهو فى الواقع حلقة اتصال هامة بين خطط القاهرة القديمة، وخططها الحديثة[1] .

ومن هذه الآثار التى تعرض لنواح من الخطط دون التخصص والاستيعاب، كتاب : «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» لجلال الدين السيوطى . وهو عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد؛ ولد بالقاهرة، حسبما روى فى ترجمته سنة ٨٤٩، وتوفى بها سنة ٩١١ هـ (١٤٤٥ — ١٥٠٥ م) . وكان آية عصره فى الدرس والحفظ؛ برع فى علوم الدين براعة فائقة كما برع فى الأدب والتاريخ . وألف فيها جميعا عشرات الكتب والرسائل، وذكرها جميعا فى ترجمته[2] . وأشهر مؤلفاته التاريخية كتاب «حسن المحاضرة»، وهو مجموعة لنواح عدّة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والأدبى، وبعض خواصها وعجائبها وآثارها، ملخصة عن آثار المتقدمين، ولا سيما ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق والقضاعى؛ وذكرٍ من دخلها من الصحابة والتابعين؛ وذكرِ أمرائها وحفاظها وفقهائها وعلمائها وأدبائها؛ ثم ذكرٍ نيلها وبعض مدنها ونواح من خطط مصر القاهرة وآثارها، ولا سيما الجوامع وأمهات المدارس والخوانق . كل ذلك بطريق التلخيص والإيجاز . على أن السيوطى لم يأت بجديد فيما ذكره من أخبار الخطط والآثار، ولم يزد عن تلخيص ما أورده بشأنها سلفه المقريزى .

ونستطيع أن نعدد من هذه الآثار أيضا، كتاب : «نشق الأزهار فى عجائب الأقطار» لابن إياس مؤرخ الفتح العثمانى (٨٥٢— ٩٣٠ هـ) (١٤٤٨—١٥٢٣م) وهو مزيج من التاريخ والجغرافيا، يتحدث فيه كما يقول فى مقدّمته عن «عجائب مصر وأعمالها وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة، وطرف يسير من سير ملوكها

---

(١) يوجد من كتاب «تحفة الأحباب» بدار الكتب نسختان خطيتان . وقد طبع أيضا على هامش الجزء الرابع من كتاب «نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب» للقرى .

(٢) تراجع ترجمة السيوطى لنفسه فى كتاب حسن المحاضرة — ج ١ ص ١٥٥ وما بعدها .

القدماء، وما صنعوا من الأبنيـة المحكمة فى مصر وغيرها من البلاد ... ... وأخبـار النيل والأهرام، وعجائب البلاد التى من أعمال مصر وخططها وأقطارها» . ويسمى الكتاب فى نسخة دار الكتب الخطية «خريدة العجائب، وبغية الطالب»، وذكرت محتوياته على صفحة العنوان بما يلى : «فيه ذكر عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة، وأخبار الملوك السابقة، وأخبار النيل وعجائبه ، وأخبار البلدان، والبحار، والاشجار، والجزائر، والجبال، والعيون، والابيار، والدور والكنائس والقصور » . ويتناول ابن إياس فيه طرفا من أخبار اليمن والحجاز والهند والأندلس ورومة وأخبار بعض آثارها وصروحها . والكتاب فيـاض بالأساطير والخـرافات القديمـة التى رددها المتقدمون ، ولا يدخل من ذلك فى باب الخطط سـوى ما كتبه ابن إياس عن بعض الواحات والآثار المصرية ؛ بيـد أنه فى ذلك ناقل فقط لا يأتى بجديد ، ولا يعنى بتحقيق أو تمحيص ، وليس لأثره أية أهميـة فى تاريخ الخطط[1] .

وفى أواسط القرن الحادى عشر، وضع شمس الدين محمد بن أبى السُّرور البكرى الصِّديق (١٠٠٥ — ١٠٦٠ هـ) (١٥٩٦ — ١٦٥٠م)، مختصرا لخطط المقريزى، أسماه «قطف الأزهار، من الخطط والآثار»[2] . وقال فى مقدمته : إنه رأى تسهيلا للبحث عما أورده المقريزى من سير الخطط والآثار فى إسهاب وإطنـاب «أن يقتطف أحاسنه مع بعض زيادات زادها ليحسن سبك معانيه» ؛ ورتبه على نحو خطط المقريزى تقريبا ؛ فتكلم عن أصل تسمية مصر، وعن نيلها وجبالها وأهراماتها وملوكها قبـل الاسلام ؛ وعن الفتح الاسلامى ؛ ثم أخبـار الفسطاط

---

(١) راجع نسخة دار الكتب الخطية (رقم ٤٣٩ جغرافية) . وقد نشرت من الكتاب قطعـة معظمها عن النيل والمقياس ، وأرفقت بترجمة فرنسية للسيو لانجليس أمين قسم المخطوطات الشرقية لمكتبـة باريس (باريس سنة ١٨٥٧) .

(٢) ومنه نسخة خطية فى دار الكتب (رقم ٤٥٧ جغرافية) ، كتبت فى ربيع الآخر سنة ١١٣٤ هـ وهى مجلـد متوسط يقع فى نحو ثلاثمائة صفحة . ومنـه نسخ خطيـة أخرى فى باريس ولننجراد (دائرة المعارف الاسلامية Ency. de L'Islam فى مقال ابن أبى السرور البكرى) .

والخلفاء والسلاطين، كل ذلك بمنتهى الايجاز، ثم تكلم عن الفتح العثمانى ونوّاب الدولة العثمانيــة الى زمن الوزير أيوب باشا (١٠٥٤هـ — ١٦٤٤م)، وعن قضاة مصر منذ الفتح الاسلامى الى سـنة ١٠٥٦ هـ . وهذه بالطبع زيادات لم يدركها المقريزى . وأما عن الخطط فقد اقتبس المؤلف أبواب المقريزى، عن القــاهرة وقصور الخلفاء، وعن الحـارات والدروب والأزقة، والخوخ والحمـامات والقياسر والأسواق والأحكار، والخلجان والقناطر، والجوامع والمساجد والمدارس والخوانق، والزوايا والكنائس والديارات. وهو يكتفى على العموم فى ذلك بما أورده المقريزى. غير أنه من آن لآخر يقرنه بزيادات وملاحظات موجزة، فيذكر مثلا عن حى أو شارع أو سوق أو بناء معين، أنه تحوّل فى عصره الى كذا، أو أنه زيدت فيــه زيادة، أو محيت منه مواضع أو أنه زال تماما[1] . ولهذه الملاحظات قيمتها لأنها تحدد أحياء ومعالم من القاهرة فى عصره، أعنى فى القرن الحادى عشر، بأسمائها وأوضاعها فى هذا العصر، بحيث يمكن أن يسترشد بها فى تحديد هذه المواقع والمعالم فى العصور اللاحقة. وبذا تغدو مثل مؤلف السخاوى عن المزارات ، حلقة اتصال بين مواقع القاهرة القديمة وبعض مواقعها الحديثة .

وهنالك مختصر آخر لخطط المقريزى، لأحمد الحَنَفى، اسمه «الرَّوْضَةُ البَهِيَّة [فى] تلخيص كتاب المواعظ والاعتبار المقريزية»[2] . ولم تتح لنا فرصة الاطلاع عليه، لأنه ليس بين مجموعة دار الكتب المصرية. ولكن توجد منه نسخة خطية فى «جوتا»، وصفت فى فهرس المخطوطات الشرقيــة لمكتبتها بمـا يأتى : «الروضــة البهية [فى] تلخيص كتاب المواعظ والاعتبار المقريزية»، وهو ملخص لكتاب المقريزى

---

(١) راجع أمثلة من هذه الزيادات والملاحظات فى ص ١٢٥ (مخطوط دار الكتب) حيث يتكلم عن حى كوم الريش، وص ١٢٩ حيث يذكر قيسارية الجامع الطولونى ، وص ١٣٠ حيث يذكر خان الخليلى، وراجع أيضا ص ١٣٨ وص ١٤٠ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية (فى مقال المقريزى) . وذكر فى فهرس المخطوطات الشرقيــة لمكتبة «جوتا»، أنه توجد نســخة أخرى من «الروضة البهية» فى ليــدن (رقم ٤٨٦)، وثالثة فى باريس (رقم ٨٠٢) .

المشار اليه ، يبدأ مثل بدئه ، و ينتهى بالكلام على مدينة رعمساس وهى عين الشمس ؛ فهو تلخيص لربع الخطط تقريبا . وقد كتب المخطوط بخط المختصر نفسه ، وذكر اسمه على صفحة العنوان بأنه : «أحمد الحنفى المعروف بالبوح»[1] ، والكتاب فى مجلد يحتوى على مائة وأربع وعشرين ورقة ؛ وعليه تواريخ بعض مالكيه ، وأقدمهم بتاريخ سنة ١١٤٥ هـ»[2] . ويستفاد من ذلك أن كتاب «الروضة البهية» قد يكون مختصرا لجزء صغير من الخطط ، هو الذى أشير اليه ؛ وقد تكون نسخة «جوتا» هذه قطعة من مؤلف أكبر يشتمل على موجز « للخطط » كلها ؛ بيد أنه ليس لدينا ما يرجح أحد الرأيين[3] .

* * *

ولم يعرض مؤرخ مصرى بعد ذلك الى تاريخ الخطط والآثار حتى العصر الأخير . ولكن هناك مرحلة هامة فى تاريخ الخطط هى عهد الحملة الفرنسية (١٢١٣ — ١٢١٦ هـ) (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) . وهى فى تاريخ مصر الحد الفصل بين العصر التركى ، عصر الركود والهدم والتخريب ؛ وبين العصر الحديث ، عصر النهضة والإنشاء والتجديد . ولدينا عن الخطط فى هـذه المرحلة أثران كبيران فى منتهى الأهمية هما : تاريخ الجبرتى المسمى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ، وكتاب « وصف مصر أو خطط مصر » (Description de L'Egypte) ، الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية .

أما الأثر الأول ، وهو «عجائب الآثار» فليس تاريخا للخطط فى ذاتها ؛ وإنما هو تاريخ عام لمصر منذ سنة ١١٠٦ الى سنة ١٢٣٦ هـ (١٦٩٥ — ١٨٢١ م) . ومؤلفه

---

(١) وقد ذكر الاسم فى فهرس «جوتا» كما يلى : «أحمد الحنفى أبو المعروف البوح» ، ولكن الظاهر أن هنالك خطأ مطبعيا وأن الاسم كما قدمنا .

(٢) راجع فهرس المخطوطات الشرقية لمكتبة جوتا :

Die Orientalischen Handschriften der Herzoglichen Bibliothek zu Gotha, von Dr. W. Pertsch (Band III. Nr 1638).

(٣) نقبنا فى جميع معاجم التراجم ، فلم نظفر بتعريف عن أحمد الحنفى هذا . ولكن الظاهر أنه من كتاب القرن الحادى عشر .

هو عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين الجَبَرْتى ؛ ولد بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٦ م) وتوفى بها سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) . ودرس فى الأزهر، وبرع فى التاريخ والأدب . ولما غزا الفرنسيون مصر، عنى الجبرتى بتتبع حوادث هذا الفتح عناية عظيمة، وساعده على تدوينها وتحقيقها اتصاله بالجهات الرسمية يومئذ، وتعيينه عضوا فى الديوان العام الذى أنشأه الفرنسيون بالقاهرة، للاستعانة به على تهدئة الأحوال وضبط النظام[1] . وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن قيمة مجهود الجبرتى التاريخى، وأهميته كوثيقة فريدة فى تاريخ مصر السياسى والاجتماعى فى العصر الذى يعنى به، ولكنا نتحدث فقط عن علاقته بتاريخ الخطط . فالجبرتى يتناول فى مؤلفه تاريخ مصر قبيل الفتح الفرنسى وفى أثنائه ثم من بعده، حتى سنة ١٢٣٦ هـ، بطريقة الحوليات واليوميات، وفى إفاضة وتفاصيل ممتعة؛ ويجعل تعيين المواقع والأماكن ظاهرة واضحة فى روايته ، فلا يورد حادثا من حوادث الحرب أو الثورة ، أو المواكب والحفلات العامة، ولا سيما فى القاهرة، إلا قرنه بتحديد الأماكن والمواقع من شوارع وميادين ودروب ومنازل، بحيث نستطيع خلال روايته أن نصور معالم القاهرة فى عصره جلية واضحة، وأن نتعرف بالمقارنة فى خططها وأحيائها المعاصرة، على كثير من خططها وأحيائها منذ قرن ونصف؛ وأن نصل المعالم والمواقع والأسماء المعاصرة، بما كانت عليه فى هذا العهد. كذلك يعنى الجبرتى بالكلام على ما أقيم بالقاهرة خلال العصر الذى يتحدث عنه، من معاهد ومساجد وقصور و بساتين وخطط، وما دثر منها وما استجد ، وما غيرت معالمه؛ وذلك إما خلال بعض الحوادث العامة التى

---

(١) يقول مسيو الكساندر كاردان فى مقدمة القسم الذى ترجمه من تاريخ الجبرتى المسمى « جريدة عبد الرحمن الجبرتى أثناء الاحتلال الفرنسى لمصر» (Journal d' Abdurrahman Gabarti pendant L'Occupation française en Egypte (Paris 1838) إن الجبرتى عين عضوا فى الديوان الأول الذى أنشأه نابليون ، واشترك فيه فعلا، ونال احترام قادة الجيش وكبرائه . (ص ١ و٢) ولكن الجبرتى لا يذكر ذلك عن نفسه فى أخبار هذا الديوان الأول (ج ٣ ص ١١ من الطبعة العادية) ولا فى أخبار الديوان الثانى المعروف بمحكمة القضايا (ج ٣ ص ٢٠) ولكنه عند ذكر أعضاء الديوان الثالث الذى أنشأه الجنرال منو، يشير الى نفسه بكلمة وكاتبه (ج ٣ ص ١٤٤) مما يفيد أنه كان من أعضاء هذا الديوان فقط .

يسردها، أو خلال تراجم الأمراء المماليك أو الترك أو كبراء المصريين الذين يورد تراجمهم[1]؛ ثم يفرد فوق ذلك فصلا خاصا للكلام على ما أحدثه الفرنسيون أيام احتلالهم، فى بعض خطط القاهرة، من محو وتغيير وإنشاء اقتضته الأغراض العسكرية، وما دمر أو أزيل أو شوه من أحيائها ودروبها وأبنيتها[2]. والخلاصة أن الجبرتى يقدم لنا فى سياق روايته، عن خطط مصر القاهرة ومواقعها ومعالمها خلال القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر، صورة واضحة مفصلة؛ هذا عدا ما يورده عن بعض خطط المدن والأقاليم المصرية الأخرى. فأثره من هذه الوجهة ذو أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ الخطط، ومنه نستق آخر الصور وأصدقها عن خطط مصر القاهرة القديمة، وهى الصورة الفاصلة بين قاهرة العصور الوسطى، وقاهرة القرن التاسع عشر.

وأما الأثر الثانى أعنى كتاب وصف مصر أو خطط مصر Description de L'Egypte، الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية فهو من أنفس وأجل الآثار التى وضعت عن مصر: آثارها وخططها وجغرافيتها، وخواصها الطبيعية والعمرانية؛ اشترك فى تأليفه جمهرة العلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة الفرنسية الى مصر؛ ونشأت فكرة وضعه مع مشروع الفتح ذاته، وكان صاحب الفضل الأول فيها نابليون بونابارت نفسه؛ فقد اعتزم أن ينشئ فى مصر عقب الفتح، معهدا علميا يدرس أحوال مصر وحضارتها ومميزاتها وخواصها؛ واختار لتنفيذ مشروعه جماعة من كبار العلماء رافقوا الحملة. وأسست بالقاهرة «أكاديمية» (مجمع علمى) لتعنى بالعلوم والفنون، ولتدرس بالأخص مصر: بلادها وآثارها وهندستها وخططها ومدنها؛ ثم تهيئ لذلك كله رسوما وخرائط[3]. وعكفت هذه الجماعة العلمية على البحث

---

(١) تراجع بعض هذه الروايات عن الخطط والمعالم والابنية — ج (١) ص ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ وج (٢) ص ٥ و ٦ و ٧ و ١١ و ٢٣ وج (٣) ص ١٤٠ و ٢٠٩ و ٢٥٢ و ٣٥١ و ٣٦٣ وج (٤) ص ٧٦ و ٣٠٣ — وكلها وردت خلال الحوادث والوقائع. وراجع أيضا ج (١) ص ١٠٣ و ١١٠ و ١٩٩ و ٤٢٣ وما بعدها وج (٣) ص ١٧٥ — ١٧٩ و ٢٣٠ و ٢٢١ و ٣٤٣ وج (٤) ص ٢٩ و ٩٣ — والاشارات الى الخطط ترد هنا خلال تراجم الأمراء والكبراء.

(٢) راجع هذا الفصل — ج (٣) ص ١٦٧ — ١٧٢.

(٣) مقدمة العلامة فوريه فى كتاب Descrip. de L'Egypte (الطبعة الثانية ج ١ ص ٨ — ١٠).

والدرس مدى الأعوام الثلاثة التى لبثها الاحتلال الفرنسى . فلما جلا الفرنسيون عن مصر، حملوا معهم كل المواد والبحوث التى أعدت الى فرنسا ؛ وهنالك أمر نابليون أن تجمع هذه المواد والبحوث والرسوم والخرائط، وأن تنظم وتطبع على نفقة الحكومة؛ وعهد الى لجنة من ثمانية من العلماء الذين اشتركوا فى العمل هم : برتوليه كونتيه، كوستاز، ديزنييت، فورييه، چيرار، لانكريه، مونج، لتشرف على وضع هذا المؤلّف وتنظيمه وإخراجه . واستمرت هذه اللجنة تعمل أعواما، ومات بعض أعضائها أثناء العمل، واستبدلوا بآخرين من علماء الحملة . وروعى فى تنظيم المؤلف أن تبحث آثار مصر تفصيلا، وأحوالها وقت الفتح الفرنسى، وجغرافيتها وتاريخها الطبيعى . وعنى رهط من الفنانين بوضع الصور والخرائط ؛ وظهر القسم الأول من هذا الأثر الضخم سنة ١٨٠٩، أعنى بعد ثمانية أعوام من عود الحملة الفرنسية[1] . واشترك فى وضعه ستون من أكابر العلماء فى كل فن[2] ؛ فجاء دائرة معارف شاسعة عن مصر، وآثارها، وحضارتها وفنونها، وخططها وخواصها ؛ وشغلت أربعة وعشرين مجلدا كبيرا تخللها مئات الخرائط والجداول والرسوم . وقد قسم الكتاب الى ثلاثة أقسام كبيرة — : الأول قسم الآثار، وفيه بحوث ضافية عن آثار مصر الغابرة ومعابدها وبرابيها، وقبورها وتماثيلها، وبقاعها الأثرية، مرتبة من الجنوب الى الشمال، ثم الشرق والغرب ؛ واعتبر من الآثار القديمة كل ما كان قبل الفتح الاسلامى ؛ ومن الحديثة كل ما أنشئ بعد الفتح . واستهل هذا القسم بمقدمة تاريخية للعلامة فورييه أتى فيها على خلاصة

---

(١) استمر صدور أجزاء الطبعة الأولى حتى سنة ١٨٢٦ . وفى خلال ذلك تقرر طبع الكتاب مرة ثانية بقرار ملكى من لويس الثامن عشر، وصدرت هذه الطبعة بين سنتى ١٨٢١ و ١٨٢٩ .

(٢) وهذه هى أسماء هؤلاء العلماء — : برتوليه، مونج، كوستاز، دليل، ديزنييت، دفلييه، فورييه چيرار، چولوا، لانكريه، چونار، أندريوسى، بلزاك، بلتست، برنز، بوديه، كارستى، كاستكس، مسيل، دى شبرول، كورابيف، دى كورانسيه، كورديه، كوتيل، ديلابورت، ديكوتيس، دبوا إيميه، دوهانوى، دوترتر، فاقييه، فاى، فيفر، جراتيان، لبير، چوفرى، چاكوتان، چوبير، لدرى، ليسزن، پلجنتى، لنوار، لبير (الكبير)، لبير المهندس، مالوس، مارسل، مارتن، نورى، نوييه، پروتان، رافنو، رايج، ردوتيه، دى روزيير، رربيه، سان چنى، سامويل برنار، سافينى، ڤيار، ڤلوتو، ڤنسان .

قوية لتاريخ مصر منذ عصر طيبة الى وقت الفتح الفرنسى؛ ويليها الكلام على معبد فيلى؛ ثم الكلام على آثار طيبة ودندرة وأبيدوس وهرمو بوليس؛ والفيوم والأهرام ومنف وهليو بوليس؛ ووصف أوراق البردى والآنية والطقوس وغيرها. ويشغل ذلك نحو خمسة مجلدات. والقسم الثانى هو قسم الحالة الحديثة والمعاصرة، الى وقت الفتح الفرنسى؛ ويشتمل على وصف مسهب لبلاد الصعيد والوجه البحرى والقاهرة وبرزخ السويس والاسكندرية، ومقياس النيل منذ الفراعنة، والجغرافية المقارنة؛ ثم الكلام عن الفنون، وبالاخص الموسيقى الشرقية، والموازين والمكاييل والمقاييس العربية؛ والزراعة والصناعة والتجارة؛ ثم عادات مصر الحديثة؛ ويتخلل ذلك ملخص لتاريخ المماليك، وأحوال مصر المالية منذ الفتح العثمانى؛ ونظم الحكومة والملكية والخراج والاوقاف والضرائب؛ والصناعات والجمارك. ويشغل هذا القسم أربعة عشر مجلدا. والقسم الثالث هو قسم الخواص الطبيعية؛ ويتناول الكلام على طبيعية أرض مصر وطبقاتها؛ ونباتها وحيوانها وطيورها وأسماكها؛ وما عرف بها من الحوامض والقلويات والمركبات والجواهر؛ وعن التحنيط وأماكنه؛ وغير ذلك. ويشغل باقى الكتاب. وتشتمل مجموعة الخرائط والرسوم على مئات الخرائط الجغرافية لمصر، ومختلف أجزائها وأقاليمها؛ ومئات الرسوم لآثار مصر القديمة والاسلامية؛ ورسوم مبانيها وحيوانها ونباتها وطيورها وأسماكها؛ وغير ذلك من الأشكال والرسوم.

والخلاصة أن كتاب «وصف مصر»، أعظم مجهود علمى بذل حتى القرن التاسع عشر، للتعريف عن مصر القديمة والحديثة؛ فهو بذلك من أنفس الوثائق، عن تاريخ مصر وخططها وخواصها، وأحوالها الفكرية والاجتماعية؛ وهو حلقة اتصال فريدة قوية بين ماضى مصر وحاضرها؛ وبين صورها ومظاهرها فى أواخر القرن الثامن عشر، وصورها ومظاهرها المعاصرة. ويزيد فى قوته ونفاسته ما احتواه من الخرائط والرسوم، التى تخرج لنا مواقع مصر وآثارها، فى صور مادية حية، هى خير وسيلة للمقارنة والتحقيق.

وقد اعتمد مؤلفو «وصف مصر»، فى وصف الخطط والآثار على بعض مؤرخى مصر الاسلامية، ولاسيما المقريزى، فأكدوا بذلك قيمة مجهوده ونفاسته مرة أخرى.

٤

الخطط التوفيقية

وفى العصر الاخير، وُهبت مصر مؤرخها الفذ، ومحقق خططها، ومجدد معالمها، ومحيى محاسنها وذكرياتها وآثارها، فى شخص المرحوم على باشا مُبَارَك، أحد أركان النهضة العلمية والأدبية المعاصرة. وهو على بن مبارك بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجى. ولد بقرية برنبال الجديدة دقهلية، سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ م). وتوفى بالقاهرة فى ٥ جمادى الاولى سنة ١٣١١ هـ (١٤ نوفمبر ١٨٩٣ م). ونشأ بالقرية فى أسرة فقيرة متواضعة؛ ثم حدثته نفسه، الوثابة الى المعالى منذ الطفولة، أن يهجر القرية الى حيث يستطيع التعلم؛ ففر من أسرته، ونزح الى القاهرة حَدَثا؛ واحتال حتى دخل مدرسة قصر العينى سنة ١٢٥١ هـ. فلما ظهر ذكاؤه أدخل مدرسة المهندسخانة، فأتم دروسها ببراعة وتفوق؛ ثم اختير للبعثة العسكرية مع أنجال الوالى (محمد على)، وأوفد الى باريس؛ فدرس الفنون العسكرية والهندسة الحربية، وعاد الى مصر على أثر وفاة ابراهيم باشا سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م)؛ وعين مدرسا بمدرسة طرا. ثم قلد عدة وظائف ومهامّ مختلفة، منها تنظيم المدارس الأميرية؛ فأبدى فيها جميعا همما فائقة. وفى سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٤ م) أرسل الى تركيا مع الحملة التى أرسلتها مصر، لمساعدة تركيا فى حرب القرم؛ فقضى حينا فى الأناضول وفى بلاد القرم؛ وتعلم التركية، وعانى خطوبا وشدائد. ولبث بعد عودته يتقلب فى مختلف الوظائف حتى عين فى سنة ١٨٧٩ وزيرا للأشغال العمومية فى الوزارة التى رأسها توفيق باشا نجل الخديو. وفى أيام الثورة العُرابية اعتكف حينا فى الريف؛ ثم كان من سفراء العرابيين لدى الخديو للسعى فى الصلح؛ وكان ساخطا على الثورة متوجسا من عواقبها. وبعد انتهاء الثورة دخل الوزارة ثانية فى أواخر سنة ١٨٨٣، وزيرا للأشغال أيضا. ثم عين وزيرا للمعارف فى وزارة رياض باشا سنة ١٨٨٨ (١٣٠٥ هـ)[١]،

---

(١) كتب على باشا مبارك ترجمة حياته مفصلة فى الخطط التوفيقية (ج ٩ ص ٣٧ — ٦١) ومنها لخصنا ما تقدم.

وأبدى فى هذا المنصب همة فائقة ، وأسدى الى التربية والتعليم خدمات جليلة ، وبث الى النهضة الأدبية روحا جديدة؛ وأخرج فى ذلك الحين أثره الكبير «الخطط التوفيقية» ، وهو الذى نعنى به هنا .

ولم يشهد تاريخ الخطط منذ المقريزى ، مجهودا فى الطرافة والإفاضة كمجهود على باشا مبارك . بل لقد جاءت « الخطط التوفيقية » من بعض الوجوه أتم وأوفى من خطط المقريزى ، وكانت مهمة مؤلفها فى كثير من الأحيان أدق وأصعب من مهمة سلفه الكبير؛ فقد كان عليه أن يتتبع تاريخ الخطط فى ظلمات العصر التركى ، وأن يحقق المعالم والمواقع والآثار القديمة ، على ضوء الأطلال الدارسة والمنشآت المحدثة ، التى تفصلها من الماضى قرون طويلة ؛ وقد توسع فى مهمة التعريف عن الخطط والتراجم توسعا عظيما ؛ فتناول بعد القاهرة ، جميع المدن والقرى المصرية بإفاضة ، وترجم كثيرا من أعيانها فى مختلف العصور . ولم تكن لديه مع ذلك سلسلة متصلة من المراجع تصل بين مختلف المراحل والعصور؛ فقد رأينا أن تاريخ الخطط لم يظفر منذ المقريزى ، بتعريف شامل شاف يجمع شتاته بطريق التخصيص والإفاضة ؛ فجاء على مبارك بعد أربعة قرون ونصف ، يضطلع بأعباء هذه المهمة الشاقة ؛ ويقدم الدليل على أن هذا الشغف القديم بإحياء آثار الوطن وذكرياته لم ينطفىء بعدُ فى صدور بنيه ، ويحدوه فى وضع « الخطط التوفيقية » مثل العزم والجلد والبراعة ، التى أجرت قلم المقريزى بوضع أثره الخالد .

والواقع أن على مبارك ، يتخذ خطط المقريزى نقطة بدء ، ويجعل أكبر مهمته أن يجوز بتاريخ الخطط والمعالم والآثار ، هذه المرحلة الطويلة التى تفصل بينه وبين سلفه ، وأن يصل حاضر الخطط بماضيها[1] . وكان تمكنه من الهندسة والجغرافيا والتخطيط (التبوغرافيا) ، يمده بكفاية خاصة للقيام بهذه المهمة . وهو يدلل على هذه المقدرة الخاصة ، فى تحقيق المواقع والمعالم ، ومقارنتها بما كانت عليه فى الماضى ،

---

(١) راجع ديباجة الخطط التوفيقية (ج ١ ص ١) وكذا تقريظ مصحح الكتاب وبيان سبب تأليفه (ج ١ المقدمة ص ٢) .

وفى استخراج صور خطط القاهرة وأحيائها فى العصور الوسطى، من خططها ومعالمها المعاصرة، وفى تقدير الأبعاد والمساحات، وفى استقراء تاريخ المعاهد والآثار المندثرة، من الأطلال والخرائب الدارسة، فى مواضع لا حصر لها من مؤلفه؛ فما أثر أو مسجد أو دار أو خطة أو شارع أو ميدان، فى مصر القاهرة القديمة إلا حقق موقعه وأبعاده فى القاهرة المعاصرة، بوضوح يثير الإعجاب[1] . وهو يرجع فى ذلك دائما الى سلفه العظيم المقريزى، فهو مرشده الأول، ومصدره الذى لا ينضب فى التعريف والابتداء . ثم يرجع فى المراحل المتأخرة الى طائفة كبيرة من المراجع؛ أشار اليها إجمالا فى مقدمته بقوله : «جامعا من كتب العجم والعرب، وما يفضى بمتأمله الى العجب، مراجعا كتب العرب والإفرنج الذين ساحوا تلك الديار، ورسومهم التى بينوا فيها حدود هذه الأقطار، وكذا حجج الأوقاف والأملاك، وماوجد مسطورا على الأحجار والجدران» . وأهم مراجع على مبارك بعد المقريزى، هى نفس الكتب التى أشرنا اليها فى فاتحة هذا الفصل، وهى التى تعرض لنواح من الخطط دون الإلمام بها، وتعتبر مع ذلك حلقات اتصال بين عصورها المختلفة؛ وهى كتاب «تحفة الأحباب» للسخاوى «وقطف الأزهار» لابن أبى السرور البكرى، «وعجائب الآثار» للجبرتى، وكتاب «وصف مصر» لعلماء الحملة الفرنسية؛ يضاف اليها طائفة كبيرة من كتب الوقف وعقود الأملاك، سواء فى محفوظات الحكومة أو محفوظات المساجد والآثار المختلفة، أو لدى الأسر الكبيرة . فمن هذه جميعا استطاع على مبارك أن يصل مراحل الخطط، وأن يحقق المعالم بطريق الاستنباط والتطبيق والمقارنة . أما تراجم الأعيان فقد رجع فيها بالاخص الى خطط المقريزى أيضا، والى ترجمة المستشرق كترمير لكتابه «السلوك فى دول الملوك»[2] ثم الى الصفدى وابن خلكان، والى الضوء اللامع للسخاوى؛

(١) من العبث أن نحيل القارئ فى ذلك على مواضع معينة من الخطط التوفيقية، فهذه المواضع لا حصر لها، ولكنا نحيله على الأجزاء الخمسة الأولى التى تتناول خطط مصر القاهرة فى مختلف العصور، ففى كل موضوع وكل صفحة منها تقريبا، يجد القارئ أثر هذا التحقيق واضحا جليا بعد عبارة ”قلت“ أو ”أقول“ . راجع بالأخص وصف معالم القاهرة المعزية وتحقيقها بتطبيق المعالم المعاصرة (ج ١ ص ٧ — ٢٢) .

(٢) لم يكن النص العربى لكتاب ”السلوك“ للمقريزى موجودا بمصر أيام على مبارك، ولكن ترجمة كترمير (Quatremaire) ظهرت منذ منتصف القرن الماضى بعنوان (L'Histoire des Sultanes =

وخلاصة الأثر للمحبي، وسلك الدرر للمرادى ، وعجائب الآثار للجبرتى وغيرها ؛ وأما تراجم الأعيان المعاصرين فقد رجع فيها اليهم أو الى أسرهم والى معارفه الخاصة . وتستغرق التراجم قسما كبيرا من الخطط التوفيقية، ويكتفى المؤلف فى إيرادها بالنقل المجرد من مصادرها .

وتشغل «الخطط التوفيقية» عشرين جزءًا فى خمسة مجلدات كبيرة تبلغ أكثر من ألفى صفحة من القطع الكبير، فهى بذلك ضعف خطط المقريزى تقريبا . ويتناول الجزء الأول منها تاريخ القاهرة المعزية[1]، ومقارنة أوضاعها القديمة بأوضاعها الحالية ، وتاريخ السلاطين منذ الأيوبيين الى الفتح التركى ، ثم النواب الترك ؛ وتاريخ الحملة الفرنسية، وعصر محمد على، ووصف أحياء القاهرة الحديثة وإحصاءات عن محتوياتها وسكانها . وتتناول الأجزاء الثانى والثالث والرابع، خطط القاهرة وشوارعها ودروبها وحاراتها ، مرتبة على حروف المعجم ، مع تحقيقات كثيرة لأوضاعها القديمة منذ عصر المقريزى . ويتناول الجزء الخامس الكلام على الجوامع؛ والسادس الكلام على المدارس والزوايا والمساجد والخوانق والأسبلة والكنائس، كل ذلك مرتب على حروف المعجم . وتتناول الأجزاء التسعة التالية أعنى من السابع الى الخامس عشر، الكلام على أقاليم الديار المصرية، ومدنها وقراها بإفاضة، وترجمة أعيان كل منها من فقهاء وأدباء وشعراء وأولياء وأكابر، مرتبة على حروف المعجم أيضا . ويتناول الجزء السادس عشر الكلام على الآثار الفرعونية وبخاصة أهرام الجيزة وما حولها؛ والسابع عشر، بعض التراجم والأماكن والوقائع . وخصص الثامن عشر، للكلام على مقياس النيل منذ عصر الفراعنة، وفى مختلف الدول الاسلامية، وأيام الاحتلال الفرنسى ؛ وعيد الشهيد ومهرجان النيل وما تعلق بذلك . ويتناول التاسع عشر

= mameluks أما اليوم فقد حصلت دار الكتب على نسخة فتوغرافية لهذا الكتاب من مخطوط باريس، وهو محفوظ بها برقم ٤٥٥ تاريخ .

(١) يغفل على باشا مبارك الكلام عن الفسطاط وخططها وان كان يتحدث بعد عن آثارها الباقية ، ويقرر أنه يقصد القاهرة أصلا بمباحثه (المقدمة ص ٣) ومن ثم كان الاسم الذى اختاره لكتابه .

الكلام على الرياحات والترع ؛ والعشرون الكلام على النقود وأشكالها وتواريخها وقيمها فى مختلف العصور، وبه جداول للقارنة بين قيمها القديمة وقيم النقد الحديث .

فنرى مما تقدم، أن « الخطط التوفيقية » موسوعة شاسعة فى تاريخ الخطط والآثار المصرية ؛ وتاريخ مصر الإسلامية، وأن مؤلفها العظيم استطاع، بما أوتى من عزم وبراعة وعلم غزير، أن يخرج لمصر المعاصرة ، من غمر الأحقاب البعيدة والآثار المنسية والأطلال الدارسة، صورا فياضة واضحة، من مصر الإسلامية فى مختلف عصورها، وصورا قوية محققة من الخطط القديمة لمصر القاهرة، ومعالمها وأوضاعها الغابرة فى مختلف العصور والدول؛ وأن يصل الحاضر بالماضى فى كثير من المواقع والمواطن . فأثره كأثر سلفه العظيم المقريزى، تحفة نفيسة فى تراث مصر التاريخى، ووثيقة خالدة للأجيال المقبلة ، تبق على كر العصور، مرجعا لاستخراج صور الخطط والآثار الذاهبة ؛ من غمر الماضى يوم يطويها تقلب المدنية، وفعل الحوادث والزمن .

وقد طبعت « الخطط التوفيقية » بأمر الخديو توفيق باشا فى مطبعة بولاق الأميرية، وظهرت أجزاؤها تباعا خلال سنتى ١٣٠٥ و ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ — ٨٩) وعنوانها الكامل هو : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ؛ ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » .

* * *

هذا ما استطعنا أن نقف عليه من آثار مؤرخى الخطط ، ما انتهى الينا منها، وما بدته الحوادث . ولم يوهب بلد إسلامى ما وهبته مصر الاسلامية من تراث فى تاريخ الخطط والآثار . وهذا التراث الذى يعتبر بذاته فنا خاصا من فنون التاريخ، ابتدعه وسما به المؤرخون المصريون، إنما هو جزء صغير فى مجموعة الميراث العظيم، الذى انتهى الينا فى تاريخ مصر الاسلامية من أقلام بنيها الأمجاد، الذين آثروها بعظم جهودهم وثمرات تفكيرهم، إيثاراً ينم عما كانت تضطرم به جوانحهم، من حب للوطن، وشغف بتتبع ذكرياته ومصايره .

الكتاب الثاني

في تاريخ مصر الاسلامية

الفصل الأول

أسطورة تنصر المُعِزّ لدين الله

تردد الكنيسة القبطية المصرية أسطورة قديمة، خلاصتها أن خليفة من أعظم خلفاء الإسلام ، هو المُعِزّ لدين الله الفاطمى ، مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر ، ومنشئ القاهرة عروس الأمصار الاسلامية ، والجامع الأزهر معقل التفكير الإسلامى ومنارته فى العصور الوسطى، قد ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية سرا.

وقد نقل مرقص باشا سميكة هذه الأسطورة فى الفصل الذى كتبه عن «الآثار القبطية» فى تقويم الحكومة المصرية، فذكر فى كلامه عن كنيسة أبى السيفين ما يأتى :

« تأسست فى القرن السادس، ثم هدمت وتجددت فى أيام المعز لدين الله الفاطمى فى القرن العاشر... وبجانبها كنيسة صغيرة بها أحجبة من العصر الفاطمى محلاة بنقوش بارزة تمثل القديسين ومعمودية يقال إن الملك المعز لدين الله تعمد فيها سرا»[1] .

وقدم سميكة باشا لتأييد هذه الأسطورة نصين أوردهما فى مقال نشره بجريدة الأهرام[2]، ردا على ناقديه، وهما :

الأول — عبارة وردت فى كتاب الأستاذ ألفرد بتلرعن كنائس مصر القبطية القديمة هذه ترجمتها : «وفى هذه المعمودية طبقا لأسطورة القسيس (أعنى قسيس الكنيسة) عُمِّد السلطان المعز حينما ارتد الى النصرانية»[3] .

(١) راجع فصل «الآثار القبطية» بقلم مرقص سميكة باشا مؤسس المتحف القبطى — تقويم الحكومة المصرية لسنة ١٩٣١ ص١٧١ .

(٢) جريدة الأهرام الصادرة فى ٨ أغسطس سنة ١٩٣١ (الصفحة الأولى) .

(٣) Butler : The ancient Coptic Churches of Egypt. (I. p. 117) .

والثـاني — عبارة وردت فى كتاب قسيس قبطى عن تاريخ الكنيسة اسمـه «الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة» هذا نصها : «قيل إن المعز بعد حادثة جبل المقطم تخلى عن كرسي الخلافة لابنه العزيز وتنصر ولبس زى الرهبان وقبره الى الآن فى كنيسة أبى سيفين» (١) .

ويضيف سميكة باشا الى ذلك، ان هذه الرواية متواترة منـذ مئات السنين ؛ وفى وسع المعترضين أن يذهبوا الى تلك الكنيسة الأثرية فيدلهم خدامها على هذه المعمودية التى تسمى بعمودية السلطان المعز .

* * *

هذه هى النصوص التى يعتمد عليها سميكة باشا فى تأييد الأسطورة القبطيـة القائلة بتنصير المعز لدين الله. وهى نصوص لا تستحق أن توسم بالأدلة أو المراجع، وليست لها أية قيمة فى الإثبات . غير أننا مع ذلك نتناولها بشىء من الجدل لا على أنها أدلة مؤيدة يجب نقضها، بل على أنها بذاتها قرائن على سخف الرواية ومبلغها من الركاكة والسقم .

فأما النص الأول وهو عبارة الاستاذ بتلر، فقد أوردها نقلا عما سمعه من قسيس كنيسة القـديس جبريل احدى كنائس دير أبى سيفين، ولم يوردها من عنده . واحتاط فى ذكرها فوصفها بأنها أسطورة أو قصة خارقة (legend) . وقـد عاد فأوردها كلها فى مكان آخر طبقا لمـا سمعه من قسيس الكنيســة أثناء زيارته لها ؛ وهذه هى :

«سمع الخليفة المعز، مؤسس القاهرة، كثيرا عن حياة النصارى الروحية، وعن إخلاصهم لنبيهم، وعن الأمور العجيبة التى يحتويها كتابهم المقدس، فأرسل الى كبير النصارى والى كبير شيوخ قومه، وأمر بإجراء تلاوة رسمية أولا لإنجيل المسـيح ثم للقرآن، وبعد أن سمع كلا منهما بعناية شديدة قال بمنتهى العزم : «محمد مفيش» أى

(١) كتاب الخريدة النفيسة — تأليف أحمد رهبان دير السيدة برموس — ج ٢ ص ٢٤٨ (طبعة سنة ١٩٢٤) .

أن محمدا لا شيء أو لا وجود له ؛ وأمر بهدم المسجد الواقع أمام كنيسة الأنبا شنوده ، وأن تبنى مكانه أو توسع كنيسة أبي سيفين . ولا زالت بقايا هذا المسجد موجودة بين الكنيستين . وزاد القسيس على ذلك ، أن الخليفة المعز تنصر ، وعُمِّد بعد ذلك فى مكان التعميد الواقع بجوار كنيسة القديس يوحنا[1] » .

والأستاذ بتلر ينقل هذه القصة كأسطورة (legend) لها علاقة بتاريخ بنيان هـذه الكنيسة لا على أنها واقعة تاريخية لهـا أية قيمة . وهي تنطق بذاتها بسخف ما ورد فيها واستحالته ، ومن السخرية أن تقدّم فى معرض البحث التاريخى والإثبات العلمى .

وأما النص الثـانى الذى ورد فى كتاب «الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة» فلا يخرج أيضـا عن كونه خرافة كنسية ممـا يتناقله القسس . وليست قيمته فى الإثبات أكثر من النص الأول . غير أنه يقدّم الأسطورة بشكل آخر ، ويقرنها بوقائع معينة ، فيقول إن المعز « بعد حادثة المقطم » نزل عن الخلافة لابنه العزيز ، «وتنصر ولبس زى الرهبان ، وقبره الى الآن فى كنيسة أبي سيفين » . ويصح أن نشـير الى حادثة المقطم هذه ، فقد أوردها بتلر أيضا فى بدء كلامه عن تاريخ كنيسة أبي سيفين ، ووصفها كذلك بأنها أسطورة خارقة (legend) وخلاصتها : « أن الخليفة سمع بأنه قد ورد فى إنجيل النصارى أن الانسان اذا كان مؤمنا فانه يستطيع أن ينقل الجبل بكلمة . فأرسل الى إفرايم (أبرام) البطريق وسأله عما اذا كانت هذه القصة العجيبة حقيقية ، فأجابه بالإيجاب فعندئذ قال له : « قم بهذا الامر أمام عينى وإلا سحقت اسم النصرانية ذاته » . فذعر الرهبان وعكفوا على الصلاة فى كنيسة المعلقة ؛ وفى اليوم الثالث رأى البطريق العذراء فى الحلم تشجعه ؛ فقصد فى موكب كبير من النصارى وهم يحملون الأناجيل والصلبان الى المكان المعين حيث كان الخليفة وحاشيته ، وبعد ان صلى البطريق رفعت الأناجيل والصلبان على دخان البخور ، ودعوا جميعا فاهتز

---

(١) Butler : Ibid. (I. p 126)

الجبل وانتقل! وعندئذ وعد المعز «أبرام» بأن يمنحه كل ما طلب وأذن له فى بناء كنيسة أبى سيفين»[1] .

ويستنتج الأستاذ بتلر من مقارنة هذه الأساطير بأن الكنيسة «قد بنيت أيام المعز حوالى سنة ٩٨٠» وهو استنتاج يؤيده أن أبرام السريانى المشار اليه رسم بطريقا فى سنة ٩٧٥ ميلادية، على ما رواه ساويرس أسقف الأشمونين فى كتاب «تاريخ البطاركة»[2] . ولإيراد هذا التاريخ أهمية سنعود اليها .

إذًا يكون الزعم بتنصير المعز لدين الله قائما على أساطير كنسية فقط لا سند لها من التاريخ، وفى ذلك وحده ما يكفينا مؤونة دحضها لأنها منهارة من تلقاء نفسها، ولكن سنرى أيضا أنها تناقض الحقائق التاريخية الثابتة .

* * *

دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جَوْهَر الصّقلى مصر فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليه سنة ٩٦٠ م) . ووضعت خطط القاهرة فى نفس الليلة بأمر الخليفة المعز، كما اختط الجامع الأزهر بعد ذلك بأشهر (جمادى الأولى سنة ٣٥٩) . ولكن المعز لم يقدم الى مصر إلا بعد ذلك بأربعة أعوام، بعد أن أُنشئت المدينة الجديدة وأعدت لنزوله ؛ واستتب النظام وتوطد الملك الجديد ؛ فدخل مصر بأهله وأمواله فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣ م) ولم يطل ملكه بها أكثر من عامين ونصف عام ؛ إذ توفى فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ (٢٠ ديسمبر سنة ٩٧٥ م) .

ولم يكن فتح مصر غنما سياسيا لبنى عُبَيْد (الفاطميين) فقط، بل كان غنما للدعوة الشيعية التى لبث بنو العباس يطاردونها زهاء قرنين ؛ والتى رفع لواءها عُبَيْدُ الله المهدى

---

(١) Butler : Ibid . (p. 124—127)

(٢) " " (p. 125) — ويقول المقريزى فى كلامه عن تاريخ البطاركة القبط إن أبرام (ويسميه افراهام بن زرعة) قد رسم بطريكا فى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) ؛ (الخطط ج ٢ ص ٤٩٥) متفقا بذلك مع الرواية القبطية تقريبا .

جد المعز الأكبر، وبدأت ظفرها السياسي بافتتاح المغرب . فكانت مسألة الإمامة ما تزال سند الفاطميين ؛ وكان مُلْكُهم الجديد بمصر يصطبغ بنفس الصبغة الدينية العميقـة التي حملت لواءهم الى المغرب؛ وكانت ثورة القرامطة التي امتدت يومئذ نحو الشأم تهدد دعوتهم وملكهم فى مصر. فكان عليهم أن يؤيدوا هذه الدعوة، وأن يثبتوا قدسيتها ونقاءها، فيثبتوا بذلك فى وجه المنكرين لنسبتهم وشرعية دعوتهم ؛ أنهم كما يدعون ، سلالة فاطمة ابنة الرسول (صلعم) ، وولد على . ولهذا نرى المعز لدين الله حين مقدمه الاسكندرية يقول لوفد المصريين الذى ذهب للقائه : « إنه لم يسر لازدياد فى ملك ولا رجال ولا سار إلا رغبـة فى الجهاد ونصرة للسلمين » [1] ؛ ونراه فى مواكبه وشعائره الدينية حريصا على مظاهر الإمامة، يبدو إماما دينيا أكثر منه ملكا سياسيا . واليك بعض هذه المظاهر، شاهدها وسجلها الفقيه الحسن بن ابراهيم بن زُولاق المصرى، صديق المعز ، ومؤرخ سيرته :

(١) قال : «لمـا وصل المعز الى قصره خر ساجدا ثم صلى ركعتين ؛ وصلى بصلاته كل من دخل » [2] .

(٢) «فى يوم عرفة نصب المعز الشمسية التى عملها للكعبة على إيوان قصره، وسعتها اثنا عشر شبرا فى اثنى عشر شبرا وأرضها ديباج أحمر... وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق، وفى دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر» [3] .

(٣) ركب المعز يوم الفطر لصلاة العيد الى مصلى القـاهرة « وخطب وأبلغ وأبكى الناس، وكانت خطبته بخضوع وخشوع ... » [4] .

(٤) « غدا المعز للصلاة فى عيد النحر بعساكره وصلى كما ذكر فى صلاة الفطر من القراءة والتكبير وطول الركوع والسجود » [5] .

---

(١) اتعاظ الحنفاء للقريزى — ص ٨٨

(٢) المقريزى عن ابن زولاق — فى اتعاظ الحنفاء ص ٩٠

(٣) المقريزى عن ابن زولاق — فى الخطط — ج ١ ص ٣٨٥

(٤) المقريزى — اتعاظ الحنفاء ص ٩٢

(٥) المقريزى — اتعاظ الحنفاء ص ٩٤

بل كانت الإمامة النبوية صفة رسمية للمعز لدين الله، دُعى له بها فى أول جمعة رسمية أقيمت سنة ٣٥٨ هـ فى الجامع العتيق (جامع عمرو) وجاء فى خطبتها : « اللهم صل على عبدك، ووليك ثمرة النبوة، وسليل العزة الهادية، عبد الله (الامام) معد أبى تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين ... » .

وبلغ من قوة هذه المظاهر أن كان المعز يوسم كالأنبياء بقولهم « عليه السلام » « وصلوات الله عليه » [1] .

وكان نقش خاتم المعز « لتوحيد الاله الصمد دعا الأمام معد ؛ لتوحيد الاله العظيم دعا الامام أبو تميم » .

أوردنا فى هذه الوقائع لنبين كيف كان المعز لدين الله حريصا كل الحرص على صفته الدينية، وعلى مظاهر الإمامة ؛ وكيف كانت الصبغة الدينية العميقة تطبع سياسية الدولة الفاطمية فى مفتتح عهدها بمصر، خصوصا وأن هذه الصبغة، لم تكن بمنجاة من المطاعن . وكان هذا الطعن يتناول صحة نسب العُبيديين الى آل البيت، وشرعية إمامتهم وتعاليمهم ؛ وقد اتخذ قبل بعيد صبغة سياسية رسمية . ففى سنة ٤٠٢ هـ أصدر بلاط بغداد، فى عهد الخليفة القادر بالله، محضرا رسميا موقعا عليه من كبار الفقهاء والقضاة، وبعض الشيعة، يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين خلفاء مصر، وأنهم ليسوا من آل البيت، بل هم ديصانية ينتسبون الى ميمون بن ديصان، بل أنهم كفار زنادقة، وفساق ملاحدة، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء، وادعوا الربوبية [2] . وفى سنة ٤٤٤ هـ، كتب ببغداد محضر آخر يتضمن نفس المطاعن ؛ وزيد فيه أن الفاطميين يرجعون الى أصل يهودى أو مجوسى [3] .

---

(١) المقريزى عن ابن زولاق — الخطط ج ١ ص ٤٧٠ — وابن زولاق نفسه فى ديباجة كتاب أخبار سيبويه المصرى (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥٤ تاريخ) .

(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٤٢ — وأبو الفداء ج ٢ ص ١٤٣

(٣) ابن الأثير — ج ٨ ص ٢٠٥

ومسألة الطعن فى نسب الفاطميين هذه ، والطعن فى شرعية إمامتهم وتعاليمهم، مشهورة فى التاريخ الإسلامى[١] ؛ وهى ليست من موضوعنا ، ولكن لم يقل أحد من خصومهم قط إن المعز لدين الله تعمد أو تنصر . ولو صحت هـذه الأسطورة، بل لو جرت فقط مجرى الاشاعة أو التهمة ، لما غفل عنها العباسيون قط، ولأثبتوها فى مطاعنهم الرسمية، وروجها مؤرخوهم ؛ ولذكرها أكثر من مؤرخ مسلم . ولكن إجماع الرواية الاسلامية على تجاهلها وإغفالها فى كل ما وجه الى الفاطميين من صنوف المطاعن، مما يقطع باختلاقها وتزويرها .

٢

ننتقل بعد ذلك الى منطق الوقائع المادية :

إن الاسطورة القبطيـة لا تحدثنا متى تعمد المعز وتنصر . ولكن قِسّ كتاب «الخريدة النفيسة» يروى أنه أى المعز بعد حادثة جبل المقطم، «تخلى عن الخلافة لابنه العزيز، وتنصر ولبس زى الرهبان» .

وقد رأينا أن حادثة المقطم هذه، قد وقعت، على قول الأسطورة القبطية،وكما يقـرر الأسقف ساويرس فى كتاب « تاريخ البطـاركة » على يد البطـريق أبرام (إفرايم) الذى رسم بطريقا فى سنة ٩٧٥ م[٢] ، وانه ترتب على وقوعها أن أذن المعز للبطريق ببناء كنيسة أبى سيفين، فبنيت «حوالى سنة ٩٨٠ فى عهد المعز»[٣] .ومعنى ذلك أن معجزة الجبل لا بد أن تكون قد وقعت قبل ذلك بقليل أعنى نحو سنة ٩٧٩ أو سـنة ٩٧٨ على الأكثر . فاذا علمنـا نحن أن المعـز لدين الله توفى فى ديسمبر سنة ٩٧٥ (ربيع الثانى سنة ٣٦٥هـ)، تحققنا بطريقة مادية حاسمة كذب الأسطورة الكنسية لأن المعز توفى قبل حدوث المعجزة المزعومة بثلاثة أعوام أو أربعة على الأقل .

---

(١) يراجع فى ذلك بالأخص ابن الأثير – ج ٨ ص ٩ وخطط المقريزى – ج ١ ص ٣٤٨

(٢) Butler: Ibid. (I. p. 125)

(٣) « « . (I. p. 127)

والحقيقة التاريخية هى أن المعز لدين الله أذن للبطريق أبرام بتعمير كنيسة القديسة مرقوريوس والمعلقة بالفسطاط، لا إيمانا بآية معجزة قبطية، ولكن جريا على سياسة التسامح التى اتخذها إزاء رعاياه غير المسلمين . فقد كان يحسن معاملة النصارى واليهود . وكثيرا ما كان ساويرس (سيفروس) اسقف الاشمونين ، يجادل الفقهاء المسلمين فى مسائل الدين[1]، وقد اتخذ المعز وزيرا يهوديا هو يعقوب ابن كلس وأولاه نفوذا عظيما . وقد كان التسامح الدينى سياسة مقررة للاسلام فى معظم الدول الإسلامية . وكان تسامح المعز، تسامح القادر المستنير . ولكن الأساطير الكنسية شاءت أن تجعل منه محاباة مقصودة ، وزيغا من الخليفة القادر الى تعاليم النصرانية . فاذا لقيت الكنيسة خليفة عسوفا متعصبا كالحاكم بأمر الله، يذلها ويسحق عزتها، خرست أساطيرها واكتفت بأن ترميه بالوحشية والتعصب .

تقول الأسطورة الكنسية أيضا، إن المعز بعد أن نزل عن الخلافة لابنه العزيز تنصر وترهب ودفن بكنيسة أبى سيفين . فمتى وقع ذلك ؟ إن المعز لم ينزل عن الخلافة أثناء حياته قط ، بل توفى وهو خليفة ؛ وكان ابنه العزيز ولى عهده حتى وفاته . وكانت وفاته فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ (ديسمبر سنة ٩٧٥ م)، بالقصر الفاطمى، بالقاهرة المعزية، بعد مرض طال عدة أسابيع ؛ فبويع ولده العزيز بالخلافة فى نفس اليوم[2]؛ ودفن المعز لدين الله فى نفس القصر الفاطمى بتربة الزعفران أو التربة المعزية، التى كانت قطعة من القصر الكبير، والتى أودعها المعز يوم قدومه الى مصر توابيت أجداده[3] . أما زعم الأسطورة القبطية أن المعز قد دفن بكنيسة أبى سيفين فانه ينقضها من أساسها ، إذ من ذا الذى تولى دفنه فيها؟ أيكون الذى دفنه بالكنيسة

---

(١) Wuestenfeld : Geschichte der Fatimiden (p. I27)

(٢) هذه هى رواية المقريزى — الخطط ٢ ص ٢٨٤ . ورواية ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٣٦٥) . — ولكن ثمة رواية أخرى تقول إن العزيز كتم موت أبيه حتى عيد النحر (ابن خلدون ٤ ص ٥١ وابن الأثير ٨ ص ٢٢٠ ، وابو الفدا ٢ ص ١١٦) غير أن المستشرق فستنفلد يستبعد هذه الرواية .

(٣) خطط المقريزى — ج ١ ص ٤٠٧ .

ولده العزيز خليفة المسلمين من بعده؟ أم دفنه القبط فيها بالقوة القاهرة؟ وإذا كان المعز قد تنصر سرا ، فكيف يعقل أن يترهب جهرا وأن يلتجىء الى كنيسة قبطية على مقربة من عاصمته ، وعلى مرأى ومسمع من أسرته وقادته وجنده ، بل على مرأى ومسمع من العالم الاسلامى الذى يدعى إمامته؟ الحق أن الأسطورة القبطية تنحط هنا الى حضيض من السخف والتناقض يخلق بالزراية والرثاء .

* * *

وبعد فقد رأينا أن المعز قدم الى مصر من إفريقية فى رمضان سنة ٣٦٢ (يونيه سنة ٩٧٣) وأن خلافته لم تطل أكثر من عامين ونصف عام ، إذ توفى فى ربيع الثانى سنة ٣٦٥ . وكانت ثورة القرامطة تهدد ملكه الجديد فى مصر ودمشق ، وكان القرامطة قد زحفوا على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١ ، بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم ، ونشبت بينهم وبين جيوش المعز بقيادة جوهر الصقلى ، معارك هائلة على مقربة من الخندق (بجوار القاهرة) انتهت بهزيمتهم وارتدادهم نحو الشام . ولكنهم اجتمعوا ثانيـة وقصدوا دمشق وفيها ابن فلاح من قبل المعز ، فافتتحوها واستولوا عليها ، ثم زحفوا ثانية على مصر بقيادة الحسن الأعصم أيضا ، فلقيتهم جيوش المعـز على مقربة من بلبيس ، وهزمتهم وأمعنت فيهم قتلا . وذلك فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ . وكتب المعز الى زعيم القرامطة كتابا طويلا يدعوه فيه الى الطاعة والهداية ، ويشرح فيـه الدعوة الفاطمية وأصولها ؛ وهى وثيقة هامة تدل عباراتها وروحها على مبلغ حرص المعز على التمسك برسوم الإمامة ، وأصول الدين . وهذا مستهلها :

«من عبد الله ووليه وخيرته وصفيه ، معد أبى تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل على أفضل الوصيين ، الى الحسن ابن أحمد ... بسم الله الرحمن الرحيم ، رسـوم النطقا ومذاهب الأئمة والأنبيا ، ومسالك الرسل والأوصيا ، السالف والآنف . منا صلوات الله علينا وعلى آبائنا ... الخ» . والرسالة تفيض بآيات التوحيد ومبادئه ، والتمسك بالقرآن وأحكامه ، وتمجيد النبى (صلعم) وسننه[1] ، فهى بذاتها وثيقة قاطعة ببراءة المعز مما تريد أن تصمه به الأسطورة الكنسية .

(١) يراجع نص هذه الوثيقة بأكمله فى المقريزى — اتعاظ الحنفاء — ص ١٣٤ وما بعدها .

وكان المعز فى تلك الآونة ينتابه المرض من آن لآخر، وهو المرض الذى حمله الى القبر بعد ذلك . ولكنه مع ذلك كان دائم الأهبة لمحاربة القرامطـه . وكان يرقب حوادث الشام ويتوق الى استرداد دمشـق . وكانت الجيوش البيزنطيـة قد عاثت أيضا فى شمال الشام ، فأرسل المعز جيوشه فى جمادى الثانية سـنة ٣٦٤ ، فقاتلت الروم على مقربة من طرابلس وهزمتهم (فى شعبان)، ولكنهم عادوا فهزموا الفاطميين، وتحالفوا مع أفتكين المتغلب على دمشق، فسار اليهم عندئذ ريان مولى المعز ومزق شملهم، وفرح المعز لذلك أيما فرح ، واعتزم أن يشهر الحرب على أفتكين بشـدة . ولكن المرض داهمه فى أوائل سنة ٣٦٥ . وتلقى آخر مظاهر ظفره فى المحرم حيث علم من الحاج القادمين من مكة أن الدعوة الفاطمية قد اعتُنِقت فى الحجاز ، ودُعِى له على منابرها[1] ثم عاجله الموت كما قدمنا، فى ربيع الثانى سنة ٣٦٥

وهكذا أنفق المعز عهده القصير بمصر فى حروب ومشاغل مستمرة، وبالأخص فى الدفاع عن الدعوة الفاطمية الفتية ، وتوطيد دعائمها . فكيف أتيح له مع ذلك أن يتفرغ لمثـل ما ترميه به الأسطورة الكنسية من هـذيان وسخف ؟ وأنى ومتى أتيح له أن يُعجَب بالتعاليم النصرانية، وأن يتذوقها، ثم ينتهى إلى التنصر والترهب والإقامة فى وكر من أوكار القساوسة ؟ وكيف يعقل أن المعز وهو يشتغل بتوطيـد إمامته ودعوته، يضربها بنفسه الضربة القاضية ويقيم الدليل بِرِدّته على كذبها ونفاقها؟ لقد كان للمعز على الأقل من بواعث الحكمة والسياسة القاهرة، إن لم يكن من البواعث الروحية، ما يجعله أشد النـاس استمساكا بإمامته ودعوته وإسلامه . وقد أجمع المؤرخون على أن المعز كان أميرا وافر العقـل والحكمة، وافر العزة والشهامة، مستنير السياسة بعيد النظر، فمن المستحيل عقلا أن يقدم أمير هذه صفاته على التأثر بدجل القساوسة ، والانغماس فى حمأة الأساطير الكنسية، وكيف يقدم منشئ الأزهر فى فتوته على الارتداد فى كهولته ؟ هـذا منطق العقل والعاطفة نضيفه الى منطق الحوادث والتاريخ الحق .

(١) Wuestenfeld : Gesch. der Fatimiden.

وأخيرا كيف يقال إن تردد هذه الأسطورة على ألسنة القسس وخدم الكنيسة دليل يصنح أن يطرح فى ميـدان البحث ؟ فتى كان خدم الكنائس مؤرخين يرجع اليهم ؟ ومتى كانوا بالأخص مؤرخين للاسـلام والمسلمين ؟ على أننا نذكر بهـذه المناسبة أن أساطير هؤلاء القسس قد زعزعت الإيمان فى كثير من مواقف التاريخ المسيحى ذاته . ويكفى أنها أسبلت حجابا كثيفا من الريب على تاريخ قبر المسيح، وجعلت منه أسطورة كنسية، وانتهى البحث ببعض أقطاب المؤرخين النصارى مثل چورج فنلى الى إنكار وجود هذا القبر الذى أنشئ بعد وفاة صاحبه بنحو ثلاثمائة عام، ليكون مبعثا لأساطير القسس، واضحى «القبر المقـدس» رمزا لا حقيقـة[1]. ولكن القسس لا زالوا الى اليوم يعينون لك، فى كنيسـة القيامة ببيت المقـدس وكنيسة بيت لحم، مواضع بعينها شهدها المسيح صبيا ونبيا، وآثارا ارتبطت بتاريخه أو بصلبه . بيد أنك لن تجد مؤرخا بمعنى الكلمة، بل فردا عاديا سليم التفكير، يقف ذرة عند شيء من هذه الأساطير، رغم مايراد أن يسبغ عليها من لون الرسمية والقدسية .

على أن الأستاذ بتلر، وقد أصغى إلى أساطير أولئك القسس فى الكنائس القبطية التى زارها، وخصها بمؤلفه، قد أصدر حكمه فى مقدمة كتابه على قيمة هذه الأساطير وقيمة رواتها، فى تلك الكلمة القوية .

«والواقع أن قليلا جدا من الأقباط يعرفون شيئا عن تاريخهم أو رسوم دينهم، أو يستطيعون تعليـل الأمور التى يشاهدونها فى طقوسهم اليوميـة، فاذا سئلوا عن نقطة تتعلق بالطقوس أجابوا عادة بهز الرأس أو بجواب ظاهر الخطأ ينم عن الجهل»[2] ويكفينا حكم هذا العلامة خاتمة للبحث[3] .

---

(١) G. Finlay : Greece under the Romans; Appendix III : Site of the Holy Sepulchre

(٢) Butler : Ibid. (I. p. 9)

(٣) مما يجدر ذكره، أن مرقص سميكه باشا قد انتهى على أثر العاصفة التى ثارت حول هذه الأسطورة القبطية، الى التسليم بعدم صحتها، والوعد بحذفها من «تقويم» الحكومة فى الطبعة المقبلة . (راجع مقاله فى أهرام ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣١) .

الفصل الثانى

الشدّة العظمى والفناء الكبير

لم تكن الحرب وويلاتها شرا ما تلق مجتمعات العصور الوسطى . فقلما كانت الفترات القليلة التى تنعم فيها بالسلام والدعة تخلو من نكبات، ربما كانت أشدّ من الحرب فى هولها وروعتها . ومصائب العصور الوسطى ترجع الى طبائع هذه العصور، والى نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ فكما أن استمرار الحروب كان مصدره ظمأ التغلب وسيادة الطغيان والإقطاع والفروسية وما اليها، فكذلك المجاعات والأوبئة المختلفة التى هى ظاهرة من ظواهر العصور الوسطى، ترجع بالأخص الى نظم الإنتاج وأساليب الحياة الخاصة، وقصور النظم الاقتصادية والصحية فى هذه العصور .

وسِيَر العصور الوسطى حافلة بأخبار هـذه المجاعات والأوبئة ؛ وكانت الأولى فى كثير من الأحيان مثار الثانية أو كانت ظرفا مشدّدا لها . ويذكر لنا تاريخ مصر طائفة مروعة من هذه المصائب التى كانت تفاجئ المجتمع المصرى، وهو فى فيض من العمران والقوة والحياة، فتحمل اليـه الدمار والذعر والانحلال . وكانت اذا حلّت فكأنها حكم القدر لا سبيل الى رده أو مغالبته، فكانت السلطات العامة تقف أمامها جامدة، والناس يستسلمون الى فتكها فى صبر واستكانة، حتى يزول ويلها بعـد أن يجتاز كل أدواره . وكان تفاقم هـذا الويل نذير الفرج أحيانا، إذ كثيرا ما يكون عصف الوباء بكثرة السكان سببا فى تخفيف أزمة الأقوات . وقد كانت الأوبئة التى أصابت مصر فى العصور الوسطى تقترن غالبا بالمجاعة أو تتلوها ؛ وكان مثارها القحط غالبـا، والحرب أحيانا . وكانت الحرب عاملا غير مباشر أو مقـدمة بعيدة لاحداث الغلاء وندرة الأقوات، وهما غالبا نذير الوباء .

ولم ينج العالم بعد من مصائب الأوبئة ، ولكن تقدم المباحث الطبية والتحوطات الصحية ، يحصل من الوباء فى معظم المجتمعات المتمدنة شبه عاصفة أو سحابة مؤقتة ، ويحصر فتكه فى أضيق الحدود . أما فى العصور الوسطى فكان الوباء ينقض على مجتمعات عزل من كل وسيلة ناجعة للوقاية ، فيعصف بها شر عصف ، ويأخذ كل حظه من الانتشار ، وقد يمتد أعواما قبل أن يخبو عصفه ، فلا يرحل الا عن مجتمع مهيض خائر . وقد عانت مصر مصائب الأوبئة المختلفة فى فترات عدة من تاريخها أيام الدول الإسلامية . وكان من هذه الأوبئة ما استطال عصفه أعواما طويلة ، وكان منها الصاعق الذى ينقض كالسيل فيحمل مئات الألوف فى أسابيع أو أشهر . وربما كان أطول وباء عرفته مصر فى هذه العصور ، وباء سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٣ م) الذى امتد زهاء ثمانية أعوام حتى سنة ٤٥٤ هـ فى أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ؛ وكان وباء عاما نكب جميع الأمم الاسلامية من سمرقند الى مصر ؛ وقد اقترن فى مصر بغلاء وقحط شديدين ، ودونت عن مصائبه قصص مروعة ، حتى قيل ، إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس ؛ وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط ثم أكلوا بعضهم بعضا [1] . وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر « بالشدة العظمى » . وقد بدأت بالغلاء والقحط ، فأرسل المستنصر بالله سنة ٤٤٦ الى قسطنطين التاسع أمبراطور قسطنطينية ، أن يمده بالغلال والأقوات . وتم الاتفاق على ذلك ؛ ولكن الأمبراطور توفى قبل تنفيذه ، فخلفته الأمبراطورة تيودورا ، واشترطت لمعونة مصر شروطا أباها المستنصر ، واشتبك الفريقان فى معارك شديدة فى البر والبحر . وفى سنة ٤٤٧ (١٠٥٥م) ، أرسل المستنصر سفيرا الى تيودورا هو القاضى أبو عبدالله القضاعى ليحاول تسوية الخلاف [2] . ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ؛

---

(١) أورد ابن إياس فى تاريخ مصر (بدائع الزهور) بعض صور هائلة من هذه النكبة (ج ١ ص ٦٠ و ٦١) . ونقل المقريزى عن الجواني — الذى عاش قريبا من هذا العصر — رواية مروعة عن هول الغلاء ، وافتراس الناس بعضهم لبعض (الخطط — ج ١ ص ٣٣٧) .

(٢) المقريزى — الخطط ج ١ ص ٣٣٥ ، وتاريخ مصر لابن ميسر (تحقيق المستشرق ماسيه) فى أخبار سنتى ٤٤٦ و ٤٤٧ هـ .

فأخفق مسعى الصلح ، واستمرت الحرب بين الفريقين ؛ وتفاقمت الشدائد في مصر، واستطال الوباء والغلاء حتى سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) ؛ فذوت عظمة القاهرة، وساد الموت والخراب في كل ناحية . واقترنت « الشدّة العظمى » بفتن وحروب أهلية مزقت مصر كل ممزق، وكادت مصر تذهب فريسة الدمار والفوضى ، لولا أن تداركها جندي عظيم هو بَدْرُ الجمَالي، واستطاع بعزمه وصرامته ودهائه ، أن يعيد اليها النظام والحياة والنضرة . وكان نقص ماء النيل دائما إما نذيرا بحلول هذه الكوارث أو عاملا في اشتدادها وتفاقمها .

وفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) في عصر الملك العادل، عصف بمصر وباء هائل هو الذي شهده عبد اللطيف البغدادي وترك لنا عن مناظره صورا مروعة [1] ؛ وقيل إنه حمل من أهل مصر نحو الثلثين في بضعة أشهر . ومن الصعب أن نصور بلاء المجتمع إبان هذه المحن، أو نصور ما كان يجتاحه فوق أهوال الدمار والموت، من صنوف الإباحة والفوضى، فيروى مثلا أن أهل مصر أكلوا يومئذ كل أنواع الحيوانات ثم أكلوا بعضهم بعضا، وغدا خطف الأشخاص وأكلهم أمرا ذائعا، وقلما كانت يد القانون تمتد يومئذ الى أفراد غدوا كالضواري وتجردوا من عواطفهم البشرية ، وغدا الموت أهون ما يلقون من ضروب الويل . ثم عاد الغلاء والقحط والوباء تفتك بشعب مصر في سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) في عهد الملك العادل كتبغا، فعاد بعودها الدمار والموت ، وعادت صورها ومناظرها المروّعة تبث الفناء والفوضى في مروج مصر النضرة ومجتمعاتها الزاهرة .

بيد أن القدر كان يخبئ لمصر نكبة أعظم وأبعد أثرا ؛ فإنه لم يمض نصف قرن آخر حتى حلّ بها أعظم وباء عرفته الأمم الاسلامية . وكان ذلك في سنة ٧٤٩ هـ أعني سنة ١٣٤٨ م، في عهد السلطان الناصر حسن، وهو تاريخ أعظم نكبة حلت بالعالم كله ؛ فلم يكن الوباء قاصرا على مصر أو غيرها من الأمم الإسلامية، ولكنه

(١) راجع كتاب الافادة والاعتبار لعبد اللطيف (الفصل الثاني من المقالة الثانية) — وابن إياس (ج ١ ص ٧٦) — وقد تناولنا رواية عبد اللطيف بشيء من التفصيل في الفصل التالي .

شمل العالم من أقصاه الى أقصاه . وتعرف هذه النكبة « بالفناء الكبير» . ومن الغريب أنه نفس الاسم الذى يطلق عليها فى التواريخ الإفرنجية The Great Plague وتقول الرواية الغربية إن «الفناء الكبير» قد انتقل الى الغرب من المشرق . ولكن يستحيل علينا أن نحدد مصدر النكبة فى عصر لم تضبط فيه المواصلات، ولم تقم حواجز جمركية دقيقة، ولم تنظم إجراءات الحجر الصحى .

غير أن المرجح أنه حل بايطاليا قبل أن يحل بمصر؛ وهو ما تؤيده مقارنة التواريخ والحوادث فى الروايتين العربية والإفرنجية . فان بوكاشيو الكاتب والشاعر الإيطالى الأكبر، وهو معاصر للنكبة، يقول فى أصل الوباء ما يأتى : « إنه فى سنة ١٣٤٨ ميلادية حل الوباء الفاتك بمدينة فلورنس الزاهرة، أجمل مدن إيطاليا ؛ بعد أن لبث قبل ذلك بأعوام يعصف بالمشرق؛ إما لتفاعل الكواكب والأجرام؛ وأما لغضب الله الحق لما يرتكبه عباده من الخطايا ، ولأنه أرسل عليهم صواعق عقابه، فعصفت بكل من البشر لا حصر لها ،وانتقل الوباء مسرعا من مكان الى مكان حتى حل بالغرب يحمل الرهبة والفزع ... ... وفى نحو بدء الربيع من العام المشار اليه ذاع الداء ذيوعا مروعا؛ وأخذ يفتك بالناس فتكا شنيعا خفيا . » ؛ ويقول فى مكان آخر، إن الوباء استطال من مارس الى يونية سنة ١٣٤٨، فهلك به بين جدران فلورنس وحدها أكثر من مائة ألف إنسان(١) . ويقول سسموندى إن الوباء أتى من المشرق، وطاف بإيطاليا ، ومن ثم بجميع أوربا(٢) . ويعين «دارو» مؤرخ «البندقية» مصدر النكبة فيقول، إن البحارة الجنويين قد حملوه من ضفاف البحر الأسود الى صقلية، فعاث بتوسكانيا ، فشمال ايطاليا ، ثم البندقية ؛ ثم عبر جبال الألب وسرى الى جميع أوربا(٣) .

وتجمع الرواية الإسلامية على أن « الفناء الكبير» قد ظهر بمصر سنة ٧٤٩ ه ؛ ولما كانت غرة المحرم من هذا العام تقابل أول أبريل سنة ١٣٤٨م، فان الوباء

(١) راجع مقدمة بوكاشيو لقصصه الشهيرة — الترجمة الألمانية ؛ طبعة كريل — ج ٢

(٢) History of the Italian Republics (Everyman's) p. 146

(٣) Daru : Histoire de Venise (1. p. 538)

يكون قد حل بمصر ، بعد أن حل بإيطاليا ، لأنه حل بفلورنس حسب رواية معاصره وشاهده بوكاشيو ، فى شهر مارس ؛ وذلك بعد أن حل قبل ذلك بجنوب إيطاليا . ويقول ابن إياس إنه بلغ أشده فى شعبان ورمضان[1] أعنى فى نوفمبر وديسمبر سنة ١٣٤٨ ؛ وهو قد انتهى فى فلورنس حسب رواية بوكاشيو فى شهر يوليه . ولا غرو ، فقد كان بين مصر والجمهوريات الايطالية يومئذ علائق تجارية وثيقة .

وعلى أى حال فان « الفناء الكبير » قد اجتاح أمم الشرق والغرب معا ، فعاث فى الأمم الاسلامية أيما عيث ، وعصف بمجتمعاتها الغنية الآهلة ، وحمل من أبنائها مئات الألوف . وسرى الى جميع الأمم الأوربية ، وبسط عليها رهبة الدمار والموت ، وحمل من سكانها نحو الثلث فى أشهر قلائل . وكان فتكه وويلاته أشد ظهورا وأعمق أثرا فى مجتمعات ايطاليا ، وبخاصة فى فلورنس التى كانت تنعم يومئذ بحضارة زاهرة ؛ وهنالك أفنى جيوشا برمتها ، وأهلك عددا كبيرا من الأمراء والعظماء والقادة . وقد شهده بوكاشيو من مبدئه الى منتهاه ، وراقب عصفه وبلاءه ؛ وصور لنا هوله وروعته أقوى تصوير . فمن ذلك قوله : « كان الناس يجتنبون بعضهم بعضا ، وقلما يتزاور الأقارب أو لا يتزاورون أبدا ؛ وألقت الكارثة الرعب فى قلوب الناس جميعا ، رجالا ونساء ، حتى أن الأخ كان ينبذ أخاه نبذ النواة ، والأخت أخاها ، والمرأة زوجها ؛ بل أروع وابعد عن التصديق أن الآباء والأمهات أضربوا عن رؤية الأبناء أو تعهدهم كأنما ليسوا من ذويهم » ثم يقول : « وكان يعنى بدفن الناس بادئ بدء فيلقى بهم دون احتفال فى أول مقبرة ، فلما اشتد الوباء ، كان الموتى يحملون جماعات ، ويلقون فى الطرق ؛ وقد تموت أسر برمتها فلا يبقى منها إنسان ؛ وأزواج وآباء وأبناء معا ، ويلقى الجميع بلا تمييز فى حفر كبيرة »[2] .

وكان « الفناء الكبير » يجتاح مصر فى نفس الوقت ، ويفتك بأهلها شر فتك . ويروى ابن إياس أنه كان يحمل فى كل يوم من القاهرة وحدها نحو عشرين ألفا ، وأنه

---

(١) ابن إياس ج ١ ص ١٩١

(٢) راجع مقدمة بوكاشيو المشار اليها .

ضُبط عدد من توفوا فى شعبان ورمضان (سنة ٧٤٩ هـ) فكانوا تسعمائة ألف . ويقول المقريزى الذى عاش قريبا من النكبة : إن مصر أصيبت يومئذ بالخراب المطبق ، وأقفر معظم دورها[١]. ولم يكن مجهولا فى مصر أن «الفناء الكبير» يعمل عمله فى الغرب[٢]. ولكنه استطال فى مصر حتى أهلك الحرث والنسل ، وهلكت الأيدى العاملة ؛ فلم تزرع الأرض ، وهلكت الدواب والحيوانات والوحوش أيضا ، حتى لقد شوهد ، على رواية ابن إياس ، «شيء كثير من الوحوش وهى مطروحة فى البرارى وتحت إبطها الطواعين» . وعزّت الأقوات واشتد القحط والبلاء . وخرج أهل مصر الى الصحراء يدعون ربهم أن يرفع عنهم هذه المحنة كما يفعلون فى الاستسقاء ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا ، وشمل الدمار والموت مصر من أقصاها الى أقصاها ، وهبت عليها ريح هائلة من الرهبة والخشوع ، ودب اليها الوهن والاستكانة . وفى هذه المحنة يقول الصّفدى :

لما افترست أصحابى	يا عام تسع وأربعينا
ما كنت والله تسعا	بل كنت سبعا يقينا

ويقول أيضا :

لاتثق بالحياة طرفة عين	فى زمان طاعونه مستطير
فكأن القبور شعلة شمع	والبرايا لها فراش تطير

فكانت نكبة دون هولها كل نكبة . ولكن شعب مصر العريق فى حيويته وحياته لم يلبث بعد كل هذه الآلام أن أفاق من سبات المحن ، و برز من غمار الدمار ، ليستقبل حياة زاهرة جديدة . بيد أن هذه الدعة لم يطل أمدها أكثر من ربع قرن ، ففى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) عاد القحط والوباء ، ولكن بنسبة مخففة ؛ واستطالت الشدائد فى تلك المرة أعواما عديدة ، ومصر تغالب الآلام والفاقة

(١) الخطط — ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) راجع ابن إياس ج ١ ص ١٩١ — حيث يقول : «ومات فيه (أى الطاعون) من الناس مالا يحصى عددهم من مسلم وكافر ، وكانت قوة عمله فى بلاد الافرنج» .

والمرض ، حتى اختتمت القرن الثامن بما حمل اليها من صنوف الأرزاء والمحن ؛ وبدأت منذ أوائل القرن التاسع تستعيد قوتها ورواءها .

* * *

وفى منتصف القرن التاسع أصيبت مصر بعدّة محن جديدة ، ففى أواخر سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) حل بها الوباء، واستمر فى الشدّة فى بدء العام التالى . ويروى السخاوى، وهو معاصر لهذه المحنة تقريبا ، أن عدد الموتى فى القاهرة كان يبلغ فى اليوم مائة وعشرين بضبط ديوان المواريث ، وقد يبلغ مائتين ، وأنه كان يفتك خاصة بالأطفال والرقيق[1] . وهذه ظاهرة غريبة للوباء . ويقول أبو المحاسن ابن تغرى بردى، وهو أيضا معاصر للمحنة، إن عدد الموتى بلغ فى شهر صفر، فى القاهرة وحدها خمسمائة فى كل يوم[2] . ولم تمض بضعة أعوام أخرى حتى عاد الوباء الى مصر فى أواخر سنة ٨٥٢ وأوائل سنة ٨٥٣ هـ . وكان خفيف الوطأة فى تلك المرة، ولكنه يمتاز بأنه حمل الى القبر عددا من أمراء مصر وأعلامها يومئذ. وفى سنة ٨٦٤ أصيبت مصر بالمحنة من جديد. وكان البلاء فى تلك المرة عاما هائلا. وكان فتك الوباء ذريعا وبالأخص فى ضواحى القاهرة وفى أقليمى الشرقية والغربية، وكان يبيد قرى بأسرها . وبلغ عدد الموتى فى القاهرة طبقا لرواية أبى المحاسن معاصر النكبة، فى اليوم الواحد، ستين فى أوّل جمادى الأولى، ومائة وعشرة فى العاشر منه، ومائة وسبعين فى السابع عشر؛ وهذا هو الإحصاء الرسمى الذى أثبتته سجلات المواريث . ويقول المؤرخ أيضا : «وأبلغ من ذلك أن الأمير زين الدين الاستادار ندب جماعة من الناس بأجرة معينة الى ضبط جميع مصليات القاهرة وظواهرها وكان ما حرروه ممن صلى عليه فى هذا اليوم (١٧ جمادى الأولى) ستمائة إنسان. فعلى هذا لاعبرة بذكر التعريف من ديوان المواريث ، غير أن فائدة ذكر التعريف تكون لمعرفة زيادة الوباء ونقصه لا غير. وفى يوم الجمعة عشرين جمادى الأولى كان

---

(١) التبر المسبوك — ص ٨٧ .

(٢) النجوم الزاهرة — فى حوادث سنة ٨٤٨ هـ .

التعريف مائتين وتسعة نفر» . ثم يقول : «وفى يوم الخميس (٢٦) كان عدّة من ورد اسمه فى الديوان من الأموات نحوا من مائتين خمسة وثلاثين، وكان عدّة المضبوط بالمصلات ألفا ومائة وثلاثة وخمسين نفر، وذلك عدا من توفوا فى مصر وبولاق وعدّة ضواح أخر. وزاد التعريف فى الديوان حتى بلغ ثلاثمائة وستة»(١)، واشتدّ الغلاء فى نفس الوقت، وعزت الأقوات، وتفاقمت الأرزاء، وسادت السكينة والعبوس على شعب مصر الصاخب المرح، وارتفع عدد الموتى حتى بلغ فى كل يوم على قول البعض عدّة آلاف فى القاهرة وحدها . ويصف ابن تغرى بردى مناظر هذه المحنة فى عدة نبذ مؤثرة، ويعنى بسرد الأرقام عناية خاصة لكى يثبت لقارئه سير المحنة من ركود وتفاقم؛ ويبدى ارتياحه لشدّة فتك الوباء «بالمماليك الأجلاب» ويعنى بإحصاء من هلك منهم، فيقول إن من مات منهم فى يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة بلغ ستمائة وثلاثين مملوكا «الى لعنة الله وسقره» .

ثم يقول إن جملة من مات فى هذا الوباء من المماليك الإينالية فقط ألفا وأربعمائة، هذا عدا من مات من المماليك السلطانية الذين هم من سائر الطوائف . ويدعو الله «أن يلحق بهم من بقى منهم» . ونستطيع أن نفهم سخط المؤرخ على هذه الطائفة، متى علمنا أنها كانت يومئذ فى مصر من أشدّ عناصر الفساد والجريمة والفوضى، وأنها كانت دائما فى نظر المصريين الخلص موضع الريب والبغض، لأنها كانت تعيش عالة عليهم فى نعماء وترف، وكانت لهم دائمة الوقيعة والكيد .

هذا طرف مما لقيته مجتمعات مصر الزاهرة إبان الدول الإسلامية من خطوب الوباء ومحنه . غير أن مصر كانت دائما تخرج من غمار هذه الخطوب والمحن أشدّ ماتكون رغبة فى الحياة، وأشدّ ماتكون عزما وثقة، فكانت بذلك تقدم الدليل على الدليل، على وفرة ما تتمتع به من حيوية تثير الدهشة والإعجاب .

---

(١) النجوم الزاهرة — فى حوادث سنة ٨٦٤ هـ .

الفصل الثالث

مصر فى فاتحة القرن الثالث عشر
كما يصورها عبداللطيف البغدادى

فى خاتمة القرن السادس من الهجرة ، أو خاتمة القرن الثانى عشر من الميلاد ، حلّ بمصر رحالة غزير العلم والملاحظة ، فأقام بها حقبة من الزمن ، وترك لنا عن مصر وأحوالها فى ذلك الحين أثرا جم النفاسة والغرابة ، هو أحد هذه الآثار القليلة التى تقدم لنا عن مصر الإسلامية ، صورا طريفة صادقة ، يعنى فيها بالظواهر العلمية والاجتماعية والنفسية ، أكثر مما يعنى بالرواية والحوادث المتماثلة .

هذا الرحالة العلامة ، هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادى . وهو مفكر من أعلام عصره ، ولد ببغداد سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ، وبرز فى الطب والفلسفة ، والكلام ، والمنطق ، والبيان معا ؛ ومن ثم كان ذهنه الوضعى ، وكانت عقليته العلمية ، وكانت قوة ملاحظته التى تبدو واضحة فى الأثر الذى خلفه لنا عن مصر . وكانت بغداد فى أواخر القرن السادس قد فقدت رياستها الفكرية منذ بعيد ، فقامت القاهرة ودمشق تتنازعان هذه الرياسة ، وغدتا يومئذ قبلة المفكرين والعلماء من كل صوب ، ولا سيما من المشرق ؛ فحمل عبد اللطيف هذا التيار ، وهبط مصر فى أواخر القرن السادس ، واستقر بها أعواما طويلة ، ودرس خواصها ، وطبائع أهلها ، وآثارها ؛ وانتهى الينا من مشاهداته سفر صغير ، ولكن حافل بنفيس النقد والتصوير والملاحظة .

غادر عبد اللطيف بغداد ، فتى دون الثلاثين من عمره ؛ ومر فى طريقه الى مصر بدمشق ، واتصل بأمرائها وعلمائها ؛ ثم قصد السلطان صلاح الدين ، وكان

معسكرا فى ظاهر عكا يحاول انتزاعها من الصليبيين (سنة ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م)، فرحب به ووصله. والتقى فى بيت المقدس بالقاضى الفاضل، كاتب الديوان، فزوده بوصية الى مصر،ووصل الى القاهرة فى أواخر سنة ٥٨٣ أو أوائل سنة ٥٨٤، فلقى من رجال الحكم كل ترحاب وحفاوة، وأجزلت له الصلات والعطايا. وهنا يقول عبد اللطيف فى ترجمة نفسه: «وأقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ أقرئ الناس، وكان قصدى فى مصر ثلاثة أنفس: ياسين السيمياوى، والرئيس موسى بن ميمون اليهودى، وأبو القاسم الشارعى، وكلهم جاورونى»[1]. ولما انتهى صلاح الدين من محاربة الفرنج، قصده عبد اللطيف فى بيت المقدس، فأحسن مثواه، وأطلق له الأرزاق. فلما توفى صلاح الدين، سار عبد اللطيف مع ولده العزيز الى مصر (سنة ٥٨٩ هـ) ولازمه حتى توفى فى سنة ٥٩٥. قال: «وكانت سيرتى فى هذه المدة أن أقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة، ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار أرجع الى الجامع الأزهر، ويقرئ قوم آخرون،وفى الليل أشتغل مع نفسى. ولم أزل على ذلك الى أن توفى الملك العزيز»[2]. وأقام عبد اللطيف بعد ذلك فى القاهرة أعواما أخرى،أيام الملك المنصور ثم الملك العادل، يشتغل بالتدريس ومزاولة الطب، والتف حوله جمهرة من الأساتذة والطلاب، واشتغل بدرس الخواص النباتية والطبيعية، وشهد الوباء الهائل الذى نكب مصر سنة٥٩٧هـ (١٢٠١م)،وبث فيها الدمار والرهبة،وترك لنا عنه رواية مؤثرة مروعة، كما ترك لنا طائفة من أنفس الملاحظات العلمية والأثرية فى ذلك العصر.

وكتب عبد اللطيف عشرات الكتب والرسائل، فى الطب والفلسفة والنبات والحيوان والكلام والبلاغة،ولكن لم يصلنا منها سوى القليل. أما مؤلفه عن مصر

---

(١) راجع ترجمة ابن أبى أصيبعة لعبد اللطيف فى "مناقب الأطباء"، ففيها يقتبس كثيرا مما ترك عبد اللطيف عن نفسه. وقد نشرت هذه الترجمة مع كتاب عبد اللطيف "الإفادة والاعتبار" (طبع مصر سنة ١٢٨٦ هـ).

(٢) ترجمة بن أبى أصيبعة المذكورة فيما اقتبسه من عبد اللطيف (الافادة والاعتبار — الطبعة المشار اليها ص — ح).

الذى أشرنا اليـه ، فهو أثر صغير اسمه « الإفادة والاعتبـار فى الأمور المشاهـدة والحوادث المعاينـة ، بأرض مصر » وهو بلا ريب ملخص لمؤلف أكبر وضـعه عبـد اللطيف عن مصر ولم يصلنا . وهـذا ما يشير اليـه عبد اللطيف فى مقدّمة « الافادة » حيث يقول : « وبعد فانى لمـا أنهيت كتابى فى أخبار مصر المشتملّ على ثلاثة عشر فصلا ، رأيت أن أفرد منه الحوادث الحاضرة ، والآثار البادية المشاهدة ، إذ كانت أصدق خبرا وأعجب أثرا ، فألفيت ذلك فى فصلين منه بخردتهما ، وجعلتهما مقالتين فى هذا الكتاب ، وزدت ونقصت بحسب ما اقتضته الحال»[١] . كذا يشير عبد اللطيف فى « الافادة » الى كتابه (الكبير) غير مرة[٢] . ويذكر ابن أبى أصيبعة هذا الكتاب ضمن مؤلفات عبد اللطيف ، ويسميه « كتاب أخبار مصر الكبير[٣] » ، وكذا يذكره ابن شاكر الكتبى ، ويسميه بنفس الاسم[٤] . على أننا لم نظفر بهذا الأثر النفيس عن مصر ، ولا نملك اليوم سوى الأثر الصغير أعنى كتاب « الافادة والاعتبار » أو كما يسمى أحيانا « كتاب أخبار مصر الصغير[٥] » .

وقد دوّن عبد اللطيف فى هذا السفر بعض مشاهداته وتحقيقاته لخواص مصر وظواهرها . ولم يعن ، بسيرة أسفاره وتنقلاته وإقامته ، فى وثيقة أراد أن يعرف بهـا عن مصر ، ولكنه آثر أن يتناول ما هو أهم وأجدى فى التعريف عن خواص الطبيعة ، والانسان ، والحيوان ، والنبات . فجاء مؤلفه فى ذلك نوعا من الدراسـة العلمية . ويرجع ذلك بلا ريب الى ذهنية عبـد اللطيف ، فهو كما رأيت رجل علم قبـل كل شىء ، طبيب ونباتى ، يلذ له أن يلاحظ خواص الكائنات من بشرية

---

(١) مقدّمة كتاب الافادة والاعتبار — ص ٤

(٢) مثال ذلك أنه عند الكلام عن زيادة النيـل يقول ما يأتى : وكنا سقنا فى " الكتاب الكبير " سنىّ الأفراط والتفريط منذ الهجرة الى سنتنا هـذه . وأما هنـا (أعنى الافادة) فانا نقص ما شاهدنا على ما شرطنا — الافادة والاعتبار — ص ٤٥

(٣) ترجمة ابن أبى أصيبعة المشار اليها — ص — دى .

(٤) فوات الوفيات — بولاق ج ٢ ص ٧

(٥) ترجمة ابن أبى أصيبعة — ص — دى .

وغيرها . والكتاب قسمان أو مقالتان ؛ يتناول الأول ، خواص مصر العامة وماتختص به من النبات والحيوان ، ثم يتناول آثارها وغريب منشآتها وغريب أطعمتها . و يتناول القسم الثانى ، أحوال النيل وحوادث الو باء الأسود الذى اجتاح مصر فى سنة ٥٩٧ هـ وحوادث العام الذى يليه . وهذه نواح من أحوال مصر تناولها قبل عبد اللطيف و بعده كثير من المؤرخين والكتاب بإسهاب ؛ ولكن عبد اللطيف يتفوّق عليهم جميعا بدقة البحث والوصف ، وصادق التعليل ، والترفع عن تناول الخرافات والسفاسف التى يأباها المنطق العلمى السليم . فهو إذا تكلم عن خواصّ الإقليم أو الحيوان أو النبات فى مصر ، فانه يتكلم عنها من الوجهة العلمية ويدوّن خواصها بأسلوب علمى محض ، وترى روح الدرس والمقارنة والتحليل ماثلة فيما يدوّن . و إذا تكلم عن النيل وعن منابعه ومصبه وزيادته ونقصه ، فانه يتكلم بأسلوب الجغرافى العالم ، و يتجنب فى كل ذلك ما يأباه النقد العلمى فى عصره . فاذا كان الفصل المتعلق بالآثار ، فان عبد اللطيف يبلغ الذروة فى دقة الدرس والمشاهدة ، والإبداع فى الوصف ، والبراعة فى التعليل والملاحظة . ومن الغريب أنه لم يتأثر فى هذا الموقف أيضا ، بما تفيضه الرواية على آثار مصر القديمة من الأساطير التى جرت فى الرواية الإسلامية مجرى التواريخ . بل ليس فى الرواية الإسلامية كلها فى هذا الموضوع ، فصل كالذى يقدّم لنا فيه عبد اللطيف عن آثار الفراعنة فى القرن السادس الهجرى ، صورة من أقوى الصور وأبدعها .

ذلك أن فنون الفراعنة و براعتهم قد أذكت لدى العلامة البغدادى ، روح البحث العلمى قبل أن تثير إعجابه ، فطاف بين الأهرام والمعابد والتماثيل ، وكل التراث الخالد الذى أورثته مصر القديمة لمصر الاسلامية ، وهو يستجمع مواهبه العلمية فى درس هذه الآثار وتعليل وجودها . ولكنه لم يفز بالطبع من أسرارها بشىء ، لأن الكتابة المصرية القديمة لم تكن قد كشفت عن خفائها بعد . غير أنه يخيل اليك أن عبد اللطيف لا يتكلم عنها بلغة القرون الوسطى حينما يبدى إعجابه بها ، وحينما يحاول وصف هندستها وفنها ، فهو يقول عن الأهرام الكبيرة مثلا : « فانك

إذا تجرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها ، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلا هي غاية إمكانها، حتى أنها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم ... »[١]، ويمضي في وصفها بأسلوب هندسي قوي، ويصف نقوشها الهيروغليفية بقوله : « وعلى تلك الحجارة كتابة بالقلم القديم المجهول الذي لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه، وهذه الكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما على الهرمين فقط الى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة » ، ثم يصف تمثال أبي الهول في هذه العبارة الشعرية : « عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما . وسألني بعض الفضلاء ما أعجب ما رأيت ؟ فقلت : تناسب وجه أبي الهول . فان أعضاء وجهه متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة »[٢] . ويفيض بعد ذلك في وصف ما تعرضه التماثيل المصرية الأخرى من إبداع في الفن ودقة في التناسب . ومن وصفه القوي الدقيق نستطيع أن نعرف حالة آثار مصر القديمة في القرن السادس، وأن نقدر مبلغ ما كانت عليه يومئذ من الكثرة والبهاء.

أجل، كانت مصر يومئذ ما تزال غنية بتراثها الأثري القديم، رغم ما أصابه من عسف الفاتحين والحكام المسلمين . وكانت منارة الاسكندرية ، ومعابد الفراعنة وتماثيلهم في مصر القديمة وفي عين شمس وغيرها من الآثار الخالدة ، ما تزال قائمة؛ وكانت الأهرام الكبيرة مغطاة بقشرتها الملونة الحافلة بالنقوش والصور التي ربما كانت تنبئ عن سرها . ونعرف فوق ذلك أن الآثار المصرية القديمة ، سواء فرعونية أو يونانية أو رومانية، كانت أيام الفتح الاسلامي أضعاف ما كانت عليه يوم شهدها العلامة البغدادي، ولكن العرب الذين بهرتهم آثار مصر الخالدة كما بهرتهم حضارتها، لم يحسنوا رعاية هذا التراث المجيد الذي لم تخلفه حضارة أخرى من حضارات الأرض جميعا .

---

(١) الإفادة والاعتبار — ص ٢٤

(٢) الإفادة والاعتبار — ص ٢٧

والعقلية العربية الدينية فى بدء الإسلام دخل كبير فيما أنزله العرب من التخريب والإتلاف بآثار مصر القديمة ، فقد كانت هذه العقلية التى تضطرم حماسة بتعاليم الإسلام ، تبغض الوثنية أشد البغض ، وتعمل على مطاردة آثارها ورموزها وهياكلها أينما وجدت ، فى فارس والشام ومصر وغيرها من البلاد التى افتتحها العرب . وقد دخل العرب مصر متأثرين بهذه العقلية ، فعملوا على تطهير مصر من الاثار الوثنية . ولم تكن هذه الآثار الوثنية سوى ما خلفته دول الفراعنة الباذخة من معابد ومعاهد وأبنية وهياكل وتماثيل . بيد أن هنالك فكرة أخرى كانت تحفز الفاتحين إلى تخريب هذه الآثار ، هى فكرة استخراج الأموال والكنوز . وكانت آثار الفراعنة بما تحتوى من تماثيل ورموز ونقوش خفية ، تومئ دائما اليهم بفكرة النفائس والثروات الدفينة . وقد فازوا فى الواقع باستخراج طائفة كبيرة من التحف والنفائس والحلى النادرة التى أودعها الفراعنة بطن الأرض ؛ ولكنهم لم يحسنوا تقدير قيمها الفنية والأثرية ؛ فكانت يد التخريب ، تنقض تباعا وبلا رأفة على المعابد والتماثيل الفرعونية فتحطمها لتستخرج دفين كنوزها .

وهذه الفكرة هى التى حملت الوليد بن عبد الملك على أن يأمر بإزالة الطبقات العليا لمنارة الاسكندرية ، التى كانت من أبدع الآثار الرومانية اليونانية ، عند ماقيل له إن تحت المنارة كنوزا هائلة . فلما ذهب فى هدمها شوطا كبيرا ولم يعثر بشىء عدل عن إزالتها[١] . وهى التى دفعت المأمون يوم قدومه إلى مصر إلى أن يأمر بنقب الهرم الكبير . ودفعت كثيرا غيرهما من الأمراء والحكام المسلمين فى مصر إلى تحطيم الآثار المصرية القديمة . بل لقد فكر بعضهم فى هدم الأهرام الكبيرة ذاتها للظفر بما قد تبطن من كنوز ونفائس ، وبدئ بتنفيذ هذه الفكرة فعلا فى عهد السلطان صلاح الدين ، فهدم وزيره بهاء الدين قراقوش ، عددا من الأهرام الصغيرة التى كانت حول الأهرام الكبيرة ، وأنشأ بحجارتها قناطر النيل تجاه الفسطاط[٢] . وحدث فى عهد صلاح الدين

(١) المقريزى — الخطط — ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) المقريزى — الخطط ج ١ ص ١٢٠ — فيما كتبه عن الأهرام . وفى هذا الفصل يذكر المقريزى عدة حوادث أخرى من تخريب الآثار الفرعونية (راجع هذا الفصل ج ١ ص ١١١ — ١٢٢) .

أيضا، أن والى الاسكندرية حطم جميع الأعمدة الرومانية البديعة، التى كانت قائمة حول عمود السّوارى، وألقى بها إلى البحر ليرد مراكب الصليبيين عن بر الإسكندرية اذا قصدت اليها، أو ليحمى الميناء من طغيان مياه البحر[(١)]. ولم ينج أبو الهول من الاعتداء أيضا. فقد كان فى حجر التمثال الكبير الذى نراه الآن تمثال صغير وعلى رأسه حوض كبير، فخطر لأحد الأمراء المسلمين فى بدء القرن الثامن أن تحت التمثال كنزا، فسلط عليه عماله فحطموه فلم يجدوا تحته إلا حجارة صلبة[(٢)].

وقد شهد عبد اللطيف البغدادى بنفسه منظرا من مناظر هذا التخريب المعيب، فرأى العمال يحاولون هدم الهرم الصغير. وكان الملك العزيز قد فكر فى هدم الأهرام أيضا[(٣)]. فحشد اليها الصناع والنقابين فى سنة ٥٩٣هـ. واستمرت أعمال الهدم حينا. وهنا يثور العلامة البغدادى لهذا المنظر فيصف إقدام العزيز على تنفيذ الفكرة فى قوله، أن «سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر. وهو ثالثة الأثافى» ويحمل عبد اللطيف على فكرة تخريب الآثار حملة مرة، وينعَى بلهجة مؤثرة على المسلمين هذه السياسة الحمقاء فيقول: «وما زالت الملوك تراعى بقايا هذه الآثار وتمنع من العيث فيها والعبث بها، وإن كانوا أعداء لأربابها. وذلك لمصالح، منها لتبقى تاريخا يتنبه بها على الأحقاب. ومنها أنها تكون شاهدة للكتب المنزلة. فان القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها. ففى روايتها خبر الخبر وتصديق الأثر. ومنها أنها تدل على شىء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم، وغير ذلك. وهذا كله مما تشتاق النفس الى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه. وأما فى زمننا هذا فترك الناس سدى، وسرحوا همـلا، فتحركوا بحسب أهوائهم، وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم. فلما رأوا آثارا هائلة راعهم منظرها، وظنوا ظن السوء بمخبرها. وكان جل انصراف ظنونهم إلى معشوقهم وأجل الأشياء فى قلوبهم، وهو الدينار، فهم كما قيل:

وكل شىء رآه ظنـه قدحا   وكل شخص رآه ظنه السّاقى

(١) المقريزى — الخطط — ج ١ ص ١٥٩
(٢) « — « — ج ١ ص ١٢٣
(٣) الإفادة والاعتبار — ص ٢٥ و٢٦. وكذلك المقريزى — الخطط — ج ١ ص ١٢١

فهم يحسبون كل علَم يلوح لهم أنه علم على مطلب ، وكل شق مفطور فى جبل أنه يفضى الى كنز ، وكل صنم عظيم أنه حافظ لمـال تحت قدميـه ، فصاروا يعملون الحيلة فى تخريبه ، ويبالغون فى تهديمه ، ويفسدون صور الأصنام إفساد من يرجو عندها المـال ، ويخاف منها التلف ، وينقبون الأحجـار نقب من لا يتمارى أنها صناديق مقفلة على ذخائر ، ويسربون فى فطور الجبـال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها[1] » .

وفى هذه الحمـلة التى أملتها روعة الآثار المصرية القديمـة على عبد اللطيف ، وأملتها بالأخص حماقة المعتدين على هذه الآثار ، فكرة نبيلة فى تقدير التراث الأثرى والفنى ، يندر أن تعثر بها فى التواريخ الإسلامية ؛ بل هى النزعة العلمية تثور إشفاقا على مادتها النفيسة التى ترى أنها تنبئ عن أسرار المـاضى وحضاراته .

٢

يختتم عبد اللطيف البغدادى مشاهداته عن مصر برواية ضافية ، محزنة مروّعة[2] ، عن النكبة التى نزلت بمصر فى سـنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) ، وهى ذلك القحط الهائل وما اقترن به من و باء صاعق أهلك الحرث والنسل ؛ وغادر مصر أعواما قبرا شاسعا ، وقاعا صفصفا . ولهذه الرواية أهمية خاصة ، لأنها يمكن أن تتخذ نموذجا لمناظر هذا النوع من المحن ، التى نكبت مصر الإسلامية خلال عصورها الزاهرة مرارا وتكرارا .

يقول عبد اللطيف فى بدء روايته ما يأتى : « ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل ، وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد ، وأشعر أهلها البـلاء ، وهرجوا من خوف الجوع ، وانضوى أهـل السودان والريف الى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرّقوا فى البلاد أيدى سـبا ، ومزقوا كل ممزق ؛ ودخل الى القاهرة منهم خلق عظيم ، واشتد بهم

(١) الافادة والاعتبار — ص ٣٤ .

(٢) الافادة والاعتبار — ص ٤٩ وما بعدها .

الجوع ووقع فيهم الموت ... واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ، ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار بنى آدم ؛ فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل .

« ورأيت صغيرا مشويا فى قفة وقد أحضر الى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما » .

« ووجد فى رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل وبقى قفصا...ورأيت امرأة مشججة يسحبها الرعاع فى السوق، وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها، ومقبلون على شؤونهم، لم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره، فعاد تعجبى منهم أشد ، وما ذلك إلا لكثرة تكرره على إحساسهم حتى صار فى حكم المألوف ... » .

« ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا وقد أُخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه ...» .

«ولقد أحرق بمصر خاصة فى أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة، فرأيت امرأة قد أحضرت الى الوالى وفى عنقها طفل مشوى، فضربت أكثر من مائتى سوط على أن تقر فلا تحير جوابا بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت على مكان» .

« ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى تفانى أكثرهم ، ودخل فى ذلك جماعة من المياسير والمساتير منهم من يفعله حاجة ومنهم من يفعله استطابة » .

« وظهر من هؤلاء الخبثاء من يتصيد الناس بأصناف الحبائل...وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابنى ... » .

ويمضى عبد اللطيف فى سرد طائفة كثيرة من هذه الحوادث الهائلة ثم يقول :

« ولو أخذنا نقتص كل ما نرى ونسمع لوقعنا فى التهمة أو فى الهذر، وجميع ماحكيناه

مما شاهدناه لم نتقصده، ولا تتبعنا مظانه، وانما هو شيء صادفناه اتفاقا، بل كثيرا ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره » .

ونعرف من رواية عبد اللطيف، أن الوباء اجتاح يومئذ مصر من أقصاها الى أقصاها، وأن هـذه المناظر المروعة التى يقصها عن مصر القاهرة، وقعت فى جميع المدن والأقاليم الأخرى، وأن الوباء امتدّ الى البلاد المجاورة لمصر ففتك بها أيضا . وكانت شوارع القاهرة ورحابها الفسيحة، وحقولها، كلها يومئذ مقابر مكشوفة، تتكدس فيها آلاف مؤلفة من الجثث . وأما فى الريف، «فان المسافر يمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة، ويجد البيوت مفتحة، وأهلها موتى»[1] . وهكذا كانت النكبة شاملة مروعة، كست مصر ثوب الحداد والدمار[2]، وبثت الى نظمها ومجتمعاتها الانحلال والفوضى، فأطلقت عناصر الشر والافتراس من عقالها، وأهدرت الأموال والحريات، حتى ذاع بيع الأحرار يومئذ ذيوعا كبيرا . ويروى عبد اللطيف أن الجارية الحسناء كانت تعرض بدراهم معـدودة، وأن قد عرض عليه جاريتان مراهقتان بدينار واحد، وأن امرأة سألته أن يشترى ابنتها وكانت دون البلوغ بخمسة دراهم، ثم يقول : « وكثيرا مايترامى النساء والولدان الذين فيهـم صباحة، على النـاس بأن يشـتروهم أو يبيعوهم، وقد استحل ذلك خلق عظيم ؛ ووصـل سبيهم الى العراق وأعماق خراسان » .

وتدفع العلامة البغدادى نزعته العلميـة دائما، فلا ينسى فى غمار هذه المحن والمناظر الهائلة، أن يبحث وأن يدرس، بل تقدم اليه المحنة مادة الدرس ؛ فنراه يطوف بأكداس الموتى، ويدرس أشكال العظام، ويشرح لتلاميذه مسائل التشريح بفحص

---

(١) الافادة والاعتبار — ص ٥٣

(٢) يقدر عبد اللطيف عدد الذين افترسهم الوباء فى القاهرة وحدها فى مدة اثنين وعشرين شهرا ابتداء من شهر شوال سنة ٥٩٦ الى رجب سنة ٥٩٨، ممن دخلوا تحت الإحصاء بمائة ألف وأحد عشر ألفا، ثم يقول : « وهذا مع كثرته نزر فى جنب الذين هلكوا فى دورهم وفى أطراف المدينـة وأصول الحيطان، وجميع ذلك نزر فى جنب من هلك بمصر وما تاخمها، وجميع ذلك نزر فى جنب من أكل فى البلدين، وجميع ذلك نزر جدا فى جنب من هلك وأكل فى سائر البلاد والنواحى والطرقات » .

الجثث والعظام التى غصت بهـا ميادين القاهرة، ويقارن التطبيق بالنظر، ويرى هذه التجارب أصدق وأجدى من شروح جالينوس[(١)] .

وسلخ عبد اللطيف أيام هذه الخطوب كلها بمصر وبقى بها حتى سـنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥م)؛ ثم نزح الى بيت المقدس، فالشام يسبقه صيته، واشتغل حينا فى دمشق بالتدريس والطب؛ ثم قصد الى بلاد الروم (الأناضول)؛ واتصل بأمير «أرزنجان» علاء الدين داود بن بهرام؛ ونال لديه حظوة، وألف باسمه عدة كتب ورسائل؛ وبعد أن تجول حينا فى بلاد الروم، آب الى وطنه بعد طول الغياب؛ وتوفى بعدئذ بقليل فى بغداد فى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢م)، وهو شيخ يجاوز الرابعة والسبعين[(٢)] .

ودوّن عبد اللطيف ما دوّن فى كتاب «الافادة والاعتبار» ملخصا من كتابه «الكبير» عن مصر، فى أواخر سنة ٦٠٣هـ ببيت المقدس[(٣)]، على أثر مغادرته لمصر؛ ورفع ما دونه من مشاهداته الى سلطان مصر — الملك العـادل — «لئلا ينطوى عن العلوم الشريفة شىء من أخبار بلاده وإن تراخت، أو يخفى بعض أحوال رعاياه وإن تناءت[(٤)]»؛ وهى مشاهدات تسمو كثيرا فوق الرواية والمشاهدات العادية، لأنها ثمرة عقلية علميـة متينة، تغلب أصول العلم الصحيح على الاساطير والرواية المجردة. ومن ثم كانت نفاسة الصور التى يتركها لنا علّامة بغداد ورحالتها عن مصر فى فاتحة القرن الثالث عشر[(٥)] .

---

(١) الإفادة والاعتبار — ص ٦١ — ٦٢

(٢) فوات الوفيات — ج ٢ ص ٧٠ وترجمة ابن أبى أصيبعة لعبد اللطيف — فى الإفادة — (ص حـ — ط) .

(٣) ترجمة ابن أبى أصيبعة — ص (د ى) — وفى النص الذى نشره المستشرق رايت، فى ختام الرسالة، يقول عبد اللطيف، إنه كتب مشاهداته بالقاهرة فى رمضان سنة ٦٠٠ هـ .

(٤) ديباجة الافادة والاعتبار — ص ٥

(٥) أثارت مشاهدات عبد اللطيف عن مصر اهتمام البحث الحديث منذ بعيد، فترجمت الى اللاتينية، ونشرت مقرونة بالنص العربى باكسفورد سنـة ١٨٠٠ بعنـاية المستشرق يوسف رايت . وكذلك طبعت بمصر سنة ١٢٨٦ هـ، وهى الطبعة التى نشير اليها هنا .

الفصل الرابع

الحـــرب الصليبية الرابعـــة
فى مذكرات ڤيل هاردوان

تملأ سير الحروب الصليبية فى الآداب العربيـة والفرنجية أسفارا مستفيضة . ولكن بينما تميل الرواية العربية الى التعميم والإجمال إذا بالرواية الفرنجية تميل أحيانا الى التخصيص والإفاضة؛ وبينما تفيض الرواية العربية فى تفاصيل الناحية الإسلامية من هـذه الحوادث ، إذا بالرواية الفرنجية تفيض فى ناحيتها النصرانية . وقد تُطبع هـذه الرواية أو تلك بما تميزت به العصور الصليبية من المؤثرات الدينية والجنسية العميقة ، فتسبغ بذلك على الحوادث والبواعث ألوانا خادعة . على أن كلتيهـما فى الواقع يجب أن تعتبر متممة للأخرى إذا أردنا أن نستخرج من سير الحوادث الصليبية أصدق صورها .

ويتخذ هذا الميل الى التخصيص فى الرواية الفرنجية، صور المذكرات الخاصة؛ وهى التى يعنى بتدوينها عادة سيد أو فارس قدر له أن يخوض غمار المعارك التى يسرد تفاصيلها . وأشهر هذه المذكرات ما كتبه ده چوانڤيل (De Joinville) مؤرخ لويس التاسع عن الحرب الصليبية السابعة، وڤيل هاردوان (Ville-Hardouin) عن الحرب الصليبية الرابعـة . وقد عرضنا من قبل الى مذكرات ده چوانڤيل ، وسيرته الخاصة ، ومنزلة روايته من تاريخ الحروب الصليبية ، وما تميزت به هـذه الرواية من ضبط ودقة ، وإن لم تخـل فى بعض المواطن من الإغراق والتحامل[1] .

---

(١) راجع الفصل السابع من كتابنا «مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام» .

ونعرض فى هذا الفصل الى مذكرات ڤيل هاردوان التى نعتقد أيضا أنها وثيقة خطيرة فى الحروب الصليبية رغم كونها لاتتناول الناحية الإسلامية من الحوادث . ذلك أن ڤيل هاردوان يقص سيرة الحملة الصليبية الرابعة التى لم تجاوز مياه البوسفور ، والتى استبدلت لقـاء المسلمين فى الشام ومصر ، بالتدخل فى حوادث الدولة البيزنطية ، وانتهت بالبقـاء فى قسطنطينية وتأسيس مملكة لاتينية صليبية ، لبثت هنالك زهاء ستين عاما . فهى ليست صليبية بالمعنى الصحيح ، ولكنها نشأت صليبية ، ولم تجهز إلا لإنقاذ بيت المقدس من قبضة الإسلام ، وإعادة فلسطين والشام ، الى حوزة النصرانية ، ولكن تيارا لحوادث حال بينها و بين هذه الغاية ودفع بها الى ميدان لم تكن تحلم بالنزول اليه .

على أن مذكرات ڤيل هاردوان تلق كبير ضياء على تاريخ الحروب الصليبية عامة بما تكشف من خواص الحملات الصليبية وأسرارها وحقائقها ؛ وتقدم الينا صورا واضحة من الظروف التى كانت تحشد فى مهادها هذه الحملات ، والعوامل القوية المغرية التى كان الأمراء والسادة يلجأون اليها للتأثير فى الجند والكافة ، وجمعهم تحت لواء الحروب «المقدسة» . وأهم من ذلك أنها تكشف عن طرف من البواعث والغايات والأهواء التى كانت هى الغالبة فى حشد هذه الحملات وتوجيهها الى المشرق . نعم إن ڤيل هاردوان لا يقول لنا إن حرص الكنيسة على سيادتها الزمنية ، وعملها على تمكين سيادتها باسم الدين بين أمراء النصرانية ، وتحويل أولئك الأمراء عن مناهضتها ومقاومة عدوانها على سلطانهم ، ثم اضطرام أولئك الأمراء بإحراز السلطان والثروة فى بلاد المشرق ، كانت هى العوامل الأولى والغالبة فى تحريك هذه الحملات البربرية على الإسلام ؛ وإن إنقاذ قبر المسيح ومهاد النصرانية من قبضة الإسـلام ، لم يكن إلا حجة ظاهرة تخلب ألباب المؤمنين من البسطاء والكافة — لم يقل لنا ڤيل هاردوان بالطبع شيئا من ذلك ، فهو كمعظم الرواة والمؤرخين الفرنج ، يصر على تأكيد العوامل الدينية ، وتنزيه الغايات الصليبية ، ولكن الحوادث التى يسردها تنطق قبل غيرها بما كانت تخفيه الكنيسة ، ويخفيه الأمراء تحت قناع الدعوة الصليبية ، من البواعث والغايات .

كانت الكنيسة رُوح هـذه الحملة التي ارتدت قبل بعيد الى صدر النصرانية ذاتها، والتي بثت الإضطراب والدمار الى أمم أوربا الجنوبيـة والوسطى ، وكانت بالأخص ضربة شديدة لمنعة الدولة الرومانية الشرقية معقل النصرانية فى شرق أوربا . ولم تكن الصبغة الدينيـة التي أُسبغت على الحروب الصليبية، إلا حجابا يستظل به الأمراء والسادة فى تحريك الدهماء والكافة، فى عصر كانت فيه النزعات والأساطير الدينية ، تفتك بعقول الأفراد والجماعات . ولكن ڤيل هاردوان يحاول فى مذكراته أن يؤكد قدسية الحملة التي يدون حوادثها ، ولونها الصليبي . وقد يكون ذلك حقا فى ظاهر الأمر وبدايته . فقـد بدأت الدعوة الدينيـة اليها كالعادة من البابا — وهو يومئذ انوصان الثالث — ، وحمل رسالتها قس فرنسي متعصب يدعى « فُلك دى نيى »، مثّل نفس الدور الذى مثله بطرس الزاهد، فى تحريك الكافة فى الحرب الصليبية الأولى؛ فنهض فى فرنسا يخطب ويعظ ويحفز المؤمنين الى إنقاذ قبر المسيح؛ وكان الأمراء والسادة الفرنسيون أوّل من لبى الدعوة، ونشط الى تنفيذ المشروع؛ فنادوا فى الأتبـاع والكافة بالحرب الصليبية ، فهرع الى لوائهم آلاف من الحـاجّ المؤمنين، يدفعهم شغف استرداد القبر المقدّس وإنقاذ فلسطين من قبضة الاسلام. وكان فى طليعة أولئك السادة «الكونت تيبو» أمير شمپانيا ؛ والكونت بلدوين أمير فلندر، والمركيز دى مونفرا، وكونت دى بلوا، وكونت دى شارتر، والفارس الأشهر سيمون دى مونفور ، وكثيرون غيرهم . وكان من بينهم الفارس النبيـل «چوفروا دى ڤيل هاردوان» ، الذى غدا فيما بعد مؤرخ الحمـلة ، والذى نعنى بمذكراته . ولم تكن الحملة رسمية ملوكية، لأن ملك فرنسا فيليب أوجست لم يشترك فيها، وإن كان بالطبع يرعاها ويمدّها . وتقرر بعد البحث والمفاوضة ، أن تقصد الحملة الى مصر، المسيطرة على قبر المسيح، خصوصا وقد كانت منذ وفاة صلاح الدين، تجوز صنوفا من الشدائد والمحن ، ويفتك بهـا الوباء والحروب الأهلية . وهكذا أعدّت الحملة، وأسبغ عليها اللون الصليبي، وأسبغت على غايتها القدسيّة . ولكن سرعان ما تفصح الحوادث التي تلت عن وهن هذه الدعوى . ذلك أن الأمراء الصليبيين، قبل أن

يغادروا أرض فرنسا حيث حشدت الحملة، أرسلوا سفراءهم الى البندقيّة يلتمسون منها العون والمحالفة. وكان المؤرخ، أى ڤيل هاردوان، من أولئك السفراء. وكانت البندقية يومئذ دولة بحرية قوية، تملك ناصية الطريق الى المشرق، ولها أسطول قوى يستطيع أن يحمل الصليبيين الى مصر. فلما وصل السفراء الى البندقية، أكرمت وفادتهم، وخطب المؤرخ البنادقة فى ساحة سان مارك، يطلب منهم النجدة «لإنقاذ بيت المقدس» والانتقام «لما لحق المسيح من الإهانة». فلبى البنادقة الدعوة. وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت فيها البندقية بأن تقدم السفن والمؤن للحملة، نظير أموال وعهود معينة. وهنا أيضا، رُسم طريق الحملة الى بيت المقدس. ولكن الجيوش الصليبية ما كادت تصل الى البندقية، حليفتها الجديدة، حتى تغير مجرى الحوادث، وإذا بالصليبيين يخوضون بادئ بدء الى جانب البندقية حربا ضدّ ملك المجر، وينتزعون لها منه ثغرها الشهير «زارا»، ثم إذا بهم يفاوضون «ألِكسيُوس»، المطالب بعرش قسطنطينية، فى استرداد عرشه. وهنا تغيض الفكرة الصليبية من أذهان القادة، ونشهد بدل المعارك المقدّسة فى سهول مصر أو الشأم، فصلا جديدا فى تاريخ الدولة البيزنطية.

ومن الصعب أن نحدّد العوامل الحقيقية التى أفضت الى هذا الانقلاب، وحولت وُجهة الحملة الصليبية الرابعة من بيت المقدس الى القسطنطينية. ولم يتعرض ڤيل هاردوان نفسه الى هذه العوامل، بل يمر عليها بالصمت المطبق، كأن ليس لها وجود، وكأنما الحوادث وحدها هى التى وجهت خطى الصليبيين، دون إرادة ودون تدبير. وقد يثير صمت المؤرخ فى هذا الموطن كثيرا من الريب، وربما كان لنا أن نعتبره مؤرخ الحملة الرسمى، ولسان الأمراء والسادة الذى يدافع عن سياستهم وأعمالهم، وأنه أغضى عمدا عن الخوض فيما عسى أن يكون قد دُبّر فى البندقية من الدسائس والخطط، بين رئيس البندقية (الدوجى) هنرى داندولو، وبين المركيز دى مونفرا زعيم الأمراء وقائد الحملة، لتوجيه الحملة الى تحقيق مطامع للبندقية ومطامع للأمراء. وعلى أى حال فان ڤيل هاردوان يحاول أن يصوّر فكرة التدخل فى شئون الدولة

الرومانية الشرقية، بأنها مفاجأة لم تكن فى حساب أحد قط، ويصفها بأنها «أعجوبة من أعظم الأعاجيب، وأعظم مغامرة سُمع بخبرها» ثم يقص كيف فر الأمير اليونانى ألِكْسيوس من قبضة عمه، الذى اغتصب ملك أبيه وزجه الى ظلام السجن، وكيف أنه كان يومئذ فى ڤيرونا فى طريقه الى زوج أخته فيليب امبراطور ألمانيا، وكيف وقعت المفاوضة بينه وبين الصليبيين وحلفائهم البنادقة على أن يتولوا فتح قسطنطينية وردّه الى عرشه، ويقوم هو من جانبه متى تم ذلك، بدفع تعويض مالى كبير للحلفاء، والعمل على رد الكنيسة اليونانية لحظيرة الكنيسة الرومانية، ومعاونة الصليبيين على افتتاح بيت المقدس؛ وكيف أرسل الصليبيون سفراءهم مع الأمير المنفى الى امبراطور ألمانيا ليؤكدوا معه عقد هذه المعاهدة. ويعتذر ڤيل هاردوان عن إقدام الصليبيين على ذلك بأنه كان ضرورة قاهرة، لأن فريقا من الأمراء كان يعمل على تفرق الكلمة وإحباط الحملة، بحجة اختلالها وقصور أهباتها. فإذا كان الصليبيون قد ارتضوا أولا محالفة البندقية ومعاونتها على فتح زارا، فذلك لأنهم عجزوا عن أداءِ ما فى ذمتهم للبنادقة من المال لقاء نقلهم الى مياه الشام أو مصر، واضطروا الى أدائه بخدمة البنادقة على هذا النحو؛ واذا كانو قد ارتضوا بعد ذلك، التدخل فى شئون الدولة الشرقية فذلك لكى يساعدهم امبراطور القُسطنطينية على غزو الشام وافتتاح بيت المقدس.

هكذا يعتذر ڤيل هاردوان عن سياسة الأمراء الصليبيين. ولاعتذار ڤيل هاردوان قيمته. ذلك أنه كان من سادة الحملة، وكان فى معظم الأحيان من سفراء الأمراء ومفاوضيهم، وكان لرأيه ونفوذه أثر كبير، وكان أخيرا ممن ظفروا بالغنم والرياسة. ويمضى ڤيل هاردون فى سياق روايته فى تأييد مشروع السير الى بيزنطيّة وامتداحه. وقد دبّ الى زعماء الجيش شيء من الخلاف بسببه، ولكن الأكثرية ظفرت بإقراره. فسار الصليبيون الى قسطنطينية.

وكان ذلك فى فاتحة القرن الثالث عشر، فى ربيع سنة ١٢٠٣ م، فنفذ الصليبيون الى مياه البوسفور فوق سفن البنادقة؛ وحاربوا جيش الجالس على عرش قسطنطينية وهو الامبراطور ألِكسيوس الكبير، وهزموه دون صعوبة، وأجلسوا مكانه

حليفهم الكسيوس الصغير وأباه إسحاق . وهنا جاء دور الحلفاء، أعنى الصليبيين والبنادقة، فى طلب الأجر والمثوبة، من الامبراطور الكسيوس وفاء بعهوده . وكان الامراء يطالبونه كل يوم بتنفيذ عهوده من إمدادهم بالمال، ومعاونتهم على اجتياز الأناضول أو البحر الى سوريا أو مصر . ولكن الكسيوس كان ضعيفا قاصر الموارد والأهبة، وكان عرشه يرتجف فوق بركان من المؤامرات والدسائس، ومصيره فى كفتى ميزان؛ فكان يسوف فى الوفاء من يوم الى آخر، ويستمهل الأمراء بعهود ووعود أخرى . والواقع أنه لم تمض على جلوسه أشهر قلائل حتى وثب به نفر من الثوار والخوارج، فنزعوه عرشه، وقتلوه؛ وفر أباه إسحاق . وجلس أحد الخوارج، واسمه مرزوفليس، على عرش القياصرة تحت سمع الصليبيين وبصرهم . وهنا تغير الموقف، وتطورت الحوادث بسرعة، ووثب الصليبيون بالامبراطور الجديد، ونزعوه عرشه، واستولوا على قسطنطينية وقصورها وقلاعها (ابريل سنة ١٢٠٤)، ونادوا بأحد أمرائهم، بلدوين كونت فلاندر، امبراطورا على عرش القياصرة؛ ونشطوا لإخضاع كل مقاومة، والى توطيد العرش الجديد، وتوزيع أسلابه وإقطاعه فيما بينهم . وهنا غاضت الفكرة الصليبية نهائيا، وانتهت الحملة المقدسة الى حملة غازية مرتزقة ناهبة، وألفت فى الدولة الشرقية مسرحا كافيا لجهودها ومطامعها . وتختلف الرواية والجدل فى تفسير هذا الانقلاب؛ فيرى البعض أن الفكرة الصليبية لم تكن منذ البداية سوى قناع وعذر انتحله جماعة الأمراء والسادة الذين غادروا أرض فرنسا فى طلب المغامرة والكسب؛ وينسب البعض الغدر الى البنادقة، فيقول إنهم كانوا على تفاهم مع سلطان مصر على تحويل الحملة عن مقصدها، لمنح ومزايا تجارية تعهدت بها مصر للبندقية[1]، وهذا مانشك فيه كل الشك، فلم تشر الرواية العربية

---

(١) وهذه فى الأصل رواية مؤرخ فرنسى يدعى إرنول Ernoul . وهو يقول فيها «ان صفر الدين (كذا) أخا صلاح الدين، حينما علم أن الصليبيين استأجروا أسطولا من البندقية، أرسل رسله الى البنادقة، يحملون هدايا عظيمة ووعودا بمنح تجارية، ويرجوهم أن يحولوا النصارى عن قصدهم، فقبل البنادقة الرشوة، واستعملوا نفوذهم فى تحقيق هذه الغاية» — وقد عنيت جمعية تاريخ فرنسا، بنشر كتاب إرنول بعنوان : Chroniqne d'Ernoul et de Bernard le Trésorier

قط الى مثل هـذا التفاهم بين مصر والبندقية . والذى نعرفه، هو أن العلائق التجارية كانت وثيقة بين مصر والجمهوريات الايطالية، وخاصة البندقية، وبيزا، وفلورنس (فيرنزا)، وجنوة، وأن البنادقة كانوا يحرصون دائما على صفاء هذه العلائق، لما كانت تحمله اليهم من مغانم ومزايا . على أنه مهما كانت العوامل التى أدت الى هذا التحول فى نيّات الأمراء الصليبيين، فلا ريب أنه ينم لديهم عن عواطف ومطامع دنيوية عميقة، وينم بالأخص عن ضعف البواعث الدينية، ورياء المُثُل الصليبية العليا . ولا غرو فقد كان فى استطاعتهم، بعد أن ظفروا بعرش بيزنطية، وثروتها، أن يسيروا الى مصر، فى منعة وسعة، ولكنهم آثروا المغانم الدنيوية، والتقلب فيما آل اليهم من تراث الدولة الشرقيـة، وفيض نعمائها وثرائها وترفها، فلبثوا فى قسطنطينية نحو جيلين، يتقلبون فى مراتب الجدود والسلطان .

* * *

ولنعد الى ڤيل هاردوان نفسه فنقول، إنه چوفروا دى ڤيل هاردوان، ولد سنة ١١٦٠ م فى مقاطعـة «أوب» . ولا نعرف شيئا عن حداثته وفتوته الأولى، ولا نراه إلا أيام الدعوة الى الحملة الصليبية فى سنة ١١٩٩ . فنراه سيدا ذا مكانة، يؤدى دورا كبيرا فى تجهيز الحملة . ثم نراه أحد السفراء الستة الذين انتدبهم الأمراء لمفاوضة البندقية، ونراه خطيب الصليبيين فى الاجتماع العام الذى عقده الفريقان فى كنيسة سان مارك . ولما توفى الكونت تيبو كبير الأمراء قبل قيام الحملة، كانت كلمة ڤيل هاردوان هى الغالبة فى اختيار خلفه المركيز دى مونفرا . ثم كان ڤيل هاردوان بعد ذلك دائما لسان الأمراء وسفيرهم فى جميـع المواقف الحاسمـة ؛ فهو الذى يعرض شروط الصليبيين على الإمبراطور الكسيوس وأبيه إسحاق بعد جلوسهما، وهو الذى يحمـل اليهما إنذار الصليبيين الأخير . ولما نشب الخلاف بين المركيز دى مونفرا والكونت بلدوين (الذى توج امبراطورا لقسطنطينية) كان ڤيـل هاردوان رسول الصلح بينهما . والخلاصة أنا نرى المؤرخ دائما يتولى معالجة المهام الدقيقة أو الخطرة، ثم نراه فى معارك القسطنطينية، يبدى فى أحرج المواقف شجاعة فائقة . ومع ذلك فان

ڤيل هاردوان يتحدّث عن نفسه فى سياق روايته بتواضع واحتشام، ويذكر نفسه دائماً كغيره فى صيغة الغائب لا فى صيغة المتكلم ، وكثيرا ما تنم عبارته أو روايته عن التقوى والورع، فكثيرا مايؤكد إيمانه بقدسيه الحملة وما حُفت به من رعاية إلهية، وكثيرا ما يحمل بعبارات مرة على ما يرى فيه الخيانة أو الغدر أو النكث أو خرق الخلال الفاضلة، فهو لم يحجم مثلا عن التنديد بسياسة الصليبيين واضطهادهم لليونانيين، وبما ارتكبوا فى قسطنطينية من عيث وفساد .

ولمذكرات ڤيل هاردوان ناحية أخرى من الأهمية، فهى أول تاريخ بالفرنسية يوم كانت هذه اللغة لاتزال تبرز من غمار الرطانة البربرية ، وصاحبها أول مؤرخ فرنسى؛ وهو مع ذلك يستحق كل حمد وإطراء . ذلك أنه استطاع أن يجد لروايته نوعا من التناسق، ولأسلوبه نوعا من الانتظام ، فى حين انه لم يكن لديه ما ينسج على منواله من مذكرات أو تواريخ . ومن الغريب أن ڤيل هاردوان يسرد الحوادث متوالية متعاقبة ، ولا يفوته جانبها المعنوى فى كثير من الأحيان . وأسلوبه ممتع شائق .

وقد بلغ ڤيل هاردوان ذروة الجاه والنفوذ فى قسطنطينية، فاختاره الامبراطور بلدوين «مارشالا» لرومانيا . ثم دخل بعد ذلك فى خدمة الامبراطور هنرى، وقاد أسطوله، وغنم له معارك حملت الامبراطور على أن يقطعه اقليم مسّونوبولى . ولسنا كذلك نعرف كثيرا عن أعوامه الأخيرة. والظاهر أنه عاف حياة الحرب والمغامرة، بعد أن هلك معظم خلّانه فى ساحة النزال، وبعد أن ثقل بأسباب المجد والثروة، فارتد الى قصره فى مسونوبولى يعيش عيشة السكون والعزلة. وهنالك كتب مذكراته التى أسماها «تاريخ سقوط القسطنطينية فى يد الفرنسيين والبنادقة»[1] وفيها ، يسرد كما قدمنا، حوادث الحملة الصليبية الرابعة ،منذ سنة ١٠٩٩ الى سنة ١٢٠٧ م . أما تاريخ

---

(١) ترجمت مذكرات ڤيل هاردوان الى الفرنسية الحديثة تحت عنوان (La Conquête de Constantinople) بقلم مسيو بوشيه . وهنالك تراجم فرنسية أخرى . وترجمت أيضا الى الانكليزية بقلم السير مارز يالس بعنوان (Memoirs of the Crusades) . وهى الترجمة التى رجعنا اليها هنا .

وفاته فليس معــروفا بالضبط ، وانما يظن أنه حوالى ســنة ١٢١٣ . وبذا يكون المؤرخ قد توفى لأعوام قلائل من حياة الدعة والبذخ .

وهكذا نرى أن مذكرات ڤيل هاردوان، وثيقة هامة فى تاريخ الحملات الصليبية، بما تكشف من الظروف والعوامل الحقيقية التى كانت تحشد فى مهادها هذه الحملات، و بما تصور من مظاهرها ومؤثراتها النفسية[1] .

(١) استشرنا فى كتابة هذا الفصل، مذكرات ڤيل هاردوان المشار اليها ؛ وكتاب Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire (الفصل الستون) ؛ وكتاب Daru:Hist. de Venise (الجزء الأول — الكتاب الثالث) .

الفصل الخامس

ابن عربشاه مؤرخ تيمور
وكتابه عجائب المقدور

لم يخص المؤرخون العرب، الترجمة الخاصة بكثير من عنايتهم؛ فهم يميلون عادة الى التعميم، ولهم فى التراجم العامة، معاجم وآثار شاسعة جمة. وتراث العربية لا يخلو مع ذلك من التراجم الشخصية المستفيضة. ولكن هذه المعاجم العامة، والتراجم الخاصة، قلما تعرض الى التحليل والنقد، وأكثر ما تعنى باستيعاب الحوادث مجملة، وذكر المناقب والآثار الشخصية. وهذه ظاهرة الرواية العربية جميعا إذا استثنينا آثار بعض النقدة والمفكرين القلائل. فالفقه التاريخى لم يشغل مكانة كبيرة فى الرواية العربية، ولم يشغل بالأخص مكانة فى الترجمة. ولكن لمحة من التحليل والنقد أخذت تظهر واضحة فى الرواية العربية خلال القرن الثامن الهجرى، ثم نمت وقويت فى القرن التاسع. وظهر أثر هذا المنهج الجديد فى نفس الوقت فى الترجمة، وعنى المؤرخون بالسير الخاصة، ولا سيما سير معاصريهم من الملوك والأمراء والقادة والمفكرين؛ وعنوا بالأخص بنواح من التصوير والتحليل كانت مهملة من قبل. وقد جاز الإسلام فى القرن الثامن مصاير ومحنا عظيمة، فألفى المؤرخون المعاصرون لهذه الحوادث، وأولئك الذين عاشوا قريبا منها فى روعتها وجدتها، مادة غزيرة للتأمل والكتابة. وكان أعظم هذه الحوادث بلا ريب ظهور تيمور الفاتح التترى، فقد هبت بظهوره على الاسلام عاصفة هائلة، ولقى الاسلام على يديه من الانحلال والدمار، ما لقى على يدى سلفيه هولاكو وجنكيزخان؛ ولبثت الأمم الإسلامية من سمرقند الى الشأم تهتز تحت ضرباته زهاء نصف قرن. وكانت غزوات الفاتح

التترى، وما بثه من عوامل الاضطراب والروع، وما شاهده من آيات الفخار والظفر، مادة لتأملات مؤرخ عربى عاش قريبا من هـذا العصر، وعاصر شيوخه، وتقلب فى الأمم التى نكبت على يد تيمور، وقضى شطرا من حياته حيثما سطع طالع تيمور، وتألق نجمه .

هذا المؤرخ هو شِهَابُ الدّين احمد بن محمد بن عبدالله الدّمشقى، الذى عُرف باسم أشهر هو ابن عَرَبْشَاه، والذى أعدّته الأقدار بحق ليكون مترجم الفاتح التترى . وقـد دون ابن عربشاه سيرة تيمور وفتوحاته فى أثر نفيس ممتع هو فى نفس الوقت قطعة من الأدب الرائع والخيال الشائق، ووثيقة تاريخيه هامة؛ بل هو أهم وثيقة فى تاريخ تيمور . وهو نوع من القريض المنثور، يذكرنا أسلوبه وخيـاله بقريض الفروسية والبطولة الغربى، فى العصور الوسطى . وقد أزهر هذا النوع من الأدب التاريخى فى الرواية العربية؛ فكتب التاريخ أدباء وشعراء أقوياء يبرز نثرهم المتين، وسجعهم الممتع، وتصويرهم القوى، على المـادة التاريخية ذاتها . وقدكان ابن عربشاه كاتبا وشاعرا، يبرز فى النثر المتين، فكتب تاريخه الذى أسماه : « عجائب المقدور فى أخبار تيمور» بعبارة مسجعة منمقة، ولكن قوية متناسقة . على أنه كان المؤرخ قبل كل شىء . وربما جنى أسلوبه على متانة بيانه أحيانا . ولكن حرصه على الرواية، وعلى العبارة المســجعة، هو الذى يحمله على مثل هـذا الضعف . على أن ركاكته فى هذه المواطن تبدو فى الغالب مطربة فكهة .

وقد كان ابن عربشاه رجل المهمة التى أخذها على نفسه؛ وكان خير من أداها؛ فلا زالت ترجمته لتيمور أهم المراجع فى تحقيق سيرة هذا الفاتح الكبير . وألفى ابن عربشاه مصادره الوثيقة فى حوادث حياته نفسها؛ وفى المجتمعات التى تقلب فيها والمناصب التى شغلها؛ وفى الجهات الرسمية التى اتصل بها . وقـد ولد فى دمشق سنة ٧٩١هـ (١٣٨٩م) يوم كانت دِمَشْق ما تزال تنافس القاهرة بأعلامها ومفكريها . وكان الفاتح التترى يومئذ قد وصل الى ذروة ظفره . وما كاد المؤرخ يبلغ الرابعة عشرة حتى انقض تيمور كالسيل على بلاد الشام ورفع بها أعلام الخراب الموت، ففرت أسرة

المؤرخ من دمشق قبيل تفاقم الخطوب ، والتجأت حينا الى الأناضول أو مملكة الروم ، فى عهد ملكها بايزيد الأول العثمانى ، وشهدت على ما يظهر ، نكبة هذا الملك على يد تيمور . ولما توفى تيمور ، وهدأت العاصفة التى أثارها فى الأمم الاسلامية ، نزحت أسرة المؤرخ الى بلاد التركستان واستقرت فى سمرقند مبعث تيمور ، ومنبت مجده ، ومهاد بطولته . وهنالك درس المؤرخ على شيوخ هذا العصر وأعلامه ؛ وأتقن التركية والفارسية . وكانت التركستان ما تزال تحت سلطان حفيد لتيمور هو خليل سلطان ؛ وكانت «سمرقند» عاصمة الامبراطورية التترية ، ما زالت تفيض بسير الفاتح العظيم ، وذكريات غزواته ، وأحاديث ظفره ومجده . ففى هذا المجتمع الذى طبعه تيمور بطابعه ، والذى وعى سيره وذكرياته ، عاش ابن عربشاه دهرا . ومن المرجح أن فكرة ترجمته لتيمور قد خطرت له يومئذ ، وأن لم ينفذها إلا بعد ذلك بأعوام طويلة . ولم يغادر المؤرخ هذا المجتمع الحافل بذكريات الفاتح التترى ، إلا ليستقر فى بلاط ترك فيه الفاتح من سيره ذكريات لا تمحى . فقد عاد الى مملكة الروم ، واتصل بملكها السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد الاول ، أسير تيمور وشهيد عسفه ؛ وهنالك وعى الناحية الخصيمة من سير الغزوات التى قام بها تيمور فى تلك الأنحاء ، وتقلد ديوان الإنشاء فى البلاط العثمانى ، لأنه كان كما قدمنا يجيد الفارسية والتركية فضلا عن العربية ، وتولى مكاتبة السلطان العثمانى مع جيرانه من الملوك والأمراء حينا .

وهكذا قدر لابن عربشاه أن يتقلب فى مجتمعات شهدت جدود تيمور وطوالعه ، وأحصت غزواته وفتوحاته ، وفاضت بذكريات سيره وأعماله ؛ وأن يجوز سواد الأمم والبسائط التى كانت مسرحا لوثبات الفاتح التترى وجولاته ؛ وأن يتصل بأوثق المصادر التى وعت أخباره ؛ وأن يسمع الرواية عنه من شيوخ معاصريه ، ومن الجيل الذى اتصل مباشرة بجيله . ومن ثم كان كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور »(١)

(١) ويسمى أحيانا (عجائب المقدور فى نوائب تيمور) ، ولكنا نرجح التسمية الأولى ، لأن المؤرخ لا يستطيع أن يحصى فى سيرة تيمور سوى الظفر والفخار .

من أنفس الوثائق التى دونت عن سيرة تيمور إن لم تكن أنفسها جميعا . وقد عنى المؤرخ بتدوينها، كما يبدو من سياق روايته، فى سنة ٨٤٠ هـ[(١)] . وكان قد اعتزل خدمة البلاط العثمانى، وعاد منذ بعيد الى وطنه، وتبوأ مكانته بين أعلام ذلك العصر، وانقطع للدرس والبحث . وكان عندئذ فى الخمسين من عمره يأخذ من الآداب والعلوم بأوفر قسط، ويقف على دقائق السياسة فى عصره . فدون غزوات الفاتح الكبير بروية الشيوخ وتمحيص المؤرخ الهادىء، ولكن بأسلوب تتجلى فيه حماسة الفتوة . وهو يفتتح كتابه بما ينم عن عميق بغضه لتيمور فيقول فى ديباجته : «وكان من أعجب القضايا، بل من أعظم البلايا ... قصة تيمور، رأس الفساق، الأعرج الدجال، الذى أقام الفتنة شرقا وغربا على ساق، أقبلت الدنيا عليه فتولى، وسعى فى الأرض فأهلك الحرث والنسل، وتيمم حين عمته النجاسة الحكمية صعيد الأرض، فغسل بسيف الطغيان كل ثغر محجل، فتحققت نجاسته بهذا الغسل . أردت أن أذكر منها ما رأيته، وأقص فى ذلك ما رويته، إذ كانت إحدى الكبر وأم العبر»[(٢)] . ولسنا ندهش لتقديم المؤرخ بطل ترجمته الى القارئ على هذا النحو، فقد نشأ ابن عربشاه فى غمار المحن التى أنزلها تيمور بوطنه، وقضى حداثته فى المنفى فرارا من عسفه وطغيانه، ثم أنفق فتوته فى بلاط يحتفظ للفاتح بأشنع الذكريات، وشهد بنفسه ما أنزلته غزوات الفاتح بالأمم الاسلامية من صنوف الدمار والفتن . على أن هذه البغضاء العميقة التى لم يملك المؤرخ نفسه من أن يجيش بها نحو الفاتح فى مستهل كتابه، لم تمنعه من أن يكون المؤرخ المحقق . وهو قد يجيش بها فى سياق روايته فى مواطن كثيرة . ولكن ذلك لا يتعدى مقتضيات البيان والسجع، ولا يشوب سرد الوقائع ذاتها . بل لم تمنعه أن يبدى إعجابه بعزم الفاتح وشجاعته وبراعته العسكرية، وأن يعقد فصلا خاصا لتحليل مواهبه وصفاته البديعة .

---

(١) راجع «عجائب المقدور» (طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) ص ١٣٢ .

(٢) عجائب المقدور — ص ٣

* * *

يفتتح ابن عربشاه ترجمته لتيمور برواية ما قيل فى منشئه وظهوره الأول ، فيسرده كأساطير فقط ، ويصوغه فى قالب القصص الشعرى ، ويعنى بإيضاح سبب عرج الفاتح فى قصة لذيذة يقول فيها : «فدخل (أى تيمور) حائطا من حوائط سجستان قد أوى اليه بعض رعاة الضأن ، فاحتمل منها رأسا وأدبر ، فشعر به الراعى وأبصر ، فأتبعه للحين ، وضربه بسهمين ، أصاب بأحدهما فخذه ، وبالآخر كتفه ، فلله دره ساعدًا ، اذ أبطل بهذا الضرب الموزون نصفه» ؛ ثم يتتبع بعد ذلك طوالع هذا الفتى الجرئ المغامر ؛ مذ بدأ حياته العامة زعيم عصابة ناهبة ، تعيث فى إقليم التركستان الى أن برز قائدا بارعا ، وفاتحا يحمل كل من يصادره من ملوك هذه الأنحاء . ويبدع المؤرخ فى وصف هذا السيل الذى اجتاح الأمم الاسلامية من سمرقند الى الشام فى أعوام قلائل ؛ ويعنى عناية خاصة بغزوات تيمور لبلاد الشام ، وما ارتكبه فيها من عيث وسفك ، وما دار بينه وبين علمائها من الجدل الفقهى[١] . ونعرف أن تيمورلنك انقض بجيوشه على الشام ، وهى يومئذ إحدى الولايات المصرية ، فى أوائل سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) ، واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والعيث والنهب ، ثم اخترق الشام جنوبا الى دمشق ؛ فروعت مصر لهذه الأنباء ؛ وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده ؛ ونزل بدمشق فى جمادى الأولى سنة ٨٠٣ ؛ واشتبك جند مصر مع جند الفاتح فى معارك محلية ثبت فيها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن مؤامرة دبرها نفر من بطانة السلطان لخلعه ، اضطرته للعودة سريعا الى مصر ؛ فترك دمشق لمصيرها وارتد أدراجه ؛ وعندئذ رأى جماعة العلماء والفقهاء الذين كانوا بدمشق — وكان منهم عدة وفدوا من مصر مع السلطان ، ومن بينهم ابن خلدون الفيلسوف والمؤرخ الأشهر — أن يلتمسوا الأمان والصلح من الفاتح ؛ فتظاهر تيمور بإجابة الرجاء ؛ ولكن ذلك لم ينج المدينة من السفك والعيث . على أنه لم يمض شهران حتى اضطر تيمور إلى

---

(١) عجائب المقدور — ص ٨٤ — ١١٢

مغادرة الشام لأسباب وحوادث جرت فى مملكته الشاسعة[١] . ويصور ابن عربشاه مناظر هذه العاصفة التى اجتاحت وطنه فى بيان قوى؛ ويصف لقاء ابن خلدون للفاتح التترى تحت أسوار دمشق حينما ذهب للقائه مع وفد العلماء، فيقول : «وكان مالكى المذهب والمنظر، أصمعى الرواية والخبر، فتوجه معهم (أى العلماء) بعمامة خفيفة، وهيئة ظريفة؛ وبرنس كهو رقيق الحاشية، يشبه من دامس الليل الغاشية؛ فقدّموه بين أيديهم، ورضوا بأقواله وأفعاله عليهم؛ وحين دخلوا عليه، وقفوا بين يديه؛ واستمروا واقفين، وجلين خائفين؛ حتى سمح (أى تيمور) بجلوسهم وتسكين نفوسهم؛ ثم هش اليهم؛ ومر ضاحكا عليهم ... وكان ابن خلدون يصوب نحو تيمور الحدق، فاذا نظر اليه أطرق، واذا ولى عنه رمق ، ثم نادى وقال بصوت عال : يا مولانا الأمير، الحمد لله العلى الكبير؛ لقد شرفت بحضورى ملوك الأنام، وأحييت بتواريخى ما مات لهم من الأيام؛ وشهدت مشارق الأرض ومغاربها ، وخالطت فى كل بقعة أميرها ونائبها؛ ولكن لله المنة اذ امتد بى زمانى ، ومن الله علىّ بأن أحيانى؛ حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة، والمسلك شريعة السلطنة على الطريقة؛ فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف ؛ فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف؛ فاهتز تيمور عجبا، وكاد يرقص طربا، وأقبل يوجه الخطاب اليه، وعول فى ذلك دون الكل عليه، وسأله عن ملوك العرب وأخبارها، وأيامها ودولها وآثارها ... »[٢] .

ويفيض ابن عربشاه أيضا فى وقائع تيمور فى الأناضول، وما أنزله بممالك هذه الأنحاء من مصائب وخطوب[٣] . فإذا كان اصطدام تيمور بالسلطان بايزيد العثمانى فى هضاب أنقرة (٨٠٤هـ — ١٤٠٢م)، ألفيت المؤرخ يبلغ الذروة فى قوة العرض، ودقة الوصف؛ ولا غرو فقد كانت أنقرة قبرا لمجد السلطان الذى خدم المؤرخ ابنه شطرا

(١) ابن اياس — تاريخ مصر — ج ١ ص ٣٢٦ وما بعدها .

(٢) عجائب المقدور — ص ١٠٢ .

(٣) عجائب المقدور ص ١٢٣ وما بعدها .

من حياته . وكان المؤرخ مدى حين من سادة هـذه الهضاب ، التى شهدت فوز الفاتح التترى ومصرع السلطان العثمانى . ويعنى المؤرخ عناية خاصة بذكر المراسلات التى تبادلها تيمور وبايزيد، والقسم الشهير الذى تحدّى به بايزيد خصمه، حين زحف على بلاده، وبعث اليه يتوعده ويأمره بالدخول فى طاعته، وهو قوله فى رسالته اليه: « فإن لم تأت تكن زوجاتك طوالقٌ ثلاثا، وإن قصـدت بلادى ، وفررت عنك ولم أقاتلك البتة، فزوجاتى إذ ذاك طوالق ثلاثا بتة» ، وما كان من سخط تيمور لهذه الإهانة، لأن ذكر النساء عند التتار «من العيوب وأكبر الذنوب» ؛ وما أوقعه تيمور عقب انتصاره بخصمـه بايَزيد من الانتقام الأليم ؛ فقـد أسره وسجنـه فى قفص من الحديد، ثم دعاه ذات يوم الى مجلس أنس عقده، فاذا بنساء بايزيد وجواريه ، وكن أسيرات مثله ، يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام مليكهن . ويصف المؤرخ هذا المنظر فى عبارة شـعرية فيقول « ثم أمر (أى تيمور) بأفـلاك السرور فـدارت ، وبشموس الراح أن تسـير من مشرق أكواب السقاة إلى مغرب الشفاة فسارت؛ وحين تقشعت عن شموس السقاة سحاب الخدور ، ودار فى سماء العشرة نجوم يحثها من مراسيه بروز و دور، نظر ابن عثمان (بايزيد) فاذا السقاة جواريه ، وعامتهم حرمه وسراريه، فاسودت الدنيا فى عينه، واستحلى سكرات حينه ، وتصدع قلبـه ، وتضرم لبه ، وتزايد كمده، وتفتت كبده، وتصاعدت زفراته، وتضاعفت حسراته ، ونكى جرحه ، وأعد قرحه ، ونثر على جرح مصابه من قصبات الأسى ملحة، وكانت هذه نكاية لابن عثمان بما أسلفه، فى مكاتباته، من ذكره النساء وحَلِفه» . ثم يذكر وفاة بايزيد فى قوله : «ولمـا صفا لتيمور شرب ممالك الروم من الكدر، وقضى الكون من أفعاله العجب، وأهل الروم النحب، وجيشه من الغارة الوطر، وامتلأ من المغانم وادى سَيْله العَرِم، وكان فتى الربيع قـد أدرك، وشيخ الشتاء قـد هرم، واندرج إلى رحمة الله المجيد، السلطان السعيد، الغازى الشهيد، إيلدريم بايزيد ، وكان معه مكبّلا فى قفص من الحديد . وإنمـا فعل ذلك تيمور ، قصاصا، كما فعله قيصر مع سابور ... » .

وهذه المراسلات التى يعنى ابن عربشاه بإثباتها سواء بالنص أو المعنى، فى هذا الموطن وغيره، من أهم عناصر ترجمته، فهى تشف عن كثير من خلال الفاتح التترى، ومناهجه فى الحرب والسياسة . وقد دونها ابن عربشاه نقلا عن أصولها التركية والفارسية، من مصادرها الرسمية الوثيقة؛ فقد رأيت أنه كان يجيد التركية والفارسية، وأنه اتصل بقصور الأمم الإسلامية التى دوخها تيمور . وقد نوه بأهمية هذه الوثائق أعلام من مؤرخى الغرب مثل جيبون Gibbon ، وكانت الترجمة اللاتينية لكتاب المؤرخ المسلم، عمدتهم فى تحقيق سيرة تيمور وتحليل شخصيته وصفاته(١) .

ويعرض ابن عربشاه الى شخصية تيمور وخلاله فى فصل خاص يختتم به كتابه، عنوانه : «فصل فى صفات تيمور البديعة، وما جبل عليه من سجية وطبيعة» . وقد رأيت كيف أن المؤلف يستهل كتابه بما يشف عن عميق بغضه للفاتح ، وكيف يسترسل فى سخطه عليه فى كثير من المواطن؛ وهو يطلق العنان بعد ذلك لهذه العاطفة فى قصيدة طويلة يصف فيها ماأنزله الفاتح بمختلف الشعوب والأمم، من رائع الويل والسفك، وفيها يقول :

ناهيك منهم فتنة ... كالأبحر الظلما تمور
الأعرج الدجال من ... قصم الجماجم والظهور
داخ البلاد ودارها ... نوائب الدنيا تدور
أملى له الله الحليم ... فزاد عدوا فى فجور
فاجتاح كل الخلق من ... عرب ومن عجم القطور
ومحا الصدى ودعا الردى ... بحسامه الباغى يمور

---

(١) طبع كتاب «عجائب المقدور» بنصه العربى لأول مرة فى ليدن سنة ١٦٣٦ . ثم طبع فى فرانكفورت بين سنتى ١٧٦٧ و ١٧٧٢ فى مجلدين مقرونا بترجمة لاتينية وتعليقات للمستشرق سمويل هنريكوس مانجر . وانتفع به البحث الغربى الحديث من ذلك العصر انتفاعا كبيرا . (راجع جيبون : Decline and Fall of the Roman Empire (الفصل الخامس والستون) حيث يقتبس من ابن عربشاه ووثائقه عن تيمور) . كذلك طبع « عجائب المقدور» فى مصر أكثر من مرة . وبدار الكتب المصرية منه أكثر من نسخة مخطوطة إحداها كتبت فى عصر المؤلف .

أفـــنى الملوك وكل ذى ‏ شرف وذى علم وقـور
وسـعى الى إطفـاء نو ‏ ر الله والدين الطهــور
فأباح إهراق الدما ‏ من كل صبار شكور
وأحـل سـبى المحصـ ‏ ـنات المؤمنات من الخدور
طورا يرى نكث العهـو ‏ د وتارة نقض النـذور
أبقت عليـــه فعـاله ‏ لعنا على مر العصـور
وتخـلدت آثار ما ‏ آذى على كر الدهــور

ومع ذلك فان ابن عربشاه لا يملك نفسه، فى الفصل الذى أشرنا اليه، من أن يشيد بمواهب تيمور الخارقة، وأن يسجد إجلالا لهذه البطولة الشامخة(١). فيبدأ بوصف شخص الفاتح فى هذه العبارة الشعرية: «وكان تيمور طويل النجاد، رفيع العماد، ذا قامة شاهقة، كأنه من بقايا العمالقة، عظيم الجبهة والرأس، شديد القوة والبأس، عجيب الكون، أبيض اللون، مشربا بحمرة، غير مشوب بسمرة، مستكمل البنية، مسترسل اللحية، أشل أعرج اليمناوين، عيناه كشمعتين غير زهراوين، جهير الصوت، لا يهاب الموت، قد ناهز الثمانين». ثم يجمل خلاله فيما يأتى: «كأنه صخرة صماء، لا يحب المزاح والكذب، ولا يستميله اللهو واللعب، يعجبه الصدق ولو كان فيه ما يسوؤه، لا يجرى فى مجلسه شىء من الكلام الفاحش ولا سفك دم، ولا من سبى ونهب وغارة وهتك حرم، مقداما، شجاعا، مطاعا، يحب الشجعان والأبطال، ذا أفكار مصيبة، وفراسات عجيبة، وسعد فائق، وجد موافق، وعزم بالثبات ناطق، ولدى الخطوب صادق، محاجا دراكا للمحة واللمزة، مرتاضا مستيقظا لرمزه، لا يخفى عليه تلبيس ملبس، ولا يتمشى عليه تدليس مدلس، يفرق بين المحق والمبطل بفراسته، ويدرك الناصح والغاش بدربة درايته، ويكاد يهدى بأفكاره النجم الثاقب، ويستتبع بآراء فراسته سهم كل كوكب صائب ... وكان محبا للعلماء، مقربا للسادات والشرفاء ... فريد الطور، بعيد الغور، لا يدرك لبحر تفكيره

(١) عجائب المقدور — ص ٢٠٩ وما بعدها.

قعر، ولا يسلك فى طور تدبيره سهل ولا وعر» . ثم يعمد بعد ذلك الى تحليل نفسية الفاتح و بوادر عظمته وفخاره، والى أحصاء مآثره، فى لهجة المؤرخ الصادق، والناقد الحق ؛ فيمحو بهذه الخاتمة أثر عباراته الطائرة فى ذم الفاتح ، ويقدّم شخصية تيمور الى القارئ فى صور قوية، تثير الإعجاب .

وقد ينتقص الأسلوب الشعرى والبيان المنمق أحيانا، من قوة العرض التاريخى، ولكنهما يسبغان على رواية ابن عربشاه فى الغالب طلاوة ورونقا وبهاء . بل لا يرى المؤلف نفسه بأسا من أى ينوه فى خاتمة مؤلفه، بما أودعه إياه من رائق نثره وبيانه، فيقول لنا : «فمن أراد التنزه فى التواريخ فعليه بمداومة تكرارها (أى ترجمته لتيمور)؛ ومن قصد التفكه فى رياض الإنشاء فليقتطف من بهىّ أزهارها؛ ومن سلك طرائق الأدب فليجن من حدائقها جنا ثمارها؛ ... ومن طلب الاعتبار بتقلبات الزمان فليتأمل حقائق أخبارها؛ ومن اعتنى بسياسة الملك فليتدبر دقائق أسرارها» .

*
* *

ووفد ابن عربشاه فى أواخر حياته على مصر، أيام الملك الظاهر جقمق، حوالى سنة ٨٥٢ هـ، فاتصل بيلاطها وعلمائها، وأقام بها نحو عامين، وتوفى بها سنة ٨٥٤ هـ (١٤٥٠ م) .

وقد تُذكّرنا حياة مترجم تيمور، بحياة سلفه الأشهر ابن خلدون، فقد تقلب كلاهما فى أمم وقصور عدّة، واستقر أخيرا فى مصر، حتى ثوى الى غبرائها المجيدة .

الفصل السادس

المجتمع المصرى فى القرن الخامس عشر

يرتبط التطوّر الإجتماعى فى حياة الأمم، أشدّ الارتباط بما تجوزه نظم الحياة العامة من تطوّر وانقـلاب . فكلما وصلت مرحلة من مراحل الإنقلاب فى نظم الحياة العامة غايتها، تأثرت حياة الطبقات وعقليتها وتقاليدها بمـا تحمله النظم الجديدة من عوامل التحوّل والتطوّر . ولا يشذ تاريخ المجتمع المصرى كثيرا عن هذه الظّاهرة، ولكنا نستطيع أن نلاحظ أن التطوّر فى عقلية الطبقات فى مصر، لم يكن دائما متمشيا مع تطوّر النظم العامة من سياسـية واقتصادية وتشريعية ، وأنه يعرض من التباين العميق فى أحوال الطبقات صورا غريبة ؛ فبينما تتطوّر بعض الطبقات الإجتماعية وتستبدل أثوابها وتقاليدها وعقلياتها بسرعة مدهشة، إذ يسود الجمود المطبق بعض الطبقات الأخرى، فتتعاقب العصور والانقلابات العامة، وهى تحافظ على تقاليدها وعقلياتها محافظة مدهشة، قد تسبغ على هذه التقاليد والعقليات ثوب الغرائز والصفات الطبيعية . ومن المحقق أن الخاصة والمتنوّرين فى كل مجتمع، هم الذين يحرزون من مظاهر التطوّر الفكرى والإجتماعى أعظم قسط، وأن الكافة أو العـامة هم آخر من يتأثر بهـذا التطوّر ، فلا تشهد هـذه الآثار إلا متى اكتمل الإنقلاب ، ونفذت أعراضه الى أعمق البيئات والطبقات .

وتاريخ مصر حافل بالإنقلابات السياسية، وحافل أيضا بالإنقلابات الإجتماعية . ولكن التطوّر السياسى فى مصر، كان فى الغالب أسرع وأشد تباينا من تطورها الإجتماعى . و بينما نرى أحدث نظم الحكم والتشريع والاقتصاد، تمثل منـذ بعيد فى الحياة المصرية العـامه أيام الدول الإسلاميـة ، إذا بالتطوّر الاجتماعى والفكرى

تحصر آثاره فى أقلية محدودة، هى التى تفوز دائما بأوفر قسط من هذه الآثار. ولكنا نستطيع أن نقول إن الكافة فى مصر، قلما تلمس فيهم آثارا محسوسة لهذا التطور، الذى يشمل كل مظاهر الحياة العامة، اللهم إلا فى فترات متباعدة جدا، وقد تمضى قرون بأسرها، وأولئك الكافة يحتفظون بتقاليدهم وعقليتهم. وقد يرجع ذلك الى أن طبقات الكافة فى مصر، كانت دائما فى نظر الملوك والخاصة كمية مهملة، كل ما تصلح له هو أن تغذى جيوش الغزاة بأرواحها، وخزائن الدولة بعملها وكدها. وهى نظرية الملوكية القديمة فى كل العصور والأمم. لكن تطبيقها دائما كان أشد وطأة فى مصر، التى قدر أن يرزح شعبها تحت نير الغزاة والحكام الأجانب دائما؛ فكان السلاطين وبطانتهم من الأمراء والحكام والخاصة، كل شىء فى الحياة العامة. وكان الكافة أو أبناء البلاد يخضعون لنظم سياسية واجتماعية، تفوق فى أحيان كثيرة فى الخسف والإرهاق، ما كانت تملى به روح هذه العصور.

على أنه من الواضح أيضا أن الشعب المصرى، فى خلال هذه العصور التى تولت فيها حكمه وقيادته دول وأسر أجنبية مسلمة، كان يحتفظ دائما بطابعه الخاص، بل كان يفرض هذا الطابع فى معظم الأحيان على حكّامه وقادته، وينتهى باستغراق هذه الأُسَر والطبقات المتغلبة وتمصيرها؛ فكانت فى نفس الوقت الذى تعمل فيه لتوطيد سلطانها، تعمل لمجد الشعب الذى تستمد منه هذا السلطان، وتعمل لرفعته وعزّته ومجده، وتذود عن استقلاله وسيادته، بكل ما أوتيت من قوة وغيرة وإخلاص.

وقد انتهت مصر الإسلامية فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر) الى طور من الضعف والفتور والدعة. وكانت هذه المرحلة خاتمة تطورات وانقلابات عديدة، سياسية واجتماعية. وكانت الدول الاسلامية المستقلة فى مصر، قد شاخت يومئذ وأدركها الانحلال والوهن؛ وكان يسود مصر يومئذ ركود سياسى واجتماعى عميق، كالركود الذى يسبق العاصفة. ولا غرو فقد كان مقدمة لأفدح خطب نزل

بمصر : باستقلالها، وحضارتها، ونظمها العامة، وحياتها الخاصة؛ ونعنى الفتح العثمانى .
وكانت الأمم الاسلامية قد اجتاحتها كلها قبل ذلك عاصفة هائلة من الدمار والسفك أثارتها غزوات تيمورلنك؛ وهبت على مصر ريح من هذه العاصفة . ولكنها لم تنج منها الا ليعدها القدر فريسة للغزاة الترك . ففى هذا العصر يقدم الينا المجتمع المصرى صورة من أغرب الصور؛ سواء فى نظم الدولة والحياة العامة أو فى نظم الجماعات والحياة الخاصة . ذلك أن الحياة كلها كأنما كانت يومئذ لهوا ولعبا ؛ وكأنما لم تكن أقدار الدول أكثر من مصير سلطان أو أمير ؛ ولم تكن مصاير الشعوب أكثر من هوى يضطرم به السلطان أو الحاكم ؛ وكأنما مناصب الدولة ومرافقها وأرزاقها رقاع الشطرنج تنقل لمجرد اللهو واللعب، أو هبات فقط تنثر على الأهل والخلان ؛ وكأنما العدالة ألعوبة تتقاذفها أهواء الأمراء والخاصة، وسيف لا يشهر الا على عنق الكافة، لتحقيق نزعات الهوى والانتقام . هذا بعض ما تعرض لنا نظم مصر العامة فى القرن الخامس عشر . أما الحياة الخاصة والمظاهر الفكرية والاجتماعية، فهى أشد غرابة وطرافة، وهى صورة قوية مما عرف به المجتمع المصرى على كر العصور من بساطة فى فهم الحياة ومهامها، ومن ميل الى اللهو، ومن تساهل فى تقدير الواجبات والمسئوليات .

وهذه الخلال المنحلة ترجع الى انحلال النظم العامة ذاتها، وبخاصة الى انحلال أخلاق الطبقات الخاصة التى كانت تعتبر أثناء هذه العصور قدوة لمثل الحياة . وقد لفتت هذه الظاهرة نظر مفكر إجتماعى مسلم كبير هو ابن خلدون، فحمل فى مقدمته على خلال المجتمع المصرى فى قوله : « واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر؛ فانها فى مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها، كيف غلب الفرح عليهم، والخفة والغفلة عن العواقب، حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، وعامة مأكلهم من أسواقهم »[1] . ويورد ابن خلدون ملاحظته فى عرض كلامه عن أثر الهواء فى أخلاق

(١) مقدمة ابن خلدون (بولاق) ص ٧٣ .

البشر، ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر فى المنطقة الحارة . وقد زار ابن خلدون مصر قبل العصر الذى تحدثت عنه بقليل، ودرس أحوالها ومجتمعاتها دراسة عميقة، وتأثرت حياته الخاصة مرارا بما كان يسود النظم العامة يومئذ من الاضطراب . وسواء أصح ما يقوله عن أثر الاقليم فى أهل مصر أم كان مبالغا فيه ، فان الذى لا ريب فيه هو أن العصر الذى وفد فيه المفكر الكبير على مصر، كان بالنسبة اليها عصر انحلال فكرى وأخلاقى ، وأن هذا الإنحلال ، كما قدمنا ، يرجع فى كثير من وجوهه الى انحلال النظم العامة، والى فساد المجتمعات والطبقات الخاصة .

كذا لفتت هذه الظاهرة نظر مؤرخ مصر الكبير، تقى الدين المقريزى، فقدم الينا فى «الخطط» صورا لا حصر لها مما شهده ولاحظه فى عصره، أعنى أوائل القرن التاسع، من عوامل الفساد ومظاهر الإنحلال التى سرت الى المجتمع المصرى، سواء فى كلامه عن الخاصة من أمراء وحكام وكبراء ، أو عن طبقات الدهماء والكافة. بل لقد أشار فى أكثر من موضع من «الخطط» أيضا الى ما كان يهجس به مفكرو هذا العصر من توقع انهيار صرح المجتمع المصرى؛ وهو يرجع ذلك الى ما وقع فى عصره من « الفقر والفاقة ، وقلة المال ، وخراب الضياع والقرى ، وتداعى الدور للسقوط ، وشمول الخراب أكثر معمور القاهرة ، واختلاف أهل الدولة ، وانقضاء مدتهم ...»[1] ، ثم الى أنه قد «تقلص ظل العدل، وسفرت أوجه الفجور، وكشر الجور عن أنيابه، وقلت المبالاة، وذهب الحياء والخشية من الناس ، حتى فعل من شاء ما شاء ، وتعددت منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة الحجاب، وهتكوا الحرمة، وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى، وتسلطوا على الناس مقتا من الله لأهل مصر، وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون »[2] .

---

(١) الخطط — ج ١ ص ٣٧٣

(٢) الخطط — ج ٢ ص ٢٢١

ولدينا ، من بعـد المقريزى ، وثائق هامة عن أحوال المجتمع المصرى ونفسيته فى هذا العصر، لثلاثة من أكابر مؤرخى مصر، عاشوا بالتعاقب فى هذا العصر، ودوّنوا حوادثه وصوره مما سمعوه أو شهدوه بأنفسهم؛ هم ، جمال الدين أبو المحاسن ابن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن إياس[1] . وهم أيضا من أقطاب فكرة الحوليات المصرية ؛دوّنوا حوادث عصورهم فى صحف سنوية وشهرية ويومية ، كما تدوّن اليوم صحفنا المحدثة ، حوادثنا الجارية ؛ ودوّنوها دون شرح أو تعليق . فهم ليسوا نقدة ، ولكن فكرة سعيدة جالت بأذهانهم فعنوا بضبط حوادث عصرهم ؛ فجاءت آثارهم أنفس وثائق لتاريخ مصر فى القرن الخامس عشر . وهو عصر يمتاز كما قدّمنا بظروفه الخاصة ؛فهو خاتمة تلك العصور المجيدة التى أزهرت فيها بمصر دول إسلامية عدة ، ورفعت لصولة الاسلام ومدنيته فى مصر صروحا باهرة ؛وهو فاتحة عصور الإنحلال والانحطاط والدمار، التى سادت مصر والشام فى عهد الحكم التركى . ومن ثم فإنك ترى فى صحف أولئك المؤرخين مصر، فى أثواب باهتة غامضة، وترى مجتمعها يسوده فتور غريب ، وتماثل مستمر؛ قلمـا يشهد حادثة هامة أو انقلابا ذا شأن؛ وقلمـا يجيش بأمنية نبيلة ، أو ينشد غاية سامية من غايات الحياة المعنوية أو الفكرية ؛ فهو يصبح كما يمسى ، ويعيش فى استكانة وخمول وضـعة ؛ وترى الشعب المصرى كالعادة يستقبل عسف السلاطين والولاة جامدا ،ويشهد أهواءهم طروبا ؛ يهتف لكل بادرة ، ويسخر من كل شيء ، ويتحمس لكل ما يبهج ويشوق ، من مظاهر الحفلات العامة ،وصنوف الترف والبذخ التى تنثر حوله ، بعد أن تستنزف من أقواته ومن دمـه . وهـذه الأهواء ، وهذه الحفلات ، وهذه الصـغائر ، هى كل تاريخ مصر فى هذا العصر ، وهى كل ما يشهده شعب مصر الطروب المتفلسف . واليك مثلا ممـا يعنى مؤرخ مصر فى هـذا العصر بتدوينـه فى حوادث كل عام وكل شهر تقريبـا :

---

(١) ابن تغرى بردى (٨١٢ — ٨٧٤ هـ) ، والسـخاوى (٨٣١ — ٩٠٢ هـ) وابن إياس (٨٥٢ — ٩٣٠هـ) .

« فيـه (شهر ربيع الآخر سنة ٨٥٢ هـ) — رسم بنفى سنقر مملوك السـلطان وخازنداره الى طرابلس ثم شفع فيه وأعيد الى ما كان عليه .

فى تاسع عشره (رجب سنة ٨٥٢ هـ) — ولى أبو الخير النحاس نظر السواق والمواريث المتعلقة بالوزر، ولم يلبث أن انتزعت منه للوزير على عادته وذلك فى ثانى شعبان، ثم لبس لها كاملية مخمل أحمر بسمور فى يوم الخميس حادى عشره .

شهر رجب سنة ٨٥٣ هـ أوله الخميس — فيه طلعت تقدمة جانبك فلم تعجب السلطان لكون أبى الخير النحاس قرر عنده كثرة متحصله وأن الذى يدفعه لا نسبة له منه، وبادر للأمر بالترسيم عليـه حتى التزم بحمل ما يزيد على ثلاثين ألف دينار لا من كده ولا من كد أمه .

شهر رمضان (سنة٨٥٣ هـ)— فى يوم الثلاثاء رابع عشره أنهى عن القاضى شهاب الدين أحمـد بن على بن مكى الأنصارى أنه زوج امرأة مع بقاء عصمتها لزوجها الأول، فأمر السلطان بضربه فضرب ثم نودى عليه من القلعة وهو ماش، ويقال إنه كان راكب جمل والصداق ملصق بظهره محسور الرأس[1] ... » .

«سنة ٨٦١ هـ — فى يوم السبت سادس المحرم ضرب السلطان والى القاهرة خير بك القصروى وعزله عن ولاية القاهرة وحبسـه بالبرج على حمل عشرة آلاف دينار .

«فى يوم السبت رابع شهر ربيع الآخر (سنة ٨٦٥) نودى بزينة القاهرة لقدوم أولاد السلطان من السرحة ووصلا فى يوم الثلاثاء ثامن ربيع الآخر، وشقّا القاهرة فى موكب هائل، وطلعا الى القلعة وخلع عليهما والدهما السلطان الملك الأشرف إينال[2]» .

«سنة ٨٩٥ هـ — فى المحرم — كثرت الشكاوى فى محمد بن اسماعيل قاضى الواح فأمر السلطان بإحضاره، فلما حضر ضربه بالمقارع، ثم أشهره بالقاهرة وهو على حمار ثم سجنه بالمقشرة فمات بها بعد أيام .

(١) السخاوى — التبر المسبوك فى ذيل السلوك — ص ٢١٥ و ٢٦٦ و ٢٦٧ .
(٢) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة — فى حوادث سنتى ٨٦١ و ٨٦٥ .

« وفى رجب كان ختان ابن السلطان المقر الناصرى محمد، وكان عمره يومئذ نحوا من أربع سنين وأشهر، وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية، وكان من نوادر المهمات، فاجتمع به سائر مغانى البلد، ورسم السلطان أن تزين القاهرة فزينت زينة حافلة، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

« فى رمضان قبض الوالى على جماعة من المماليك الأروام وجدهم يشربون الخمر نهارا فضربهم وأشهرهم بالقاهرة وسجنهم[1] » .

هذه الحوادث، بل هذه الصغائر وأمثالها : هى كل ما استطاع المؤرخ أن يدونه عن حياة مصر العامة فى القرن الخامس عشر. وقد تشعر وأنت تقرأ سيرة هذا العصر أنك فى دور ، إذ تسير من صغيرة الى مثلها ، ومن سخف الى غيره، فى أعوام بل أجيال متعاقبة. ولا تقرأ فى أخبار الدولة ومهامها سوى نقمة السلطان أو رضاه، على حاكم أو كبير ؛ وقدوم كبير اليه بهدية فخمة ؛ أو خلعه على من يصطفيه، ومصادرته لمن يتغير عليه ؛ ولا تقرأ من الحوادث الاجتماعية إلا إقامة مولد، والاحتفال بزواج أو ختان أو أمثالها ، ولا تجد فى حياة الشعب سوى الضجيج والمرح، والهتاف والطرب ، والذعر والاستكانة ، والجمود والسخرية ؛ فلا اهتمام إلا بزينة تقام أو موائد تمد، أو كبير يهان ، أو صغير يرفع . وهكذا كان ولاة الأمر يقدرون مهام الدولة، ويفهمون العدالة ، وهكذا كان الشعب يفهم الحياه وغايتها ؛ فهى عصور ضاحكة قل همها وعناؤها ، وكثرت بهجتها ومرحها، وسهلت فيها أسباب العيش والسلوى ؛ وهى نتيجة طبيعية لما حل بالمجتمع المصرى يومئذ من عوامل الإنحلال الفكرى والمعنوى ، فلم تفهم الحياة عندئذ الا من نواحيها المادية ، نواحى الدعة والرفه ولذائذ العيش .

وقد نذكر عند قراءة هذه الصور، نفس الصور التى تقدمها الينا قصص ألف ليلة وليلة عن المجتمعات المصرية فى عصور مجهولة ، ولا سيما فيما يتعلق بطبقات الكافة

---

(١) ابن إياس — تاريخ مصر (بدائع الزهور) — ج ٢ ص ٢٦٢ و ٢٦٣ .

أو العامة . ومن الغريب أنك تجد تماثلا عظيما بين أحوال هـذه الطبقات وخلالها في عصـور متباعدة جدا ، فانك تجد شبها عظيما بين أحوالهـا التي تقـدّم شرحها ، وبين ما دوّنه الجبرتي[1] عنها بعد ذلك بثلاثة قرون ؛ وربما لا تجد اليوم في خلالها وأحوالها كبير تطوّر أو تغيير ، وربمـا استطعت أن تميز فيها معظم خلال العصور المـاضية . ولم تنج الطبقات الخاصة ذاتها من التمـاثل والجمود في الخلال والعقلية مدى عصـور ، فهي الى أواخر القرن الثامن عشر تحتفظ بكثير من تقاليـدها وأحوالها ؛ ولكنها جازت في القرن الأخير أعظم ثورة عرفتها في أساليب الحيـاة ، وفي التفكير والخلال .

---

(١) ولد الجبرتي سنة ١١٦٨ وتوفي سنة ١٢٤٠ هـ .

الفصل السابع

الدبلوماسيّة فى الاسلام

كيف حاولت مصر إنقاذ الأندلس

كانت علائق الإسلام والنصرانية أخص ما يمثل وسائل الدبلوماسية الاسلامية، لأن العلائق الخارجيــة فيما بين الدول الاســلامية كانت تتخذ دائمــا صور التقاليد القديمة ؛ وكانت تنقصها الروح الدولية الحقيقية، لأن جامعة الدين كانت تعتبر دائما دعامة قوية لعقد أواصر الصداقة والتعــاون بين الدول الإسلامية . ولكن الدول الإســلامية كانت فى علائقها مع الدول النصرانية، وهى الدول الأوربية فى ذلك العصر، تجرى، سواء فى التجارة أو السياسة أو الحرب، على أصول العصر ورسومه الدولية، ومن ثم فإنا نجد فى علائق الدولتين العباسية والبيزنطية، وعلائق مصر بالدول الأوربية أيام الحروب الصليبية، ثم علائق الأندلس باسبانيا النصرانية، أقوى صور الدبلوماسية الاسلامية وأخصها .

وقد لبثت مصر حينا مركزا للوحى فى توجيه حركات الدبلوماسية الاسلامية تجاه الدول النصرانية ، وتبوأت فى هــذا الميدان منذ الحــروب الصليبية مركز الإرشاد والقيــادة ؛ وكان ذلك نتيجة طبيعية لاستيلائها على بيت المقدس وآثار النصرانية المقدسة . وكانت المؤثرات الدينية كثيرا ما تتخذ وسيلة لتحقيق الغايات السياسية . ولنا من ذلك شواهد كثيرة فى حوادث الحروب الصليبية . وكانت السياسة الزمنية المستنيرة قلما يمكن استخلاصها فى هذه العصور من غمار المؤثرات والأهواء الدينية، لأن ريح التعصب الدينى التى سادت أوربا فى العصور الوســطى، ودفعت بسيل الجيوش الصليبية الى المشرق، كانت ترغم الدول الاسلامية على التأثر بالاعتبــارات

الدينية الى حد كبير . غير أن مصر استطاعت فى مواقف كثيرة أن تحترز من نزعة التعصب الخالص، وأن تستخدم المؤثرات الدينية بذكاء وبراعة، لتحقيق فكرة أو غاية سياسـية .

وسنعنى فى هـذا الفصـل بأحد هـذه المواقف التى قامت مصر فيها بتوجيه الدبلوماسية الاسلامية فى ظروف دقيقة مؤثرة. وقلما نجد فى صحف مصر الاسلامية مايثير من التأثر والشجن، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التى بذلتها مصر لتقذ دولة الاسلام فى الأندلس ؛ ولقد كانت أيضا آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة فى ميدان الدبلوماسية الاسلامية . وكان مصير مصر يومئذ يهتز فى كفة القدر، ويرنو اليها بنو عثمان بجشع ؛ ولكن دولة السلاطين كانت ما تزال فى مصر قوية وطيدة الدعائم، ولم يكن يبدو أن مصر الاسلامية تقطع يومئذ مرحلتها الأخيرة فى حياة المجد والسؤدد، لتسقط بعد حقبة يسيرة فريسة الغزاة الترك . ولهذا لم تنس مصر، يوم علمت أن دولة الاسلام فى الأندلس غدت فى خطر الفناء، أن تقوم بمهمتها التاريخيـة فى توجيه الدبلوماسية الإسلامية، وأن تبذل باسم الاسـلام، لدى خليفة النصرانية وملوكها، مسعاها الخالد لإنقاذ الأندلس .

* * *

فى سنة ١٤٨٩ كانت جيوش اسبانيا النصرانية — أو جيوش قشتالة وأراجون — تتقدم فى قلب مملكة غرناطة آخر معقل لاسبانيا المسلمة . وكانت دولة الاسـلام فى الأندلس قد أخذت منذ قرن تنحدر بسرعة الى هاوية الانحلال والفناء، وأخذت قواعدها وثغورها الباقية تسقط تباعا فى يد اسبانيا النصرانية ؛ فلم يبق منها فى أواخر القرن الخامس عشر سـوى مملكة غرناطة الصغيرة وفيها مدن وثغور قلائل . ثم حل الصراع الأخير ؛ واتحدت قشتالة وأرجوان على يدى إيزابيلا وفرديناند ، واعتزمت اسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للاسلام فى الأندلس؛ فتدفقت الجيوش المتحدة على مملكة غرناطة . وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل، وكان الخلاف الداخلى قد دب اليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها

الى شطرين يتربص كل منهما بالآخر ؛ أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن النصرى ؛ ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه أبو عبد الله المعروف بالزّغَل . وكان فرديناند وإيزابيلا قد شهرا الحرب على الاسلام قبل ذلك بأعوام ، واستوليا على مالِقَة أمنع ثغور الأندلس ، ثم من بعدها تباعا على طائفة كبيرة من البلاد والحصون . وفى ربيع سنة ١٤٨٩ م أشرف فرديناند الخامس بجيوشه على بسطة (أوبازه) من حصون مولاى الزّغل ، وبقيت الملكة إيزابيلا بحاشيتها فى جيّان على مقربة من الجيش الفاتح . وكان الزّغل قد تأهب للدفاع فحشد فى بسطة صفوة جنده ، وشحنها بالمؤن ، وبعث اليها جيشا من المِرية بقيادة الأمير يحيى ؛ ولكنه لم يغادر وادى آش خشية أن ينقض عليه فى غيبته ابن أخيه أبو عبد الله ؛ ولم يجد فرديناند وسيلة للاستيلاء على بسطة غير الحصار .

فى ذلك الحين ، وبينما كان الملك النصرانى مجدّا فى محاصرة بسطة ، وفدت عليه سفارة ملك مصر ، وذلك فى أواخر سنة ١٤٨٩ (أواخر سنة ٨٩٤ هـ) . وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ فى العالم الاسلامى ، واهتز لمصابها أمراء الاسلام قاطبة ؛ وكان أمراء الأندلس وزعماؤها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم الى دول الاسلام فى إفريقية ومصر وتركيا لتسعى الى غوثهم ؛ وكانت سفاراتهم ورسائلهم تترى منذ أعوام على مراكش والقاهرة وقسطنطينية . وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى . ولم تكن أحوال مصر على ما يرام يومئذ ، فقد كان يسودها الإنحلال الداخلى ، وكانت فوق ذلك تخشى الخطر يهددها من ناحية الترك . ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية فى توجيه الدبلوماسية الاسلامية كلما دعيت إلى أدائها . وقد رأت فى محنة الأندلس وتعرضها لخطر الفناء صيحة الواجب القديم تدعوها الى العمل . وفى صحف العصر ما يدل على أن مصر كانت تتبع حوادث الأندلس باهتمام وجزع . فان ابن إياس مؤرخ مصر فى ذلك العصر ، لم يفته أن يدون فى حولياته هذه الحوادث تباعا ؛ فنراه يقول فى حوادث ذى الحجة سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) ما يأتى : « وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد

ابن حسن بن على بن أبى سعد بن الأحمر، قد ثار على ابنه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من ابنه، وجرت بينهما أمور يطول شرحها، وآل الأمر بعد ذلك الى خروج الأندلس عن المسلمين وملكها الفرنج، والأمر لله فى ذلك[١]» . ثم يقول فى حوادث رجب سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) : « وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب غرناطة، وهو الغالب بالله أبو الحسن[٢] » . وفى حوادث جمادى الآخرة سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) : « إن صاحب غرناطة (أبا عبد الله) توجه الى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وأن الفتن هناك قائمة والأمر لله[٣] » . وهكذا كانت حوادث الأندلس رغم صعوبة المواصلة واحتجاب الأخبار فى ذلك العصر، يتردد صداها فى العالم الاسلامى ، وتثير اهتمام دُوَله وقصوره .

فى تلك الآونة العصيبة اتجهت أبصار الأندلس — كما قدمنا — الى مصر . وكانت مصر ترتبط يومئذ مع ثغور الأندلس، ولا سيما مالَقة وألمرية، بعلائق تجارية وثيقة. وكان لمصر هيبتها التالدة بين الدول النصرانية، منذ الحروب الصليبية؛ ولأنها تحكم البقاع النصرانية المقدسة، وبين رعاياها ملايين من النصارى . وكانت أبصار الأندلس من قبل تتجه دائماً الى إفريقية يوم كان للُمرَابِطين والمُوَحِّدين فيها دول شامخة تروّع دول النصرانية . ولكن إفريقية كانت فى أواخر القرن الخامس عشر مسرحاً للفوضى ، تتقاسمها دويلات عدّة تشغل بتمزيق بعضها بعضاً . وكان قد ولى ذلك العصر الذى خاطب فيه ابن الأبّار شاعر الأندلس، ملك إفريقية بقوله[٤] :

---

(١) تاريخ مصر — ج ٢ ص ٢١٦ .

(٢) تاريخ مصر — ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٣) تاريخ مصر — ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٤) ملك إفريقية المشار اليه هو السلطان أبو زكريا بن أبى حفص ملك تونس والجزائر. وكان ابن زيان أمير بلنسية قد استغاث به يوم زحف عليه ملك قشتالة فأوفد اليه وزيره ابن الأبار الشاعر والكاتب الأشهر ، فأنشده قصيدته الخالدة التى أتينا على مطلعها، واستجاب السلطان الدعوة وأنجد ابن زيان بالجند والمؤن، ولكن بلنسية سقطت رغم ذلك فى يد النصارى فى سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) .

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل الى منجاتها دَرَسَا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

والذى كانت إفريقية تستجيب فيه الى دعاء الجزيرة وتبادر الى غوثها .
واتجهت آمال الأندلس أيضا الى مصر زعيمة الاسلام فى المشرق والمسيطرة على قبر المسيح، والى دولة بنى عثمان التى أخذت تنفذ بلواء الإسلام الى أمم النصرانية، تلتمس اليهما النجدة والغوث . وكان صدى الخطوب المؤسية التى نزلت يومئذ بالأندلس يملأ بلاط القاهرة و بلاط قسطنطينية، و يثير فيهما الاهتمام والعطف. وكانت علائق القاهرة وقسطنطينية يومئذ تسودها القطيعة والجفاء، لأن الترك كشفوا مرارا عن نيتهم فى غزو مصر، واضطرت مصر مرارا أن تردهم بقوة السيف، وأن تقف منهم موقف الحذر المتأهب؛ بل نشبت الحروب فى ذلك الحين بين ملك مصر السلطان الأشرف قايتباى ، و بين بايزيد الثانى سلطان الترك. بيد أنه يلوح مع ذلك أن الملكين استطاعا أن يتجها فى ذلك الظرف نحو غاية واحدة، هى السعى الى نجدة الأندلس وان لم يكن ثمة ما يدل على أنهما تفاوضا أو تفاهما فى ذلك على خطة موحدة.

ووصلت سفارة الأندلس الى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢ هـ (نوفمبر ١٤٨٧م) .
ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتى : « وفى ذى القعدة (سنة ٨٩٢هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس، وعلى يد مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج، فانهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو فى المحاصرة معهم. فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رأيه أن يبعث الى القسوس الذين بالقُمامة التى بالقدس بأن يرسلوا كتابا على يد قسيس من أعيانهم الى ملك الفرنج صاحب نابل، بأن يكاتب صاحب إشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة و يرحل عنهم، و إلا يشوش السلطان على أهل القمامة ويقبض على أعيانهم، ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول الى القمامة ويهدمها؛ فارسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب الى صاحب نابل كما أشار السلطان فلم يفد ذلك شيئا، وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد»[1] .

(١) تاريخ مصر — ج ٢ ص ٢٤٦ .

هكذا يصف ابن إياس سفارة الأندلس الى بلاط القاهرة . ولكن فى روايته ما يدعو الى التأمل؛ فهو يؤرخ مقدم سفير الأندلس بذى القعدة سنة ٨٩٢ هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧ م) . ويقول إن صاحب الأندلس أوفده فى طلب النجدة من سلطان مصر، لأن الفرنج أشرفوا على أخذ غرناطة وهو فى المحاصرة معهم . ولكن سياق حوادث الأندلس فى ذلك الحين يناقض رواية ابن إياس ؛ فالمعروف أن حصار النصارى الأخير لغرناطة لم يبدأ إلا فى مارس سنة ١٤٩١ الموافق لجمادى الثانى سنة ٨٩٦ هـ، فالأمر لم يكن متعلقا إذًا بإنقاذ غرناطة . وقد قدّمنا أن الحروب الأهلية فى الأندلس شطرت فى ذلك الحين مملكة غرناطة إلى شطرين : أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد، ووادى آش وأعمالها ومالِقَة ويحكمها عمه الزَّغَل؛ وقد كان أبو عبد الله محمد يومئذ وثيق الصلات بفرديناند وإيزابيلّا ملكى النصارى، وكان السلام معقودا بينهما . بل كان أبو عبدالله محمد يظاهر النصارى على قتال عمه الزَّغَل . وكانت غرناطة تعيش فى نوع من الأمن والطمأنينة فى ظل هذه المحالفة الغادرة . وكانت جيوش فرديناند وإيزابيلا تتدفق يومئذ على أراضى الزغل لأنه كان يسيطر على الثغور الجنوبية وبالأخص على مالِقَة . وكان النصارى يخشون بقاء هذه الثغور فى يد المسلمين، لأنها كانت مهبط النجدات والمؤن التى ترد من إفريقية لغوث المسلمين بين آونة وأخرى ؛ لهذا نشط النصارى الى افتتاح مالقة أولا، وطوقها فرديناند بجيوشه فى أبريل سنة ١٤٨٧ (ربيع الثانى سنة ٨٩٢ هـ) ، ولم يستطع الزغل إنجادها بنفسه، لأنه كان يخشى غدر ابن أخيه، فبعث اليها ما استطاع من جنده . ولكن مالقة سقطت رغم دفاعها المجيد فى يد النصارى فى أغسطس سنة ١٤٨٧ (شعبان سنة ٨٩٢ هـ) . وإذًا فمنطق الحوادث يدلى بأن المقصود بالإنقاذ والإنجاد من سفارة الأندلس الى مصر انما كانت مالقة لا غرناطة ؛ لأن حصار مالقة بدأ فى ربيع الثانى سنة ٨٩٢ ، ووصلت سفارة الأندلس الى مصر فى ذى القعدة من نفس العام ؛ فاذا قدرنا بعد المسافة وبطء المواصلات يومئذ ، كان لنا أن نستنتج أن سفير الأندلس غادر المياه الاسبانية

قبل أن تسقط مالقة فى رجب أو فى شعبان، ولكنه لم يصل إلى مصر الا بعد سقوطها . أما صاحب هذه السفارة فلا ريب أنه الزغل، بطل الأندلس، والمدافع عنها يومئذ، والمشفق على دولة المسلمين فيها من السقوط . وأما صاحب غرناطة، وهو ابن أخيه أبو عبد الله محمد، فقد كان كما رأينا حليف النصارى يومئذ، وكان لهم ظهيرا على أمته ودينه .

فرواية ابن إياس عن هذا القسم من سفارة الأندلس تنقصها الدقة . ولكن تلخيصه للقرار الذى اتخذه سلطان مصر فى شأنها، بالعكس دقيق يدل بصدق تحريه، ووقوفه على مجرى سياسة البلاط القاهرى يومئذ .

والظاهر أن حوادث الأندلس كانت قد أحدثت صداها فى بلاط مصر قبل أن ترد اليه هذه السفارة الرسمية، وأن فكرة كانت تتردد فيه يومئذ للسعى الى إنجاد الأندلس بطريقة فعالة . والمصادر الاسلامية لا تشير الى فكرة أو سياسة معينة اعتزمتها مصر فى هذا السبيل قبل أن توفد سفارتها الى الغرب . ولكن بعض المصادر الافرنجية تقول، إن الشرق كله اهتز لحوادث الاندلس وسقوط قواعدها السريع فى يد النصارى، وإن بايزيد الثانى سلطان الترك، والأشرف قايتباى سلطان مصر، تهادنا مؤقتا رغم ما كان بينهما من خصومات مضطرمة وحروب دموية، وعقدا محالفة لإنجاد الأندلس وإنقاذ دولة الاسلام فيها، ووضعا لذلك خطة مشتركة، خلاصتها أن يرسل بايزيد الثانى أسطولا قويا لغزو صقلية التى كانت يومئذ من أملاك اسبانيا ليشغل بذلك اهتمام فرديناند و إيزابيلا، وأن تبعث سريات كبيرة من الجند من مصر و إفريقية، تجوز الى الأندلس من مضيق طارق لتنجد جيوشها وقواعدها [1] . غير أن انفصام علائق مصر وتركيا يومئذ كان أبعد من أن يسمح بعقد مثل هذا التحالف بينهما . وكل ما يمكن قوله فى هذا الشأن، هو أن فكرة إنجاد الأندلس لقيت فى بلاطى القاهرة والقسطنطينية نفس العطف، و إن كانا، كما قدمنا، لم يتفاهما فى ذلك على خطة موحدة .

---

(١) Irving : Conquest of Granada (Everyman's) p . 172 وذلك نقلا عن الرواية الاسبانية المعاصرة لهذه الحوادث .

ومهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس ، فإن مصر هى التى انفردت بتلبية نداء الأندلس، والسعى الى إنقاذها . ولم تكن أحوال مصر يومئذ بما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية الى ميدان حرب ناء كالأندلس، فقد كانت من جهة تخشى غزو الترك، وكانت بعض الثورات المحلية تستغرق اهتمامها ونشاطها . ولكن مصر لجأت الى طريق الدبلوماسية والمؤثرات الخارجية، وعادت بذلك تحمل مهمتها التاريخية فى توجيه الدبلوماسية الاسلامية. وسلك بلاط القاهرة فى ذلك خطة تدل بذكائه وحزمه، وتدل بالأخص بوقوفه على مجرى الشؤون الخارجية، وتطور العلائق الدولية فى هذا العصر .

ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف، أجاب على سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية الى البابا وملوك النصرانية . ولكنه لم يعهد بها الى سفراء مسلمين وانما عهد بها الى سفراء من رعاياه النصارى، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس . وعهد اليهما بكتب الى البابا وهو يومئذ أنوصان الثامن ، والى ملك نابولى فرديناند الأول ، والى فرديناند وإيزابيلا ملكى قشتالة وأراجون . وفى هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى، على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين فى مملكة غرناطة ، وعلى توالى الاعتداء عليهم، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم، ونهب أملاكهم ؛ فى حين أن رعاياه النصارى فى مصر وفى بيت المقدس، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم . ولهذا فهو يطلب الى ملكى قشتالة وأراجون، الكف عن هذا الاعتداء، والرحيل عن أراضى المسلمين، وعدم التعرض اليهم، ورد ما أخذ من أراضيهم؛ ويطلب الى البابا وملك نابولى أن يتدخلا لدى ملكى قشتالة وأراجون، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لايذاء المسلمين والبطش بهم ؛ هذا وإلا فان سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان أن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص، ويبطش بكبار الأحبار فى بيت المقدس،

ويمنع دخول النصارى كافة الى الاراضى المقدسه، بل ويهدم قبر المسيح ذاته وكل الأديرة والمعابد والآثار النصرانية المقدسة[1] .

وغادر القس أنطونيو ميلان وزميله الديار المصرية لتأدية سفارة مصر الى الغرب، والإسلام الى النصرانية . وكان أمر هذه السفارة وما تضمنت من إنذار التنكيل بالنصارى، قد ذاع فى فلسطين بين الأحبار والنصارى، فاحتشد الأحبار لوداع السفيرين يوم رحيلهما من بيت المقدس، وقلوبهم تفيض جزعا من المستقبل . ولسنا نعرف موعد هذا الرحيل بالضبط ، ولكن السفيرين وصلا الى اسبانيا فى خريف سنة ١٤٨٩ م، أعنى لنحو عام ونصف عام من وصول سفارة الأندلس الى القاهرة . وكانت مالقة قد سقطت فى يد النصارى منذ عامين ، واستولوا على طائفة أخرى من الحصون والقواعد، ثم تحولوا بعد ذلك الى بسطة (بازه)، وضرب فرديناند الحصار حولها منذ الربيع . وهنالك ، أمام أسوار بسطة، وصل القس أنطونيو ميلان وزميله الى معسكر النصارى فى أواخر سنة ١٤٨٩ (سنة ٨٩٤ هـ) فاستقبلهما فرديناند بحفاوة وترحاب ، واستلم كتاب السلطان، واستمع الى رسالتهما بعناية . وكان السفيران قد عرجا فى طريقهما على رومة ونابولى أولا ، وقدما كتب السلطان، الى البابا أنوصان الثامن، والى ملك نابولى ؛ فكتب البابا الى فرديناند وإيزابيلا يسألها عما يجيب به على مطالب السلطان ووعيده، وكتب ملك نابولى (فرديناند الأول) اليهما يستفهم عن سير الحرب الأندلسية ، ويلومهما على اضطهاد المسلمين ، وينصح بالكف عنه حتى لا يتعرض نصارى المشرق الى قصاص السلطان . ويرجع تدخل ملك نابولى على هذا النحو ، الى خلاف بينه وبين ملك أراجون على حقوق العرش النابولى ، والى خشيته أن يرتد فرديناند الى محاربته متى تم ظفره بفتح الأندلس ، وانتهت مخاوفه من ناحية المسلمين . ثم زار القسان

(١) ابن اياس — تاريخ مصر — ج ٢ ص ٢٤٦ ، Prescott : History of Ferdinand and Isabella (Sonnenschein) p. 278; Irving : Ibid. p. 257 — وظاهر ان فى رواية ابن اياس عن تأليف السفارة بعض الاضطراب، ولكن ملخصه لمحتويات الكتب السلطانية فى منتهى الدقة .

أيضا جيّان حيث كانت الملكة إيزابيلا كما قدمنا ، وأبلغاها موضوع سفارتهما ، ولقيا منها نفس الحفاوة والترحاب [١] .

ولم ير فرديناند وإيزابيلا فى مطالب السلطان ووعيده ، ما يحملهما على تغيير خطتهما فى وقت كانت فيه جيوشهما الظافرة ، تقتحم المدن والحصون الأسلامية تباعا ، واقترب فيه أجل الظفر النهائى ، ولكنهما رأيا مع ذلك إجابة السلطان ؛ فكتبا اليه فى أدب ومجاملة ، أنهما لم يفرقا فى معاملتهما لرعاياهما بين المسلمين والنصارى ، ولكنهما ، لا يستطيعان صبرا على ترك أرض الآباء والأجداد فى يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة فى ظل حكهما راضين مخلصين ، فانهم يلقون منهما نفس ما يلقاه المسلمون الآخرون من الرعاية . وبذا ارتد القسّان الى المشرق يحملان جواب الملكين الى السلطان وقد ثقلتهما الصلات والتحف .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكنا نرجح أنها وصلت الى بلاط القاهرة [٢] ، وإن كنا لا نلمس لها أثرا فى حوادث مصر فى هذا العصر . وليس فى تصرفات حكومة مصر يومئذ مايدل على أن السلطان نفذ وعيده باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أو الآثار النصرانية المقدسة . والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثانى وصد غاراته المتكررة على حدود مصر الشمالية . ولم يك ثمة مجال للعناية بالمسائل الخارجية . وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شؤون مصر الداخلية . ولهذا نعتقد أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس وقفت عند هذا الحد ، وأنها لم تكن تتعدّى قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال المؤثرات الدينية . وهكذا تركت الأندلس لمصيرها . ومضى فرديناند وإيزابيلا فى متابعة الغزو والفتح حتى ظفرا بالاستيلاء على غرناطة آخر قواعد الأندلس فى ديسمبر سنة سنة ١٤٩١ (صفر سنة ٨٩٧ هـ) . وانتهت بذلك دولة الاسلام فى اسبانيا .

(١) Prescott : Ibid .p. 278. ; Irving : Ibid. p. 258.

(٢) قد يكون فى إشارة ابن إياس فى روايته عن سفارة مصر ما يدل على ذلك وهو قوله فى نهاية كلامه عن محاولة السلطان : «فلم يفد ذلك شيئا وملك الفرنج مدينة غرناطة فيابعد» ، ولعل فى ذلك مايشعر باشارته الى ورود الجواب بعقم هذه المحاولة (ج ٢ ص ٢٤٦) .

ويشير ابن إياس الى نبأ سقوط غرناطة غير مرة . وروايته فى ذلك مضطربة متكررة، فهو أولا فى حوادث ذى القعدة سنة ٨٩٥، وثانيا فى حوادث شعبان سنة ٨٩٧، وثالثا فى حوادث صفر سنة ٩٠٦، يكرر نفس الرواية ويقول فى كل منها : إن الأخبار وردت بسقوط غرناطة فى يد الفرنج . هذا، ولما كانت غرناطة قد سقطت فى صفر سنة ٨٩٧، فان روايته الثانية هى الرواية الصحيحة . وأما الأولى فسابقة لأوانها . وأما الثالثة أعنى رواية صفر سنة ٩٠٦، فان ابن إياس لم يوردها عبثا، وإن كانت تتعلق فى الحقيقة بواقعة أو مناسبة أخرى . ذلك أن فرديناند الخامس لم ينس وعيد السلطان بالتنكيل بالنصارى، ولم يقنع بالجواب الذى وجهه اليه على يد القسيسين؛ فلما انتهت حرب غرناطة، وتم إخضاع جميع المدن والأراضى الاسلامية، رأى فرديناند أن يسعى الى إقناع سلطان مصر بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية والرفق، وأن يطمئنه على مصيرهم، فأوفد الى بلاط القاهرة سفارة جديدة . وكان سفيره الى السلطان پيترو مارتيرى[1]، وهو من أعلام الكتّاب والمؤرخين فى ذلك العصر، فأدى مارتيرى سفارته بكياسة وبراعة، وقدم الى السلطان شهادات من حكام الجزائر تفيد أن كل المسلمين الذين آثروا الهجرة قد نقلوا سالمين الى الجزائر، وأحسنت معاملتهم، واستطاع بذلاقته أن يقنع السلطان بأن يعفى الحاجّ النصارى من طائفة من المغارم والفروض[2] .

وقد ترك لنا پيترو مارتيرى كتابا عن زيارته لمصر، وفيه أنها وقعت فى سنة ١٥٠١ م . فإذا كان لإشارة ابن إياس الى سقوط غرناطة فى حوادث صفر سنة ٩٠٦ هـ أعنى بعد وقوع هذا الحادث بتسعة أعوام مناسبة، فانما تكون زيارة مارتيرى لبلاط القاهرة، لأن أوائل سنة ٩٠٦ هـ توافق أواسط سنة ١٥٠١ م . وكان قد تولى عرش مصر بعد السلطان الأشرف، ولده الناصر أولا، ثم الملك الظاهر، ثم الملك

---

(١) پيترو مارتيرى Piotro Martiro، ايطالى، ولد سنة ١٤٥٥، وتوفى سنة ١٥٢٥، وكان حبرا وكاتبا كبيرا . شهد حروب غرناطة الأخيرة، الى جانب فرديناند؛ وزار مصر سفيرا اليها من قبله . وكتب عن سفارته كتابا . وله مؤلفات أخرى فى تاريخ اسبانيا فى ذلك العصر .

(٢) Prescott' Ibid. p. 287

الأشرف جان بلاط، وهو الذى كان يجلس على عرش مصر يوم قدوم بيترو مارتيرى.
وكانت سياسة مصر الخارجية تتغير بتغير السلاطين فى هذا العصر الفياض بالثورات والخطوب، وكان صدى حوادث الأندلس قد خفت منذ سقوطها الأخير، فليس غريبا أن تنتهى سفارة فرديناند الخامس الى بلاط القاهرة بالإقناع والتوفيق على نحو ما قدمنا

وهكذا كانت خاتمة المحاولة التى بذلتها مصر لإنقاذ الأندلس. وهى محاولة شهيرة فى علائق الشرق والغرب، والإسلام والنصرانية. وفى قيام مصر بها على النحو الذى قامت به، ما يدل على فهم حق لروح الدبلوماسية فى ذلك العصر، وعلى علم مستنير بسير العلائق الدولية. فقد رأى بلاط القاهرة فى سيطرة مصر على أرواح الملايين من النصارى، وعلى قبر المسيح وباقى الآثار النصرانية المقدسة، عاملا قويا للتأثير فى خطط اسبانيا النصرانية إزاء الأندلس، وهى خطط كانت تصطبغ بالصبغة الصليبية؛ ولم يخف على بلاط القاهرة ما كان لرومة يومئذ من النفوذ لدى الأمم النصرانية، وخصوصا لدى اسبانيا التى كانت عندئذ تتصل بالكنيسة الرومانية بأوثق الصلات؛ ولهذا رأى بلاط القاهرة أن يحاول استغلال هذا النفوذ، وتهديد البابا بما يصيب القبر المقدس والنصارى فى أراضى مصر من شر وبطش، وحمله بذلك على التدخل لوقف حرب الأندلس. كذلك تدل رسالة السلطان الى ملك نابولى على إلمام بلاط القاهرة بما كان يضطرم يومئذ من الخصومات بين نابولى واسبانيا، وربما على نوع من التحريض لملك نابولى أن ينتهز فرصة اشتغال اسبانيا بمحاربة الأندلس فيغزو صقلية، وهى يومئذ من أملاك اسبانيا. وأخيرا نرى فى اختيار السلطان لسفرائه من بين رعاياه النصارى، وبالأخص من بين رجال الدين، ضربا من الكياسة الدبلوماسية. ولكن هذه المحاولة الذكية الفطنة التى بنيت على اعتبارات دولية قوية مستنيرة، لم تحدث أثرها المنشود؛ لأن أحوال مصر الداخلية حالت دون تنفيذ خطة القصاص الدولى، الذى أنذر سلطان مصر باتباعه نحو الآثار النصرانية المقدسة، ونحو رعاياه النصارى؛ ولأن سياسة مصر الخارجية لم تكن تقوم يومئذ،

كما كانت أيام الحروب الصليبية، على مبادئ وخطط موحدة، بل كانت تتغير بتغير السلاطين . وكان تعاقب السلاطين يومئـذ على عرش مصر سريعا مضطربا . وهكذا فشلت آخر محاولة قامت بها مصر الإسـلامية لتوجيه الدبلوماسية الإسلامية نحو النصرانية، إنقاذا لدولة الإسلام فى الأندلس . وشاء القدر أن تكون آخر محاولة من نوعها تقوم بها مصر الإسلامية المستقلة أيام سؤددها ومجدها[1] .

---

(١) مما رجعنا اليه فى هذا الفصل غير ما تقدم ذكره من المصادر :
نفـح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقـرى .

Condé : Hist. de la Domination des Arabes en Espagne.
H. Ch. Lea : History of the Moriscos.

الفصل الثامن

الفتـــح العـــثمانى

فى رواية ابن إياس

كانت مصر من بين فتوح الدولة العثمانية، أعظمها وأيسرها، ففى «مَرْج دابق» غنم بنو عثمان تراث الدولة الإسلامية الذى تكدس فى الشأم ومصر مدى تسعة قرون، وسحقوا دولة السلاطين الزاهرة وهى ماتزال تحتفظ بكثير من سالف بأسها وبهائها، وانتزعوا رسوم الخلافة العباسية بعد ما اتشحت بها مصر عصورا طويلة. وكان مصير مصر يضطرب فى كفة القدر قبل ذلك بأكثر من قرن، ومن المحقق أنها كانت قبلة لاطماع بنى عثمان منذ اشتد ساعدهم ونما سلطانهم، وأشرفوا من هضابهم على حدود مصر الشمالية، وهى يومئذ قاصية الشأم؛ فكانت مصر تثير جشع أولئك الغزاة بخصبها وغناها ونعمائها. وما كان فتح بنى عثمان لمصر أو على الأقل محاولتهم لهذا الفتح، لتُرجأ الى عام «مرج دابق» لولا أن عاصفة هائلة هبت على العالم الاسلامى قبل ذلك بأكثر من قرن، فكادت تكتسح جميع الدول الاسلامية، ولولا أنها انقضّت بالأخص على مجد بنى عثمان الفتىّ فكادت تسحقه فى المهد؛ ففى أنقرة أصاب تيمورلنك دولة بنى عثمان الناهضة بضربة شديدة (سنة ١٤٠٢ م) بعد أن اجتاح فى طريقه كل الأمم الاسلامية من سمرقند الى الشأم، فخبا ظمأ الفتح الذى شهر بنو عثمان سيفه حينا، وشغلوا مدى نصف قرن آخر بإصلاح شؤونهم وإتمام أهبتهم لفتح القسطنطينية. ومنذ محمد الفاتح عاد سيل الفتح العثمانى يتدفق نحو الشمال، ونحو الجنوب، وعادت مصر قبلة الفاتحين.

ولم تنج مصر أيضا من بطش الفاتح التترى ، فقد انقضّ تيمورلنك قبيل ذلك على بلاد الشأم ، فافتتحها وعاث فيها أشنع عيث ؛ ولم تجع أهبة سلطان مصر وسيره الى لقاء الفاتح شيئا فى تلافى النكبة ، ولم تهدأ العاصفة إلا حينما ارتد الفاتح من تلقاء نفســه ، وسار لقتال بنى عثمان . ولو كان تيمورلنك يعنى بالفتوح المستقرة لكانت مصر بلا ريب إحدى غنائمه ، بل هنالك ما يدل على أنه كان يعتزم فتح مصر بعــد الشأم ، لو لم تتخــذ الحوادث مجرى آخر وتدفعه نحو الشمال . على أن مصر تأثرت أيضا بتلك النكبــة التى سحقت الشأم حصنها من الشرق ، وشغلت حينا بتحصين قواعدها ، وإصلاح أهباتها .

هــذا ، و بينما كانت مصر تختتم يومئذ عصورها المجيدة ، وتنحدر ببطء الى طور جديد من الإنحلال ، وتجنح الى حياة فتور ودعة ، هى أثر عصور طويلة من السلام والعيش الناعم ، إذا بالدولة العثمانية الفتيّة الناهضة ، تفيق من نكبتها بسرعة ، وتفتتح القسطنطينية ، ثم توغل فى الفتح شمالا وشرقا . وكان شبح هذا الخطر الجديد يلوح لمصر قبل وقوعه بأعوام طويلة . ومنذ أوائل القرن العاشر الهجرى (أوائل القرن السادس عشر) كانت الجيوش العثمانية تهــدد الشام من الشمال والشرق . وكانت مصر من جانبها واثقة فى منعتها ، فكانت كلما لاح هذا الخطر تهمّ لدفعه فى أهبات جزئية محلية . غير أن ثقة مصر فى منعتها ، و ربما فى حسن طالعها ، واستسلامها الى نوع من قدر الحوادث ، كانت أعظم أسباب النكبة . فقد لبثت مصر آمنة هادئة ، حتى اتخذ الفاتح كل أهبته ، وسار سلطان مصر للقائه فى أقصى حدوده الشمالية تاركا من ورائه حكومة مفككة العرى ، وقواعد غير محصنة ، وعمالا ذوى أطماع وكيد . فكانت المفاجأة الهائلة فى « مَرْج دابق » ، وكان زوال مُلْك مصر وسيادتها ؛ وكان بدء رقّها ، وفاتحة ذلتها مدى عصور طويلة ، ذوى فيها مجدها التالد ، وركدت فيها كل نواحى عظمتها السالفة ، وانحدرت الى شر ما تنحدر اليه أمة عظيمة من ضروب الإنحلال الفكرى والاقتصادى والاجتماعى .

ذلك أن مصر الاسلامية لم تعرف رغم ما توالى عليها فى عصور الاضطراب والفتنة، من الخطوب والمحن، نكبة أعظم من الفتح العثمانى، ولم تعرف حكماً أتعس وأمرّ من حكم الدولة العثمانية الذاهبة . وإذا كانت فتوح الوندال والبربر والهون تبقى على مر الأحقاب مضرب الأمثال فى الشناعة والهول، واذا كانت آثارها المعنوية تقدّر دائما بمعيار ماحطّمت من صروح المدنية الرومانية، وما قتلت من مجتمعات أو ربا نصف المتحضرة، فان الغزاة الترك كانوا، كما سنرى، أشد وندالية وفظاظة، إذا ذكرنا فروق العصور والمدنيات، وإذا قدرنا مدى الضربة التى أصابت الاسلام والأمم الاسلامية من جراء الفتح العثمانى .

والحقيقة أن فتح الترك للأمم العربية الإسلامية لم يكن إلا تتمة لأعمال السفك والتخريب الهائلة التى بدأها هولاكو وبرابرته التتار بسحق الدولة العباسية والمدنية الاسلامية، فى بغداد فى منتصف القرن الثالث عشر، واستأنفها تيمورلنك فى أواخر القرن الرابع عشر . بيد أن الفتح العثمانى كان باستقراره أعمق أثرا من الوجهة المعنوية، وأشدّ تقويضا للمدنية الإسلامية، من الفتوح التتارية المؤقتة .

* * *

كانت حوادث هذا الفتح الذى سلخت مصر فى غمره وظلماته ثلاثة قرون سود، مادة لتأملات مؤرخ مصرى، قضى أن يشهد المحنة، وأن يختم بأخبارها تاريخه الذى بدأه بتدوين سيرة ما قطعته مصر الإسلامية من عصور الرياسة والمجد . كان محمد بن أحمد بن إياس سليل أسرة شركسية، ظهرت فى مراكز الرياسة، فى مصر والشام، منذ منتصف القرن الثامن، واتصلت بالبلاط القاهرى اتصالا قويا . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ وتوفى بها سنة ٩٣٠ (١٤٤٨ — ١٥٢٣ م) ودرس على جماعة من أعلام عصره ولا سيما جلال الدين السيوطى . وسار فى أثر هذه المدرسة التاريخية المصرية الزاهرة، التى جنحت من التعميم الى التخصيص، ورأت أن تُعنى قبل كل شىء بتاريخ مصر والإفاضة فيه؛ والتى افتتحها المقريزى أعظم أساتذتها بخططه وآثاره الخالدة، وبرز فيها أبو المحاسن بن تغرى بردى

والسخاوى . نشأت وازدهرت ثم تضاءلت فى القرن التاسع (القرن الخامس عشر) . غير أنها وهبت تاريخ مصر الاسلامية أكبر وأنفس مجموعة من الموسوعات والوثائق ، وامتازت بالأخص بتدوين حوادث عصرها بطريق المشاهدة ؛ وقد نشأ ابن إياس فى أواخر عهدها ، فسار على تقاليدها من تدوين تاريخ مصر ، ولكنه لم يوهب كثيرا من كفاياتها الباهرة ، سواء من حيث الطرافة ، أو الإفاضة أو البيان . ولو لم يقدّر لابن إياس أن يشهد حوادث الفتح العثمانى وأن يدونها ، لما كان لأثره عن تاريخ مصر كبير قيمة أو أهمية ، لأنه ليس إلا صورة مصغرة من جهود أسلافه ، مجردة من كل ما يميزها من الدقة والمتانة وعميق البحث .

غير أن ابن إياس لم يُرد على ما يظهر أن يكتب تاريخ مصر كله بنفس الإفاضة التى يتميز بها القسم الأخير من هذا التاريخ ، فبينما نراه يجمل تاريخ الفتح الإسلامى والدول الاسلامية الأولى ، وبينما يتناول تاريخ دول المماليك الأولى بشىء من التوسع ، إذا به ينقلب الى الإسهاب والإفاضة منذ بدء القرن التاسع ؛ فإذا كانت أواخر هذا القرن ، وهو العصر الذى عاش فيه ابن إياس ووعى صوره وحوادثه ، ألفيته يجعل من تاريخه نوعا من السجل اليومى ، لا يفوته أى يدوّن فيه كثيرا من الحوادث الخاصة فضلا عن العامة[1] . أما حوادث الأعوام القلائل التى سبقت الفتح العثمانى ، وحوادث الفتح ذاته ، ثم الأعوام القلائل التى تلته ، فانها تستغرق معظم مجهود المؤرخ ، وتملأ منه أكثر من مجلدين كبيرين .

---

(١) مرجعنا فى هذا الوصف هو النص الذى أخرجته مطبعة بولاق سنة ١٣١٢ هـ من تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور فى وقائع الدهور . ولكن المستشرق كاله (Kahle) الذى قارن نص مطبوع بولاق بما يوجد من تاريخ ابن إياس بخطه بمكتبة الفاتح باستانبول — وهو أربعة أجزاء — يعتقد أن معظم المخطوطات التى انتهت الينا من تاريخ ابن إياس ، إنما هى منتخبات منه فقط ، لأن بينا نرى فيها الاجمال المخل فى تاريخ بعض السنين ، اذا بنا نجد التوسع والإسهاب فى البعض الآخر . هذا الى أنه يوجد تباين كبير بين نص مطبوع بولاق ، وبين نص مخطوط استانبول سواء من حيث المدى والترتيب والصحة ، الى حدّ أن الأنسان قد يتساءل عما اذا كان الأمر يتعلق بكتاب واحد (راجع مقدمة المستشرق كاله الألمانية ، فى الجزء الرابع من بدائع الزهور الذى نشر أخيرا متمما لنص مطبوع بولاق ، ص — ٢) .

وفى هذا القسم الذى يدوّن فيه ابن إياس حوادث عصره، وبالأخص حوادث الفتح العثمانى، وما تقدّمه، وما تلاه، تبدو أهمية مجهوده واضحة . ففيه نجد وثيقة فريدة، تكمل سلسلة الوثائق المتوالية التى تركها لنا المقريزى ، فابن تغرى بردى، فالسخاوى، كل عن حوادث عصره ؛ وبذا نستطيع أن نظفر بسيرة قرن بأسره من تاريخ مصر، ترويه المشاهدة الشخصية . وهى مرحلة ذات أهمية وظواهر خاصة، لأنها تفصل بين مصر الظافرة المستقلة، وبين مصر المغلوبة المستعبدة . ومن المحقق أن حوادثها تنم عن كثير من العوامل والظواهر السياسية والاجتماعية والأخلاقية، التى دفعت بمصر يومئذ الى طريق الإنحلال، ومهدت الى سقوطها فريسة هينة فى يد الظافر، والى استكانتها عصورا طويلة تحت نيره المضطرب .

نشأ ابن إياس كما قدّمنا فى النصف الأخير من القرن التاسع فى مدينة القاهرة، غير أنه لم يظهر فى مجتمعها الفكرى كما ظهر أسلافه وأساتذة «مدرسته» . ولم يبد براعة خاصة فى فرع بعينه من العلوم والآداب . وقد يرجع ذلك الى أن الدرس العام كان ظاهرة التفكير فى عصره . فقد كان أستاذه السيوطى يأخذ بقسط وافر من جميع نواحى العلوم والآداب فى عصره، ولكن شتان ما بين الذهنين . ومال ابن إياس بالأخص الى درس التاريخ والجغرافيا، وعالج نظم الشعر . ولكنه لم يكن مؤرخا عظيما، ولا جغرافيا محققا، ولا شاعرا مجيدا . وكان بيانه يقصر بالأخص عن أداء المهمة الكبيرة التى أخذها على نفسه ؛ فهو يكتب تاريخه بأسلوب ضعيف مفكك، ويلوذ بتكرار النعوت والألفاظ كلما أعوزته حاجة التعبير، ويلجأ الى العامية فى كثير من الأحيان . وهو ما يرجع بلا ريب الى ضعف أصيل فى بيانه ، أكثر مما يرجع الى انحطاط البيان فى عصره ؛ فان معاصريه ابن تغرى بردى، والسيوطى، والسخاوى كتبوا التاريخ وغيره بلغة قوية وبيان متين . كذلك لا نجد فى مباحث ابن إياس، سواء ما تعلق منها بجغرافية مصر وخططها وتاريخ نيلها، مما أودعه كتاب «نشق الأزهار» الذى أشرنا إليه من قبل[1]، كثيرا من التعمق أو الطرافة، وكل ما هنالك

(١) راجع صفحة ٦١ من هذا الكتاب .

أن ابن إياس يقتبس من المتقدمين من مؤرخى مصر، مثل ابن عبد الحكم، والكندى وابن زولاق والقضاعى والمسبحى وابن وصيف شاه والمقريزى وغيرهم . أما الجديد فى تاريخه عن مصر فليس إلا ما كتبه عن عصره، وبالأخص عن حوادث الفتح العثمانى وما تقدمه وما تلاه . وقد لبثت هذه الرواية التى يتركها ابن إياس عن حوادث عصره، فيما انتهى الينا من مخطوطات مؤلفه، عصرا، ناقصة تتخللها ثغرة كبيرة، هى حوادث خمسة عشر سنة من أول شوال سنة ٩٠٦ الى آخر سنة ٩٢١هـ، (١٥٠٠ — ١٥١٥ م) وهى مدة سلطنة السلطان قانصوه الغورى آخر ملوك مصر المستقلة . ولكن البحث الحديث ظفر بها فى مخطوطين : أحدهما بمكتبة باريس، والآخر فى لننجراد، وظهرت أخيرا الى الضياء فى مجلد ضخم [1] . وفيها يتناول ابن إياس عصر السلطان الغورى منذ بدايته، بإسهاب وإفاضة، ويدوّن حوادثه شهرا فشهرا، ويوما فيوما تقريبا ؛ ويتحدث عن كل ما يتعلق بالسياسة والحروب، والبلاط والحكومة، والأمن والقضاء، والوظائف، والشؤون المالية والاقتصادية . ويتتبع بالأخص علائق البلاط القاهرى بالبلاط العثمانى . ويبدو جليا من روايته أن بلاط

---

(١) ظهر هذا المجلد أخيرا . تولت نشره جمعية المستشرقين الألمانية (Deutsche Morgenlaendische Gesellschuft) ؛ وعنى باخراجه الأستاذ باول كاله (Paul Kahle)، الأستاذ بجامعة بون، بمعاونة الأستاذ محمد مصطفى مدرس العربية بها، والأستاذ سو برنهايم، فى مجلد فى خمسمائة صفحة من القطع الكبير (استانبول سنة ١٩٢١) . وصدره الأستاذ كاله بمقدمة بالألمانية قارن فيها النصوص المختلفة التى وصلتنا من مؤلف بن إياس . والمرجع فى نشر هذا الجزء الذى افتقدناه حينا من تاريخ ابن إياس مخطوطان : أولهما محفوظ بمكتبة باريس الوطنية (رقم ١٨٢٤)، ويحتوى على تاريخ مصر من سنة ٨٩١ — ٩١٢ هـ، ومنقول عن نسخة المؤلف الأصلية فى سنة ١١٢٧ هـ . وعنوانه «بدائع الأمور فى وقائع الدهور، فى أخبار الدولة (كذا) الملك الأشرف قانصوه الغورى الأشرفى » . والثانى محفوظ بالمتحف الأسيوى بلننجراد (رقم ٤٦)، ويحتوى على تاريخ مصر من سنة ٩١٣ — ٩٢١ هـ . وموصوف بأنه الجزء العاشر من تاريخ ابن إياس ومنقول عن نسخة المؤلف سنة ١١٢٧ هـ . ويبدأ هذا القسم الجديد من تاريخ ابن إياس — وقد وصف بالجزء الرابع من كتاب بدائع الزهور فى حوادث الدهور — من حيث انتهى الجزء الثانى من نص نسخة بولاق — أعنى من شوال سنة ٩٠٦ هـ . وينتهى بذى القعدة سنة ٩٢١هـ ومن ثم يتصل بالجزء الثالث من نسخة بولاق الذى يبتدئ بأول سنة ٩٢٢هـ، وينتهى الى سنة ٩٢٨ هـ، وهو نهاية التاريخ . وقد أسدت جمعية المستشرقين الألمانية باخراج هذا السفر بعد احتجابه خدمة جليلة للبحث فى تاريخ مصر الاسلامية .

القاهرة، كان يشعر بأن خطر الفتح التركى لمصر غدا قريب الإنقضاض، ويصانع بلاط قسطنطينية ما استطاع سبيلا الى ذلك(١) . وكان سلطان الترك سليم الأول من جانبه يخادع سلطان مصر ويهاديه ويراسله(٢) . على أن بلاط القاهرة لم يخدع ولم يطمئن . بل كان الغورى دائب الأهبة والاستعداد . ولكن الإنحلال كان يسود شؤون مصر يومئذ، وكانت الثورات الداخلية تفت فى نظمها وأهبتها : وكان الفساد يقضم أسس نظمها العامة سواء فى الإدارة أو القضاء(٣) . ويتحدث ابن إياس عن مقدمات الفتح، ويذكر كيف أن أميرا مصريا، نقم على السلطان، وفر الى قسطنطينية، ونقل الى سليم الأول أخبار مصر وأحوالها، وأطلعه على قواتها وأسرار دفاعها، وحدثه عما يسودها من الاضطراب والضعف . ثم يقول : «فعندئذ طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر والله تعالى غالب على أمره»، مما يدلى بأن المجتمع القاهرى كان يشعر بدنو النكبة وانقضاضها(٤) .

• • •

وفى هذا القسم من روايته، أعنى تدوين حوادث عصره، وهو يشمل زهاء نصف قرن، من أواخر القرن التاسع الى سنة ٩٢٨ هـ، يبدى ابن إياس نوعا من الطرافة والبراعة، ويبدى بالأخص دقة فى الملاحظة، ومقدرة لا بأس بها فى تحليل الأنفس والعواطف . وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه الى سير الحوادث نفسها والى المفاجآت والوقائع الغريبة التى قدر للمؤرخ أن يشهدها فى خاتمة حياته، فهى التى تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق . ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصرى فى هذا العصر، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب فى بعض أثوابه الحقيقية، وأن نقرأ فى سلوكه وتصرفاته كثيرا من عواطفه وميوله وبوادر نفسه، وأن نقف على صور شائقة من عاداته وأحواله

(١) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٢٨٩

(٢) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٢٠٠ و ٣٨٤

(٣) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٢٤٩ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٦٤

(٤) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٤٧١ و ٤٧٣

الإجتماعية . وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها . ولكن لابن إياس فضلا في ذلك، هو أنه يعنى في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة، وتتبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الإجتماعية المختلفة؛ فنرى في روايته، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات، اجتماعيا واقتصاديا، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها، عاش الناس أم هلكوا؛ ونشعر بوحى القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحا في سياسة السلاطين، كما نراهم سند السلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوى والأحكام؛ ونرى الطبقة المتوسطة منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط في مجرى الحوادث. أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاخبة فائرة، تظهر في طليعة كل اضطراب، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفى أمام القوة . ويتتبع ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم من غضب ورضى ومرح واكتئاب، في نبذ ممتعة كثيرا ما تثير الابتسام .

أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة، فيعرضها ابن إياس في سياق روايته خير عرض، فيشرح لنا كيف كان يلى السلطان العرش، ويباشر الحكم بنفسه أو على يد خاصته وأمرائه . وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التي عرفت، يمترج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء، وسلطات الحرب والمالية، كلها في صعيد واحد؛ وكانت مناصب القضاء الأعلى، وهي أربعة، لكل مذهب من المذاهب الأربعة منصب يملؤه قاض للقضاة، تعتبر من الوجهة النظرية أرفع مناصب الدولة، ويلحق بها منصب المحتسب العام . ولم تكن ثمة وزارة وإنما كانت الهيئة التنفيذية مزيجا من عدة مناصب كبرى، يعلوها الأمير الكبير، وأمير المجلس، والأمير اخور، والأمير الداوادار الكبير، والاستادار، وكاشف الكشاف، وأمير السلاح[1] . وكان اختصاص هذه الوظائف يتقلب ويختلف باختلاف

---

(١) لا يتسع المقام لأن نشرح اختصاص كل من هذه المناصب بالتفصيل، ولكنا نذكر فقط أن المحتسب العام يسهر على تنفيذ القوانين (الشريعة) ويضرب على أيدى المنتهكين لأحكامها فهو كالنائب العام =

السلاطين . ويتتبع ابن إياس هذه التقلبات بعناية، ويذكر أسماء القضاة والوزراء والأمراء والنواب وغيرهم من كبراء الدولة فى كل حكم . وترى مما يذكر الى أى حد كانت دولة المماليك الشراكسة تمعن فى المركزية والاستئثار بالسلطات ، فلم يكن بيد المصريين من مناصب الدولة سوى القضاء فى الغالب؛ وترى كيف كانت المناصب سلعة تباع وتشترى، ويتجر فيها السلطان والأمراء والقضاة؛ وكيف كانت الحقوق والأموال ، بل الأرواح فى كثير من الأحيان ، معلقة على نزعات العسف والتحكم والهـــوى .

ويستعمل ابن إياس فى رواية الحوادث والأوامر العامة لغة الدواوين أو اللغة الرسميـــة ، كما أنه يستعمل العبارات والأساليب التى كانت سائدة فى ذلك العصر، فى التعبير عن كثير من شؤون الحياة الإجتماعية، وفى تصوير كثير من العادات والأحوال. وهذا وجه طريف فى روايته، فهو لا يلجأ الى أسلوبه وعباراته الخاصة حيثما كانت هنالك لغة رسمية أو عبارات ذائعة متداولة . فنراه مثلا يتحدث دائمـــا عما «يرسمه» السلطان من الأوامر،وعمن «يرسم» بشنقهم أو توسيطهم من الكبراء أو العامة، وعمن يقضى بإقامتهـــم فى الترسيم (الإعتقال أو الحجز) لديون أو جرائم؛ ويذكر فى مواضع كثيرة كيف كان السلطان أو الوالى أو المحتسب يشهر فى القاهرة «المناداة بالأمان والاطمئنان، والبيع والشراء» كلما حدثت فتنة أو سرى الى الناس جزع أو انزعاج، ويورد الأوامر والنداءات فى ذلك وغيره بألفاظها الرسمية؛ وكيف كان ينذر المخالفون دائما، «بالشنق بلا معاودة» . كذلك يصف لنـــا حياة البلاط والمواكب السلطانية وغيرها من المواكب العامة،وكيف كان السلطان يشق القاهرة، «فتفرش له الشقق الحرير فى الطريق، وترتفع له الأصوات بالدعاء والنصر، وتنطلق له النساء بالزغاريت من الطيقان» ؛ويشير دائما الى شؤون العصر وعاداته الإجتماعية

= فى عصرنا من بعض الوجوه . والأميراخور هو ناظر الاصطبلات والركائب الملكية ومتولى جميع أمورها . والداوادار هو المتولى تبليغ الرسائل السلطانية ثم كانت له بعد ذلك الولاية والعزل . والاستادار متولى أمر البيوت السلطانية (ناظر الديوان الخاص) . وأمير السـلاح كوزير الحربية اليه شؤون الجيش . وكاشف الكشاف كوزير الداخلية اليه مرجع كشاف الأقاليم أو مديريها .

فيصف الحفلات والأعراس والجنائز الشهيرة ، فى عبارات واحدة دائما كقوله عن حفلة زواج شهيرة : «فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغنيات خمس وعشرون رئيسة ، ومدّوا فيه أسمطة حافلة ، من الأطعمة الفاخرة ، وصنعوا فيه شموعا مزهرة بين وشامات وكان من المهمات المشهورة» . وهكذا . وهى لغة العصر الإجتماعية يوردها ابن إياس دائما فى مواطنها الى جانب اللغة الرسمية . ويصف ابن إياس أيضا الخلع الملوكية ، وثياب الأمراء ، والقضاة والجند ، والخاصة والعامة ، وما يعتورها من تحوير وتغيير ؛ كذلك يصف التقلبات الإقتصادية من غلاء ورخاء ، وتغييرات النقد وآثارها فى المعاملات . وعلى الجملة فانه يصوّر لنا فى سياق روايته ، مجتمع عصره سواء فى الحياة العامة أو الخاصة ، أو فى الخلال والعادات والميول والأهواء ، تصويرا قويا شائقا .

٢

كانت حوادث الفتح العثمانى آخر ما دوّن قلم ابن إياس ؛ فهو يصل فى روايته حتى خاتمة سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) . ونحن نعرف أن المؤرخ توفى بعدئذ بقليل (سنة ٩٣٠ هـ) . ورواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى هى كما قدّمنا أهم وأنفس ما فى أثره ، وإن كان بيانه لم يسبغ عليها كل ما يجب من دقة وقوة . فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة ، الحاسمة فى تاريخ مصر وتاريخ الاسلام ، سجلا يوميامسهبا ، يستند الى تحقيق المعاصرة والمشاهدة . وهو لا يمهد فيه الى الحوادث ، ولا يعنى بربطها ، بل يدوّنها مرسلة كما وقعت ، ويحصى آثارها إحصاء من رأى وسمع . وما كان لابن إياس أن يمهد أو يكثر التعليق فى رواية انقلاب مفاجئ صعقت مصر لحوادثه السريعة المدهشة ، وقضت من بعده حينا بين التصديق والتكذيب ، والرجاء واليأس . وكل ماهنالك أن ابن إياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، بالاستناد الى الحوادث دائما ، فنراه يحمل على السفاكين والظلمة فى عبارات شديدة وأحيانا مؤثرة ، ويغتبط بمصرعهم ، ويعنى بالتبسط فى سرد فظائع الترك وآثام الفاتح ، ويشيد

ببطولة طومان باى آخر الزعماء المدافعين عن حرية مصر، ويبكى مصرعه ومصرع أعوانه وجنده، ويرسل عبارات التأثر أو السخط أو الغضب أو الإشفاق كلما عن له ذلك. على أن قصور بيانه كثيرا ما يعجزه به عن أن يسبغ على هذه البوادر النفسية كل ما يجب من القوة والوضوح . وهذا القصور فى البيان ينتقص كثيرا من قيمة الرواية التى يخلفها لنا ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى . كان ابن إياس بحاجة الى بيان كبيان جيبون[1] ليستطيع إخراج الصور التى يقدمها الينا فى أثوابها الرائعة، وليصف لنا فظائع الترك فى القاهرة، وما جنوا على الأنفس والأموال والنظم؛ كما وصف جيبون بقلمه الجبار فظائعهم فى قسطنطينية، وما ارتكبوه فيها يوم افتتاحها من شنيع السفك والإثم ، وما جنوا على الحضارة البيزنطية بقية أعظم الحضارات الخالدة . غير أن ابن إياس لم يكن مصورا بارعا للحوادث، ولم يكن بالأخص ناقدا قوى التعليل، يقرأ فى الحوادث غير نواحيها المادية . ولكن كثيرا من الإفاضة، وقليلا من التأمل، وطرفا من الملاحظة القوية ، تعوض عن هذا النقص فى كثير من المواقف؛ وتقدم الى الناقد مادة لا بأس بها .

وقد بينا كيف أن مصر كانت ترتجف لشبح هذا الفتح قبل وقوعه، وكيف أن المؤرخ كان يستشعر النكبة . ولكن مصر لم تكن تتوقع أن يسحق استقلالها ومجدها فى لمحة صاعقة . فكانت «مَرْجُ دابِق» مفاجأة مروعة، ذهلت لها مصر وصعقت . ويبدو أثر هذا الروع واضحا فى أول صرخة تبدر من المؤرخ فى ذكر النكبة إذ يقول : «وفى يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار»[2] . ولا غرو فقد خرج السلطان الغورى، الى شمال الشأم قاصية الحدود المصرية، بجيشه المزهر، ليرد عادية الغزاة عن مصر، فكانت «مَرْجُ دابِق» قبرا له وقبرا لحريات مصر . يقول المؤرخ : «وزال ملك

---

(١) إدوارد جيبون Gibbon المؤرخ والفيلسوف الانكليزى الشهير (١٧٣٧ — ١٧٩٤)، مؤلف كتاب Decline and Fall of the Roman Empire «اضمحلال وسقوط دولة الرومان»

(٢) بدائع الزهور — ج ٣ ص ٤٥

الأشرف الغورى فى لمح البصر فكأنه لم يكن فسبحان من لا يزول ملكه »[١] .
ويفيض فى تفاصيل الواقعة الهائلة التى نشبت بين الغزاة، وبين الجيش المصرى فى «مرج دابق» فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢ هـ ، (أغسطس سنة ١٥١٦) وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب؛ ويصف صدى النكبة فى القاهرة وكيف «قام نعى السلطان فى ذلك اليوم ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا . وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء ... ورجت القاهرة، وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال»[٢] . ثم يقف المؤرخ قليلا ليصف الغورى وخلاله ويعدد مثالبه ومآثره؛ وينظم فى ذلك قوله :

طالعت تاريخ الملوك فلم أرى	فيما سمعت حوادثا مما جرى
لا زالت الأيام يبدو فعلها	بعجائب وغرائب بين الورى
لكن هذى وقعة ما مثلها	سبقت لسلطان ولا متأمرا
والأشرف الغورى كان مليكا	لكنه قد جار فينا وافترى
أعماله ردت عليه بما جنى	والدهر جازاه بأمر قدرا

ويختتم ابن إياس حديثه عن الغورى وعن عصره وأعماله بإيراد زجل طويل مؤثر لصديقه بدر الدين الزيتونى ، وهو من أشهر أدباء هذا العصر ، وفيه يصف النكبة ويرثى الغورى فى مقاطيع مبكية نقتبس منها ما يأتى :

غُربت شمس دولة الغورى	وابن عثمان نجو طلعساير
وبهذا رب السّما قد حكمْ	والفلك دار ولم يَزَل داير

*

والعجائبْ فى قَتْلة الغورى	راح بريحلو لقتلو خاطر
وحَسبنا كل الحساب إلا	ما جرى لو ما مرّ بالخاطر
دمعة العين منى على الغورى	من دماها تجرى لحزنى عين

(١) بدائع الزهور — ج ٣ ص ٤٧
(٢) بدائع الزهور — ج ٣ ص ٥٢ — ٥٣

أرتجى فى الناس عين تساعدنى　　من صباحى حتى تغيب العين
كان عليـه ترقب زمان ملكو　　والسعاده حتى أصابو عين

* * *

ذى العساكر شبهتها روضـه　　فيها أغصان فرسان عليها زهور
واللبوس من الحديد تحكى　　ورد أحمر بين الرياض منثور
والإماره تحكى شجـر مثمر　　فى رياض نشرو غـدا عاطر
والمدافع ترمى سـفرجل كبار　　ولى رمان يحكى من الفحول فاخر
كم أسـلى قلبى على الغورى　　وأقلو يا قلب انفكر
كل حادث بأمر القديم راحل　　والإقامه للأول الآخـر

* * *

يا الذى جا يسمع عقود نظمه　　خـذ وحرر عنو بديع نقلوا
وإن أتى لك من يطلب التاريخ　　والوقائع عن الملوك قلو
غربت شمس دولة الغـورى　　وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهـذا رب السما قـد حكم　　والفـلك دار ولم يزل داير (١)

ويتتبع ابن إياس حركات الغزاة بإفاضة منذ « مرج دابق » حتى قدومهم الى القاهرة فى أواخر ذى الحجـة سنة ٩٢٢ هـ (ديسمبر سنة ١٥١٦) . ويصف أهبة السلطان طومان باى لمقاومة الفاتح، بحماسة، وينوه «بهمته العالية» فى إعداد وسائل الدفاع، ويجيد شرح الوقائع الهائلة التى نشبت متعاقبة بين الجيش التركى وعلى رأسه سليم الأول، وبين الجيش المصرى وعلى رأسه طومان باى والمماليك، وكيف عبس القدر لمصر وجيشها، فهزم طومان باى مرارا فى أنحاء القاهرة وضواحيها ؛ ولكنه استمر فى دفاعه جلدا مستبسلا حتى انفض عنه معظم أنصاره وجنده، ففر الى الصعيد يجمع هنالك أشتات جيشه وأحبائه . وانقض الغزاة البرابرة على القاهرة كالضوارى

(١) راجع هذه القصيدة المبكية بأكملها — ج ٣ ص ٦٤ — ٦٨.

المفترسة، فأوقعوا فى سكانها السفك الذريع ، وأمعنوا فى الآمنين قتلا وعيثا وفتكا ونهبا ، ودامت هذه المذبحة الهائلة أياما أربعة من ثامن المحرم سنة ٩٢٣ (أوائل فبراير سنة ١٥١٧) ويصفها ابن إياس «بالمصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان» ويقول : «إن الجثث كانت مرمية فى الطرقات من باب زويلة الى الرميلة، ومن الرميلة الى الصليبية، إلى قناطر السباع، الى الناصرية، الى مصر العتيقة» ويقدر القتلى بأكثر من عشرة آلاف، ويقدر من قتل من المماليك فقط بثمانمائة. ولكن هذا التقدير متواضع جدا، إذ يقدر البعض ضحايا هذه الجريمة الشائنة بخمسة وعشرين ألفا. ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى أمر سليم الأول بإعدام الأمراء المماليك، وكان قد احتال عليهم ووعدهم بالأمان حتى ظهروا ، وعددهم أربعة وخمسون أميرا وقائدا، وقبض على نسائهم وفرض عليهن الغرامات الفادحة . ثم كانت الموقعة الأخيرة والفاصلة فى السادس من ربيع الأول (أبريل سنة ١٥١٧) بين الغزاة ، وجيش طومان باى؛ فان هذا الأمير الجلد الشجاع عاد بقواته على مقربة من الجيزة يحاول مرة أخرى إنقاذ الوطن من براثن الوندال، ولكن القدر ظل على عبوسه له، فهزم للمرة الخامسة ، وغاض كل أمل فى إنقاذ حريات مصر واستقلالها ، وظفر الفاتح بعد ذلك بطومان باى، وأمر بإعدامه، فشنق على باب زويلة أمام أعين ذلك الشعب الذى كان مليكه قبل ذلك بأشهر قلائل، والذى أحبه وقدر خلاله . ويرثيه المؤرخ فى قوله : «صرخت الناس عليه صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف . وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم مالا يحصى ، ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العنترة ... وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا... ولم يسمع بمثل هذه الوقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولم يعهد مثل هذا .

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولى وزال كأنه لن يذكرا»[1]

---

(١) بدائع الزهور — ج ٣ ص ١٦٥-

ولبث سليم الأول فى القاهرة زهاء ثمانية أشهر، يذيق وجنده، المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة، ويجمع من تراث مصر وثروتها الفنية كل ما وصلت اليه يده، ويخرب المساجد والآثار الخالدة لينتزع منها نفائسها الفنية، ويبعث بها الى قسطنطينية؛ ويقبض على أكابر مصر وزعمائها، وعلمائها، ورجال المهن والفنون فيها، ومهرة الصناع والعمال، ويحشدهم أكداسا فى السفن ويبعث بهم الى قسطنطينية؛ وكان فى مقدمة هؤلاء المتوكل على الله آخر خلفاء بنى العباس بمصر وأفراد أسرته؛ وجماعة كبيرة من الأمراء والقواد والقضاة. وكان الفاتح يرمى بذلك الى غرضين: الأول تجريد مصر من أكابرها وزعمائها ليحطم بذلك عصبيتها، ويقتل قواها المعنوية؛ والثانى نقل تراث مصر الفنى والفكرى والصناعى الى قسطنطينية. ويقول ابن إياس فى ذلك: «وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلها» ويعقد فصلا خاصا يذكر فيه أسماء كل من نفى الى قسطنطينية من أكابر مصر وأعيانها ومفكريها وفنانيها[1]، ويختم هذه الوقائع كلها بقصيدة طويلة من نظمه هذا مطلعها:

نوحوا على مصر لأمر قد جرى	من حادث عمّت مصيبته الورى
زالت عساكرها من الأتراك فى	غمض العيون كأنها سنة الكرى

ويفيض المؤرخ فى أعمال الفاتح وجوره، وما أصاب شعب مصر من بطشه وعسفه حتى مغادرته مصر، ثم يتتبع أخباره بعد ذلك حتى وفاته عام ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م)، ويترجمه بهذه المناسبة، ويرثيه بأبيات من نظمه[2].

---

(١) بدائع الزهور — ج ٣ ص ١١٩

(٢) تستوقف النظر هنا إشارة بدرت من المؤرخ، فهو يحيل القارئ فيما ارتكبه سليم الأول فى مصر، الى كتاب له يسميه بدائع الزهور فى وقائع الدهور، وذلك فى قوله: «ومن أراد أن ينظر ما وقع منه بالديار المصرية فلينظر الى الجزء الخامس من تاريخنا «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» (ج ٣ ص ٢٣٤) ووجه التساؤل هنا، هو أن مؤلف إياس فى تاريخ مصر، وهو الذى ندرسه فى هذا الفصل، يسمى بهذا الاسم أعنى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» فهل تكون هذه التسمية خطأ، وهل يكون «بدائع الزهور» هذا =

ومن الغريب أن ابن إياس يبدى فى عواطفه نحو الفاتحين تردّدا واضطرابا ؛ فبينما يحمل على سليم الأول ، ويعدّد جرائمه ومثالبه فى حق وطنه ، إذا به يلقبه بالملك المظفر ، ويترحم عليه حين يذكر نبأ وفاته ، ويدعو بالنصر لولده وخلفه سليمان . ومن الصعب أن نضبط عواطف المؤرخ فى هذا الموقف ، وفى كثير غيره ؛ ومن الصعب أيضا أن نتعرف حقيقة المؤثرات التى ربما دفعت قلم المؤرخ بما قد يخالف حقيقة عواطفه ؛ فلعله وهو كما رأينا يتحدر من أصل شركسى أو تركى ، يتأثر هنا بنوع من عصبية الجنس . ومن جهة أخرى ، فقد كان ابن إياس يدوّن روايته فى عهد اضطراب وفتنة ، وربما كان هذا التردّد بين المديح والذم ، نوعا من حرية التقدير عند ابن إياس ، فهو مثلا لا يحجم عن الحملة على مواطنيه ووصفهم بأنهم « ليس لهم عقول يصدّقون بالمحالات الباطلة » .

هذه هى رواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى ، وهى وثيقة تستمد نفاستها ، رغم ضعف بيانها ، من المعاصرة والمشاهدة . بيد أنه يجب ألا نبالغ فى مدى هذه المشاهدة ، فان ابن إياس لم يكن جنديا يخترق الصفوف ، ولم يكن من رجال الدولة أو القادة . والظاهر أيضا أنه كان قليل الطواف والتنقل فى تلك الأيام العصيبة التى دوّن حوادثها ، فهو مثلا لم يحاول أن يرى سليما الأول رغم إقامته فى القاهرة عدّة أشهر ؛ وهو لذلك يعتمد فى وصف شخصه على صديق له رآه . ولا غرو فقد كان ابن إياس فى ذلك الحين شيخا يجاوز السبعين ؛ وربما لحقته أوصاب المرض . غير أن ابن إياس كان أديبا ومفكرا كبيرا ، يتصل بأكابر عصره ؛ وكان فى وسعه أن يتحرى من المصادر والجهات المطلعة ، وكان يشهد بعينه كثيرا من المناظر والآثار المادّية لما يدوّن من الحوادث ، ومن ثم كانت أهمية روايته ونفاستها . بل إن المؤرخ لا يملك نفسه أن يهتف لنفسه

= مؤلف آخر لابن إياس غير الذى وقع فى يدنا وعرف بهذا الاسم ؟ على أنا نرجح أن «بدائع الزهور» الذى يشير اليه المؤرخ انما هو المطول لمؤلفه ، لأن النص الذى نشرته مطبعة بولاق قد نقل كما قدمنا عن مختصرات فقط لتاريخ ابن إياس .

فى خاتمة مؤلفه ، وأن يملق نفسه بأنه «وقع له فيــه من المحاسن ما لم يقع لغيره من المؤرخين» وأن :

«تاريخنا بهجة المجالس يطرب من لفظــه المجالس
سمـاعه للورى ســرور يشرح صـدرا لكل عابس»

أما نحن فنرى فى رواية ابن إياس ، وما يسرده من حوادث هذا الفتح الوندلى ، وفى ذلك الاستشهاد الطويل المروع الذي عانتــه مصر تحت النـير التركى الغاشم ، درسا قوميا خالدا عميق الأثر ، ومثلا حيًّا ساطعا لسياسة السفك والتخريب الآثمة ، التى وصمت الى الأبد ذكرى الوندال والهون والتتار ، ومن اليهم من الشعوب البربرية الغازية ؛ ونبراسا مستنيرا لفهم نفسية هذه الشعوب الهدّامة ، وتقدير مجدها الذى لم يقم إلّا على اجتياح الشعوب والمدنيات الزاهرة .

ملاحـــق وفهارس

الملحق الاول

الكتب الفـاقدة التى تناولهـا البحث
وذكرها من عدمه فى معجم كشف الظنون

تناولنا خلال الكلام عن «الخطط فى تاريخ مصر» ، ذكر كثير من الكتب التى
ث فى موضوع الخطط المصرية ، ولم نتلقاها فيما تلقينا من تراث مصر التاريخى ،
ومن بينها آثار هامة جامعة . كذلك أشرنا الى كتب أخرى لمؤرخى الخطط فى غير
موضوع الخطط ، ولكنها تلق ضياء عليه ، بما تميزت به من عصور ومراحل معينة
فى تاريخ مصر الإسلامية . وقد فقدت هذه الآثار وتلك ، ولم يصلنا من معظمها
سوى شـذور اقتبسها الكتّاب المتأخرون الذين وصلت الينا آثارهم وبالأخص
المقريزى ، ونبهنا اليها فى مواضعها ، كما أننا لم نعرف عن بعضها سوى الاسم . وقد
تعقبنا ذكر هــذه الآثار الضائعة فى تاريخ مصر الإسلامية حيثما استطعنا فى كتب
المتأخرين . ورأينا هنا أن نتعقبها أيضا فى أعظم فهرس جامع لتراث الآداب العربية ،
ونعنى به كتاب « كشف الظنون عن أسامى الكتب الفنون » لحاجى خليفة التركى .
وقد ولد حاجى خليفة باستانبول سنة ١٠١٧ هـ وتوفى بها سنة ١٠٦٧ (١٦٠٨ — ١٦٥٧) ،
فهو قد عاش فى عصر متأخر ، بعد أن استقر الفتح العثمانى فى مصر بأكثر من قرن ،
وانتهت الثورات والفتن التى كانت الآداب تختفى فى غمارها ، وتفتقد الآثار .
وطاف حاجى خليفة عواصم العالم العربى أثناء حياته العسكرية ، فزار بغداد ، وحلب ،
ودمشق ، وحج الى مكة ، وانتفع بالبحث والدرس فى مكاتب إستانبول ، التى كانت

يومئذ أكبر مستودع للكتب والآثار العربيـة . ولكنه لم يزر القاهرة ، ولم تتح له فرصة الدرس فى مكاتبها ومجموعاتها . وليس من المحقق أن حاجى خليفة قد شهد شهود العين جميع الآثار التى يذكرها فى معجمه ؛ بل هنالك ما يدل على أنه اعتمد بالأخص فى ذكرها على المطالعة والنقل ، فهو يقول فى مقدّمة كتابه : «وقد ألهمنى الله تعالى جمع أشتاتها (أى العلوم) ، وفتح على أبواب أسبابها ، فكتبت جميع ما رأيته فى خلال تتبع المؤلفات ، وتصفح كتب التواريخ والطبقات» . ومع ذلك فان ذكر حاجى خليفة لكتاب أو أثر معين قـد يتخذ فى كثير من الأحيان دليـلا على وجوده فى عصره ، أعنى فى القرن الحادى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ، وقد يشجع على تتبعه ، والبحث عنه فى مظان وجوده . لذلك رأينا أن نبين هنا ما تناوله حاجى خليفة فى « كشف الظنون » بالذكر والإشارة ، من الآثار الفاقدة التى ورد ذكرها فى «الكتاب الأول» من كتابنا أعنى كتاب « الخطط فى تاريخ مصر » ، سواء كانت فى موضوع الخطط ذاته ، أو لكتّاب الخطط على العموم .

ولنلاحظ بادئ بدء أن حاجى خليفة يكتفى فى ذكر «الخطط» وآثارها الهامة ، بنقل ما أورده المقريزى عنها فى مقدّمته ، فيقول :

« خطط مصر ، وهى جمع خطة بمعنى محلة أو بلد لأنه يخط عنـد التحديد . وأول من صنف فيـه أبو عمر محمد بن يوسف الكندى . ثم القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ ، سماه «المختار فى ذكر الخطط والآثار» . ثم كتب تلميذه أبو عبد الله بن بركات النحوى المتوفى سنة ٥٢٠ . ثم كتب الشريف محمد بن اسماعيل الجوّانى المتوفى سنة . . . وسماه «النقط بعجم ما أشكل من الخطط» . ثم كتب القاضى تاج الدين بن عبـد الوهاب بن المتـوج ، وسماه «إتعاظ المتأمل ، وإيقاظ المتغفل» ، فبين أحوال مصر الى حدود سـنة خمس وعشرين وسـبعمائة ، قـد دثر بعده معظم ذلك . ثم كتب القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظّاهر ، وسمـاه « الروضـة البهية الزاهرة ، والخطط المعزية القاهرة » . ثم صنف الشيخ تقى الدين بن عبد القادر المقريزى المتوفى سـنة ٨٤٥ كتابا مفيداً ، وسماه « المواعظ

والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» أحسن فيه وأجاد، وهو المشهور المتداول الآن.
ولهذا الكتاب ترجمة بالتركية عملها بعض العلماء للأمير ابراهيم الدفترى بسنة ٩٦٩...» (١)

وهـذا بيان بالكتب الفاقدة التى ورد ذكرها أو لم يرد فى «كشف الظنون» مما ذكرناه ودرسناه فى مواضعه :

الكندى :

كتاب الخطط — ذكر فى ج ٢ ص ١٤٦ و ج ٣ ص ١٦٠.
كتاب أخبار مسجد أهل الراية الأعظم — لم يرد ذكره .
كتاب الجند العربى — لم يرد ذكره .
كتاب الخندق والتراويح — لم يرد ذكره .
كتاب الموالى — لم يرد ذكره .

ابن زولاق :

تاريخ مصر — ذكر فى ج ٢ ص ١٠٢
كتاب الخطط — ذكر فى ج ٢ ص ١٤٨
سيرة المعز لدين الله — لم يرد ذكره .
سيرة الإخشيد — لم يرد ذكره .

المسبحى :

تاريخ مصر أو أخبار مصر — ذكر فى ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٨

القضاعى :

المختار فى ذكر الخطط والآثار — ذكر فى ج ٢ ص ١٤٦ و ج ٣ ص ١٦٠ و ج ٥ ص ٤٣٦

(١) كشف الظنون — طبعة المستشرق فليجل (Fluegel) — ج ٣ ص ١٦٠ — ١٦١ وهى الطبعة التى نشير اليها هنا . وظاهر أن حاجى خليفة ينقل من المقريزى (الخطط — ج ١ ص ٤) بالنص . ولكنه فقط، يقدم ذكر كتاب ابن المتوج على ذكر كتاب ابن عبد الظاهر، وهو تحريف فى النقل .

ابن بركات النحوى :

كتاب الخطط — ذكر فى ج ٢ ص ١٤٦ وج ٣ ص ١٦١

الجوانى :

النقط بعجم ما أشكل من الخطط — ذكر فى ج ٢ ص ١٤٦ وج ٣ ص ١٦٠

ابن عبد الظاهر :

الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة — ذكر فى ج ٢ ص ١٤٧ وج ٣ ص ١٦١ و ٤٩٩

سيرة الملك الظاهر أو السيرة الظاهرية — ذكر فى ج ٣ ص ٦٤١

ابن وصيف شاه :

تاريخ مصر — لم يرد ذكره .

ابن المتوج :

إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل — ذكر فى ج ١ ص ١٥١ وج ٢ ص ١٤٦ وج ٣ ص ١٦٠

ابن دقماق :

كتاب الإنتصار — ذكر فى ج ١ ص ٤٤٧، ووصف بأنه كبير، فى عشر مجلدات — وذكر أيضا فى ج ٢ ص ١٤٩

الأوحدى :

كتاب الخطط — لم يرد ذكره .

أحمد الحنفى :

الروضة البهية، تلخيص كتاب المواعظ والاعتبار المقريزية — لم يرد ذكره .

ابن سعيد الأندلسى :

كتاب المغرب فى أخبار [أهل] المغرب — ورد ذكره فى ج ٢ ص ١٠٣ و ١٥١ وج ٥ ص ٤٩٨ و ٥٥٦

عبد اللطيف البغدادى :

كتاب أخبار مصر [الكبير] — ذكر فى ج ١ ص ١٩٠ و ١٩١ وج ٢ ص ١٤٩

هذا ما ذكره صاحب كشف الظنون وما لم يذكره من الآثار الفاقدة التى تناولناها خلال بحثنا . وذكر هذه الآثار لا يدل حتما على أن صاحب كشف الظنون قد عاينها ورآها، فيدل بذلك على أنها كانت موجودة متداولة حتى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى . على أن ذكرها من جهة أخرى يدل على أنها كانت الى ذلك العصر خية فى الأذهان، ماثلة فى البحث والمراجعة، مما يرجح وجودها أو العلم به . وقد رأينا أن كثيرا منها يرد ذكره فى كتب بعض المؤرخين المتأخرين مثل السخاوى والسيوطى، فى معرض الإسناد والمراجعة، مما يدل على أنها كانت حتى أوائل القرن العاشر موجودة متداولة . فالمرجح أنها كانت أيضا موجودة فى القرن الحادى عشر . واعتقادنا أن الأمل لم يقطع نهائيا من وجودها، فقد يظفر البحث الحديث من آن لآخر بشىء منها، مقبورا فى ظلمات بعض المكاتب والمجموعات الخاصة، بعد أن يئس من الظفر بها فى المكاتب العامة . وقد عثر البحث الحديث بآثار فى تاريخ مصر، كانت قد غاضت آثارها وضاع الأمل بوجودها، مثل كتاب تسمية الولاة وكتاب تسمية القضاة للكندى، وجزء من كتاب «المقفى» للقريزى، وغيرها .

الملحق الثانى

الكتب التى دُرِست أو وُصِفت خلال البحث

صفحة

الملحق الثالث

ثبت بالمصادر

كتاب فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم .

كتاب فتوح الشام، للواقدى .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، للمقريزى .

السلوك فى دول الملوك، »

إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء، »

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، للسيوطى .

الكاوى على تاريخ السخاوى، »

الخطط التوفيقية، لعلى باشا مبارك .

صبح الأعشى، للقلقشندى .

نهاية الأرب، للنويرى .

كتاب المغرب فى حلى المغرب، لابن سعيد الأندلسى .

المسالك والممالك، لابن حوقل .

رحلة ابن جبير .

رحلة ابن بطوطة .

الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، لابن دقماق .

كتاب تسمية ولاة مصر، للكندى .

كتاب تسمية قضاة مصر، »

وفيات الأعيان، لابن خلكان .

فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي .
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، للعينى .
معجم البلدان، لياقوت الحموى .
أخبار مصر، لابن ميسر .
تاريخ ابن خلدون .
تاريخ ابن الأثير .
رفع الإصر عن قضاة مصر، لابن حجر العسقلانى .
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع، للسخاوى .
التبر المسبوك فى ذيل للسلوك، للسخاوى .
تحفة الأحباب، للسخاوى .
الإعلان بالتوبيخ فيمن ذم أهل التاريخ، للسخاوى .
تاريخ أبى صالح الأرمنى .
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، للجبرتى .
أخبار سيبويه المصرى، لابن زولاق .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، لابن تغرى بردى .
كتاب الإفادة والاعتبار، لعبد اللطيف البغدادى .
عجائب المقدور فى أخبار تيمور، لابن عربشاه .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور (بولاق) لابن إياس .
الجزء الرابع من بدائع الزهور (استانبول) »
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، لحاجى خليفة .

BUTLER : The Ancient Coptic Churches of Egypt.

BOCCACCIO : Das Dekameron.

CASIRI : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

CONDÉ : Histoire de la Domination des Arabes en Espagne.

DARU : Histoire de Venise.

DERENBOURG : Les Manuscrits Arabes de l'Escurial.

DESCRIPTION DE L'EGYPTE.

ENCYCLOPÉDIE DE L'ISLAM.

FINLAY : Greece under the Romans.

GIBBON : Decline and Fall of the Roman Empire.

IRVING : Conquest of Granda.

JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY.

H. CH. LEA : History of the Moriscos.

MEMOIRS OF THE CRUSADES (Trans. Marzials).

W. PERTSCH : Die Orientalischen Handschriften der Herzoglichen Bibliothek zu Gotha.

PRESCOTT : History of Ferdinand and Isabella of Spain.

SISMONDI : History of the Italian Republics.

WUESTENFELD : Geschichte der Fatimiden.

: Geschichte Schreiber der Araber.

فهرس الموضوعات

صفحة

الكتاب الأول

الخطط فى تاريخ مصر

الكتاب الثانى

فى تاريخ مصر الاسلامية

ملاحق وفهارس

فهرس أبجدي عام

INDEX

وكان تمام طبع هذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم السبت ٤ رجب سنة ١٣٥٠ (١٤ نوفبر سنة ١٩٣١)

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٠١٨/١٩٣١/٢٠٥٠)